مصر والشرق الأدنى القديم

(٥)

الحضارة المصرية القديمة

الجزء الثانى

الحياة الدينية

الأستاذ الدكتور
محمد بيومى مهران
استاذ تاريخ مصر والشرق الادنى القديم
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والاسلامية
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الطبعة الرابعة
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

دار المعرفة الجامعية
٤٠ شارع سوتير الأزاريطة
الإسكندرية

الفصل الأول

فكرة الخلق عند المصرى القديم

حاول المصريون القدامى منذ عصورهم السحيقة التعرف على أسرار العالم ، وكيفية خلق الارض ، وبدء الحياة عليها ، فضلا عن كنه السماء والكواكب التى تتحرك فوق صفحتها ، وقد استطاع رجال الفكر والدين منذ فجر التاريخ ، بعد أن استقرت الامور فى البلاد ، وأخذت الالهة الكونية تحتل مكانة سامية فى النفوس ، أن يقدموا وجهات نظر مختلفة ، فى أربعة مراكز حضارية مختلفة ، عن تفسير النشأة الاولى للخليقة ، ظهرت كل واحدة منها بعد الاخرى ، وكانت هذه المراكز الاربعة على التوالى : عين شمس والاشمونين ثم منف وطيبة .

(١) نظرية عين شمس

كانت نظرية ايونو أو أون (هليوبوليس = عين شمس) أولى هذه النظريات الاربع ، وقالت بماض سحيق قديم ، لم تكن فيه أرض ولا سماء ، ولا حس ولا حسيس ، وما من أرباب أو بشر ، وانما عدم مطلق ، لا يشغله سوى كيان مائى لا نهائى عظيم ، أطلقوا عليه اسم «نون» ظهر منه روح الهى أزلى خالق هو «أتوم» ، لم يجد مكانا يقف عليه ، فوقف فوق «تل» ثم صعد فوق حجر «بن بن» فى هليوبوليس، على هيئة مسلة رمز الشمس ، أبو الالهة جميعا ، وظل آتوم هكذا حينا من الدهر منفردا بوحدانيته ، حتى ذرأ من نفسه — بامتزاجه بظله أو باستمنائه — عنصرين ، الواحد ذكر تكفل بالفضاء والهواء والنور ، وغدا يعرف باسم «شو» ، والاخر أنثى تكفلت بالرطوبة والندى ، وغدت

تعرف باسم «تفنوت» ، ثم تزاوجا وأنجبا بدورهما «جب» اله الارض ، و «نوت» الهة السماء ، ثم أوحى الى «شـــو» أن يفصل بين السماء والارض ، وقد كانتا فى بداية أمرهما رتقا ، وأن يملأ فراغ ما بينهما بالهواء والنور •

ثم ذهب أصحاب عين شمس الى افتراض حلقة وسطى بين الاوضاع المطلقة التى بدأ بها الوجود ، حينما كان خاصا لاربابه الكبار، والاوضاع التى استقر عليها أمر الوجود حينما عمره الانسان ، ودبت فيه حياة العمران ، فذهبوا الى أن «جب» و «نون» انما قد رزقا بمواليد أربعة، ذكران هما أوزير وست ، وأنثيان هما ايزة ونفتيس ، وقد عرف هؤلاء الالهة التسعة باسم «تاسوع عين شمس» أو «التاسوع الكبير» •

ولعل من الاهمية بمكان أن نشير الى عـــدة نقـــاط تتصل بنظرية هليوبوليس هذه أو نظرية التاسوع ، منهـــا (أولا) أن مفكرى عين شمس قد سبقوا مفكرى العالم بفكرة الفصل بين السماء والارض ، ثم رددتها فيما بعد أساطير الخلق العراقية ، وفى القرن التاسع قبل الميلاد (وربما على أيام السبى البابلى فى القرن السادس قبل الميلاد)، وبعد ظهور النظرية المصرية بأكثر من ألفين من السنين سجـــل كاتب سفر التكوين فى التوراة أنه «فى البدء خلق الله السموات والارض ، وكانت الارض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه •••• وقال الله ليكن جلد فى وسط المياه ، وليكن فاصلا بين مياه ومياه ، فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التى تحت الجلد والمياه التى فوق الجلد» •

ومنها (ثانيا) أن أصحاب هذه النظـــرية أرادوا أن يتغلبوا على مشكلة انجاب نسل عن طريق اله وحيد ، دون آلهة أخرى بأن جعلوا أتوم ينجب شو وتفنوت عن طريق الاستمناء ، كما أنهم أرادوا أن يمثل الزوجان الاوليان من أبناء أتوم (شو وتفنوت وجب ونوت) عناصر كونية فى العالم ، هى الهواء والرطوبة والسماء والارض ، وأن يمثل

الزوجان الاخريان (أوزير وايزة وست ونفتيس) ظواهر أرضـيـة فى الكون ، فأوزير انما يمثل النيل الذى يسبب خصوبة الارض وانتاجها للمحاصيل ، وتمثل ايزة الارض السوداء التى تنتج المحـاصيل بعد ارتوائها من مياه النيل ، بينما يمثـل ست أرض الصحراء القاحـلة الحمراء ، وتمثل نفتيس تلك الارض البـور التى كانت مهيئة للانتاج اذا ما وصلتها مياه النيل ، ومع ذلك فلعل الفكر الدينى الهليوبوليتانى انما أراد من وجود هذين الزوجين تمثيل الكائنات التى تعيش فى هذا الكون ، بشرا أو آلهة ، بعد خلق عناصره ، على أن هناك من يذهب الى أن هذين الزوجين انما يمثلون جسرا بين الطبيعة والانسان ، وليسوا عناصر كونية أبدا .

ومنها (ثالثا) أن هذه النظرية لم تقدم لنا نظرية متكاملة عن الخلق، فقد بدأت عملية الخلق بارتقاء أتوم فوق تل ، ثم صعد فوق حجـر «بن بن» فى هليوبوليس حتى ذرأ من نفسه الزوج الالهى الاول شو وتفنوت ، ولكنها لم تشرالى دور أتوم كخالق بالنسبة الى «الهيولى» أو «الماء الازلى نون» (مادة الكون قبل خلقه) ، وهل أتوم هو الذى خلق نون ، أم ان نون هو الذى خلقه ، فان صح الاحتمال الثانى ، فلن يكون «أتوم» هو الاله الازلى الذى خلق نفسه بنفسه ، والامر كذلك بالنسبة الى التل البدائى الذى صعد فوقه ليمارس عملية الخلق.

ومنها (رابعا) أن آراء أصحـاب هذا المذهب قـد تباينت حول الطريقة التى ذرأ بها أتوم مخلوقاته الاوائل ، لاسيما ولديه القديمين شو وتفنوت ، فقال أيسرهم سبيلا ، انه خلقهما بماء اللقاح ، كمـا يخلق بنو البشر عادة ، غير أن هناك من حاولوا أن يخرجوا من المدلول اللفظى للاسمين ، شو وتفنوت ، بما يدل على طريقة خلقهما ، فقربوا بين كلمة «شو» وبين الصوت الذى يصدر عن الفم اذا نفخ ، والانف اذا عطس كما قربوا بين كلمة تفنوت وبين الصوت الذى يصدر عن الفم اذا تفل ، وانتهوا من ذلك الى أن ربهم الخالق أتوم نفخ ذات

مرة أو عطس عن قصد ، فصدر عنه «شو» روح الهواء ، وتفل مرة أخرى فصدرت عنه «تفنوت» روح الرطوبة والندى •

ومنها (خامسا) أنه حدث فيما أعقب تاليف المذهب من عهود أن تولى الزعامة فى مدينة ايونو جماعة من أهلها أو من جوارها القريب (ربما من مدينة «ساخبو» على الضفة الغربية فى مواجهة ايونو عبر النهر تقريبا ، وربما كانت ساخبو ممتدة الى ايونو ، أو أن ايونو قد امتدت ضواحيها الى ساخبو) دانوا بدين اله الشمس رع ، وأفلحوا فى أن يجعلوا مدينتهم حاضرة رئيسية فى ملك مصر العريض ، ولم ينشأ أنصار رع لانفسهم زعامة الحكم وحده ، وانما ابتغوا كذلك زعامة فى الفكر والدين ، ولم يكن أقرب الى توطيد زعامة الدين فى جانبهم من أن ينادوا بربهم رع كبيرا لبقية من كان يتعبدهم أهل عصرهم من الارباب ، لولا أن مدينتهم ايونو (عين شمس أو فيما بينها وبين المطرية) كانت من قبل قد آمنت بربها آتوم ، واعتبرته خالقا للوجود والارباب على سواء ، وتعين من ثم على أصحاب رع أن يتلمسوا للربط بين ربهم وبين أتوم ما يستطيعونه من الصلات والاسباب ، وتفتحت قرائحهم عن طائفة من قضايا المنطق والتلاعب باللفظ ، لم يسجلوها للاسف فى عهودهم الاولى ، وانما عبرت عن أمثالها عبارات أخرى تناقلها أشياع مذهبهم فيما تلاهم من عصور ، وسجلوها فى متون لهم متفرقة خلال عصر الدولتين الوسطى والحديثة•

وفى جانب من هذه المتون نسب أنصار المذهب الى أتوم عبارة يقول فيها عن نفسه «ظللت أتوم حين كنت فردا ، غير أنك أصبحت رع منذ تجلياته القديمة» وعبارة أخرى يؤكد فيها ذات المعنى ، فيقول «ظللت آتوم حين كنت وحيدا فى نون ، ولكنك غدوت رع فى جلاله منذ بدأ يشرف على ما خلقه وأبدعه» ، وبأشباه هاتين العبارتين ، ان لم يكن بنصهما ، خرج أنصار رع يعلنون على الناس أن ربهم رع لم يكن الها جديدا على الاطلاق ، وانما هو أتوم الخالق القديم من بعد أن شاءت ارادته أن يتجلى على الناس فى هيئة اله الشمس «وأن ينير

العالم من أفقه العظيم» ، فالامر اذن فى زعمهم لم يكن أكثر من تداول بين اسمين ، أما الرب الخلاق صاحب الاسمين ، فهو واحد •

وعلى نحو قريب من هذا المنطق تيسر لاصحاب ايونو أن يزاوجوا بين الاسمين ، فاصبح ربهم الخالق يدعى «رع أتوم» ، وأخذ أشياعهم عصرا بعد عصر ، يضيفون الى أتوم كل النعوت التى كانوا يخلعونها على رب الشمس وحده عن سبب أو أكثر من سبب ، ومن هذه النعوت «خبرى» ، وهو من ألفاظهم التى تلاعبوا بها تلاعبا واسعـــا ، وكانوا ينطقونه «خبر» ، ويكتبونه بصورة «الجعل» أو الجعران فى كتابتهم التصويرية القديمة ، ويدل هذا اللفظ فى بعض صيغـــه على الافعال «حدث ونشأ وتكون وأصبح» كما دل فى صيغ أخـــرى له على اسم «الوليد» وصفة «الحدث» بمعنى حديث التكوين ، واذا أضيفت اليه «ياء» أخيره أو جـــرة ، فأصبح «خبرى» غـــدا معنـــاه «الكائن» أو «الموجود» واذا كررت راؤه الاخـــيرة فأصبح «خبرر» دل على نفس معنى الكائن الموجود ، وزاد عليه خاصة الاستمرار ، فغدا يعنى «دائم التكوين ودائم الوجود» ، فضلا عن دلالته على حشرة الجعل التى يكتب اللفظ بصورتها •

وأطلق القوم لفظ خبر ومشتقاته على طائفة من المقدسات والارباب فأطلقوه تـــارة على كوكب الشمس حين الشروق ، وابتغـــوا بذلك أن يصفوه بصفة الحدث الذى ظهـــر لتوه ، ثم عادوا وأطلقوا الاشتقاق «خبرى» على رب الشمس ومسير كوكبها ، وابتغوا به معنيين ، أحدهما فقهى ، وهو تلقيبه بلقب الكائن أو الموجود ، والآخـــر شعرى : وهو تصويره للناس بصورة الجعل العادى حين يدفع بويضاته أو كرة طعامه بين يديه ويدحرجها فى طريقه منذ صباحه الباكر ، وادخـــر أهل ايونو الاشتقاق الاخير من «خبر» ، وهو «خبرر» لربهم الخالق أتوم ، وابتغوا بل كذلك معنيين ، معنى فقهيا يرمى الى تلقيبه بلقب دائم الوجود أو دائم التكوين ، ومعنى آخر شعريا أو مجازيا يرمى الى تشبيه ظهوره الفجائى القديم من نون ، بما يظهر للناس من حال الجعل العادى حين

كمن فى باطن الرمل ثم يظهر فجأة على سطحه ، وكأنه ظهــر من دنيا العدم الى دنيا الوجود •

ومنها (سادسا) أن أتوم بصفته «خالق نفسه» ، فان العمل التالى الذى قام به انما كان خلق آلهة أخرى ، ونظرا لكونه كان وحيداً فى العالم وقت ذاك ، فقــد خلق ذريته دون زوجــه ، بامتزاجه بظله أو باستمنائه ، ومن ثم فقد اعتبرته بعض النصوص الها يجمع بين الذكورة والانوثة ، وأطلقت عليه «عظيم هو — هى» •

ومنها (سابعا) أن تفنوت ، فيما يبدو ، كانت لها أهمية أقل فى نظرية الخلق الهليوبوليتانية ، باستثناء وظيفتها كزوجة لشو ، غير أن الكهنة سرعان ما نادوا بأن «شو» انما كان عماد الحياة منذ وقت مبكر ، وأن «تفنوت» انما هى أساس النظام فى الحياة ، وأطلقوا عليها اسم الالهة الشهيرة «معات» ومن ثم فقد أصبح شو وتفنوت الهين صالحين لحمل دورة الخلق وتأسيس النظام الاجتماعى ، وعلى أى حال ، فليس هناك من دليل على المكان الذى وقعت فيه هذه الاحداث المبكرة ، فقد خلق شو وتفنوت ، طبقا لبعض النصوص على التل الازلى •

ولكن طبقا لنصوص أخرى ، فان أتوم ظل فى ميــاه نون ، حيث أنجب فيهــا ولده وابنته ، وتعهدتهم بالرعاية عين أتوم ، وذلك طبقا لاسطورة تذهب الى أن شو وتفنوت قد انفصلا عن أتوم فى أحراش مياه نون ، ومن ثم فقد أرسل أتوم عينه لتجىء بهما ، ولكنه فى نفس الوقت فقد استبدل هذه العين بعين أخرى أكثر لمعانا ، مما أغضب العين الاولى كثيرا ، وحينئذ أخذها أتوم ووضعها على مقدمة رأسه ، حيث تستطيع أن تحكم العالم الذى كان على وشك أن يخلقه ، وقد صورت هذه العين كالهة مدمرة ، وكان أحد مظاهرها الشمس المحرقة فى مصر ، ثم ارتبطت مع الالهة الكوبرا ادجو ، التى مثلت على رؤوس الفراعين كرمز لقوتهم ، وعندما عاد شو وتفنوت الى أتــوم سالت دموعه من الفرح ، ومن هذه الدموع جاء البشر ، وعندما عاد أتوم لاولاده كان مستعدا لترك مياه نون وخلق العالم •

ومنها (ثامنا) أن أولاد جب (الارض) ونوت (السماء) الاربعة ، وهم أوزيروايزه وست ونفيتس (فضلا عن حور بن ايزه ، والذى كان أحيانا ابنا لنوت) انما أدخلهم الكهنة الى نظرية الخلق الهليوبوليتانية كآلهة أقل مكانة من آلهة التاسوع الاصليين ، ومع ذلك فان هذه الالهة الذى أطلق عليها اسم تاسوع هليوبوليس قد بقيت كتقليد فى الديانة المصرية القدمة ، وقد وضعت فى مراكز العبادات الاخرى بنفس هذه الصلات الاسرية ، وربما ارتبطت ببعض العبادات الاخرى مع شىء من التغيير كما يبدو ذلك بوضوح فى أصل أتوم فقد أعتبر بشكل عام أنه خلق نفسه بنفسه وان قيل كذلك انه ابن « نون » فى محـاولة لنسبة الخلق فيها الى نون وجب ونوت ، ومن ثم فهو ــ مع اخوته الاربعة، أوزيروايزه وست ونفتيس ــ انمـا كانوا مسئولين عن ولادة الناس على الارض ، بينما تذكر نصوص أخرى أن «نوت» انما قدسميت «أم الالهة» و «التى تحمل رع كل يوم» ومرة ثالثة نقرأ فى متون الاهرام أن الفرعون «ببى» قد تناسل من أتوم ، قبل خلق السموات والارض والالهة والناس والموت ، وفى فقرة أخرى يدعى «ابن نوت» وقد ولد قبل أن تخلق السموات والارض [1] .

---

(١) عبد العزيز صالح : فلسفات نشأة الوجود فى مصر القديمة ص ٣٣ ــ ٣٧ ، محمد عبد اللطيف : فكرة الخلق فى مصر القديمة ص ١٠٣ ــ ١٣١ ، تكوين ١ : ١ ــ ٨ ، وكـذا ياروسلاف تشرنى : الديانـة المصرية القديمة ترجمة أحمـد قدرى ــ القاهـرة ١٩٨٧ ص ٥٢ ــ ٥٥ ، أدولف ارمان : ديانة مصر القديمة ص ٧٢ ــ ٧٤ ، فرانسو دوما : آلهة مصر ــ القاهرة ١٩٨٦ ص ١٠٧ ــ ١٠٩ .

E. Naville, The Old Egyptian Faith, P. 122-129, V. Lons, Egyptian Mythology, P. 26-32.

S. Mercer, The Pyramid texts, I, P. 33, 125-126 E. A. Budge, Book of Dead, I, P. 8. 62, 285, J. A. Wilson A.N.E.T., P. 3, Intellectual Adventure of Ancient Man, P. 54; H. Frankfort Kingship and the Gods, P. 33, 125-126, 155-182.

B. Gunn, JEA III, 1916, P. 84-85.

V. Lons, Op. Cit., P. 34-37; A. Erman, the Literature of Ancient Egyptians, 50-52, 61-26-74-82.

(٢) نظرية الاشمونين

كانت نظرية الاشمونين أو الثمانية[٢] أكثر تطورا من تلك التى سبقتها، وقد ردت أصل الوجود الى ثمانية عناصر طبيعية أولية سبقت ظهــور «رع أتوم» ومهدت لوجــوده ، وتعصب هؤلاء لعناصرهم الثمانية ، وأطلقوا عليها اسم «الثامون» ، وخلعوا اسمها على مدينتهم فدعوها «مدينة الثامون» (الاشمونين) ، غير أنهم حين بدأوا بصياغة مذهبهم خلال العهود الاواخر من فجر التاريخ القديم ، لم يكونوا قد اهتدوا بعد الى سبل الكتابة والتدوين ، ومن ثم فقد كان على المذهب أن يظل على أفواه أصحابه حتى تبدأ عصور الكتابة فى القرن الثانى والثلاثين قبل الميلاد أو نحوه ، حيث بدأت بهما العصور التاريخية •

غير أن ظروفا أخرى ساعدت على بقاء مذهب أونو (خمنو) فى طى النسيان قرونا طويلة ، منها أن أمور السياسة والفكر لم تعد وقت ذاك تتقبل الاقليمية من أهلها ، وانمــا اتجهت الى دعم المركزية المطلقة فى عاصمة الدولة وحدها ، ومنها أن رجــال الدين فى الدولة القديمة حين عمدوا الى تدوين أولى موسوعاتهم الدينية والمذهبية فى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ، كانوا من أنصار رع ومذهب التاسوع بالذات ، فعمدوا الى تجاهل مذهب خصومهم من أهــل أونو ، ولم يذكروا غير

---

(٢) كان عدد الثمانية الذى عــرفت به مدينة الاشمونين يشير الى الالهة الثمانية التى كان موطنها الاصلى مدينة «أونو» وقد نطق فى المصرية القديمة « خمون » أو«خمنو»وفى القبطية«شمون»ثم ثنى لفظه فى اللغة العربية فاصبح «شمونين» ، وظل يطلق على الجانبين الواقعين على بحر يوسف من مدينة الاشمونين،على أن هناك من يذهب الى أن اسم«خمون» أو «خمنو» سبقه الى الوجود ، فيما قبل العصر الاهناسى ، اسم «أونو» التى أعطت اسمها للاقليم «ونوت» وكانت تقع فى العصر التاريخى فيما وراء خمنو ، ثم أصبحا فيما بعد مدينة واحدة تتكون من جزأين ، الواحد «ونو» والثانى «خمنــو» ، وكانت خمنــو (الاشمونين) عاصمة الاقليم الخامس عشر من أقاليم الصعيد ، وقد عرف باسم أقليم الارنب،الذى رمز له به ، وقد أطلق الاغريق على المدينة اســم «هرموبوليس» أى مدينة هرمس ، الاله اليونانى المقابل للاله تحــوت اله الاشمونين ، والتى تقع على مبعدة ، ١٠ كيلا شمال غرب ملوى (٤٥ كيلا جنوبى مدينة المنيا) •

أربعة من أسماء عناصره أو نحوها بين الاصول ، وفى العصر الاهناسى لم يستطيع أهل أونو ، فى مقابل منافسة أهـل الشمس ، غير تسجيل أسماء أربابه الثمانية فى عدد من النصوص دون شرح أو تفصيل ، وفى العصور المتأخرة نجح أصحاب مذهب أونو أن يسجلوا ما ترامى اليهم من صفات أربابه وعناصره ، فسجلوها فى بضعة نصوص متفرقة يغلب عليها طابع التفلسف وطابع الاستغلاق فى الوقت نفسه •

هذا وتتفق نظرية الاشمونين أو الثمانية مع نظرية عين شمس أو التاسوع فى أن العالم كان محيطا مائيا اسمه «نون» ، ولكنها تختلف عنها فى أن اله الشمس هنا لم يخلق نفسه ، وانما انحـدر من ثامون مكون من أربعة أزواج على هيئة ضفادع وحيات ، خلقت بيضة وضعتها فوق موتفع على سطح «نون هرموبوليس» ، ومن هذه البيضة خرجت الشمس ، فهـذه العقيدة تنتهى الى الشمس ، ولكنهـا لا تبدأ بهـا ، والشمس ولدت فى هرموبوليس ، وليس فى هليوبوليس ، ومن ثم فان للاولى (هرموبوليس) حق السيادة •

وأما آلهة الاشمونين الثمانية فكانوا عبارة عن أربعة ذكور فى هيئة الضفادع ، وأربعة اناث فى هيئة الحيـات ، وكل منهما مثل مظهرا من المظاهر التى كانت تسود العالم فى البداية ، فالزوج الاول هو «نون» و «نونـه» (نونت) ويمثل الفـراغ اللانهائى ، والزوج الثانى هـو «حوح» و «حوحة» (حوحيت) ويمثل الماء الازلى ، والزوج الثالث هو «كوك» و «كوكة» (كوكيت) ويمثل الظلمة ، والزوج الرابع «نيـاو» و «نيات» و «آمون» و «أمونيت» ، ويمثل الخفاء وأن هؤلاء الثمانية قد خلقوا العالم مجتمعين ، ثم حكموا فترة من الزمن ، أعتبرت بمثابة عصر ذهبى ، ثم انتقلوا بعـد ذلك الى العالم السفلى ، وان استمرت قوتهم بعد موتهم لتكون سببا فى فيضـان النيل ، وفى شروق الشمس كل صباح •

ولعل من الاهمية هنا الاشارة الى عدة نقاط ، منها (أولا) أن نظرية

الاشمونين هذه لم تصل الينا من نقوش معاصرة أو حتى قريبا من ذلك ، كما حدث بالنسبة لنظرية عين شمس ، التى حفظت لنا فى متون الاهرام، وكما حدث بالنسبة الى نظرية منف التى حفظت فى نقش حجـرى ، يرجع الى أيام الملك شباكا (٧١٦ — ٦٩٥ ق٠م) ، وان كانت دون شك ترجع الى تاريخ موغل فى القدم ، ربما بجانب ما ذكرنا من قبل ، أن الاشمونين لم تكن يوما ما مقـرا للعرش المصرى ، ومن ثم لم تجـد ملكا يهتم بها بالدرجة التى تجعله يأمر بنقشها فى مقبرة أو هرم أو حتى على حجر ، وربما تعرضت المدينة للتخريب منذ عصور ما قبل التاريخ ، مما أدى الى ضياع تلك النظرية ، وهكذا لجأ العلماء الى البحث عنها فى مقتطفات من نصوص تنتمى معظمها الى طيبة،والتى كان معبودها آمون، واحدا من آلهة أونو (الاشمونين) الثمانية ، بل أن هذه المقتطفات نفسها انما يرجع معظمها الى العصر اليونانى الرومانى ، وليس الى العصور الفرعونية ٠

ومنها (ثانيا) أن تعاليم الاشمونين انما تبدأ بالبداية الاولى للكون، بالهيولى (مادة الكون قبل خلقه) ، والذى تصـــوره القوم مياها أزلية موحلة بما علق عليها من طمى ، مستمدين هـذه من الميـــاه التى تغرق الارض وقت الفيضان ، ولعل تصور القوم الالهة الاربعة الذكور برؤوس ضفادع ، والالهات الاربعة الاناث برؤوس ثعابين ، انما هو من تأثير آخر فى هرموبوليس يربط هذه الالهة الثمانية بالحيـــاة البرمائية التى تكونت نتيجة لخلق نفسها بنفسها فى الطمى الذى يخلقه عادة فيضان النيل كل عام ، وان ذهبت آراء الى أن تصويـــر الالهة الثمانية بهذه الاشكال انما يعنى فى التفكير المصرى انها كانت فى الواقع حيوانات من هذا النوع ، مخلوقات تكونت بنفسها من الطين ، وذهبت آراء أخرى الى أن الالهة الثمانية فى أشكالها هذه انما هى مناسبة لسكنى الاصل البدائى ، وأنهم لم يكونوا جـــزءا من الكون المخلوق ، وان كانـــوا من الهيولى نفسه ، كما تشير الى ذلك أسماؤهم ، على أن هناك وجها ثالثا للنظـــر يذهب الى أن الالهة الثمانية انما نشأت من تـــل هرموبوليس البدائى ، أى نشأت بعد أرتفاع التل البدائى من الهيولى ٠

ومنها (ثالثا) أن القوم رغم أنهم لم يتركوا لنا نصوصا فى تعليل ما دعاهم الى تخير رؤوس الضفادع لذكور الالهة ، ورؤوس الحيات لاناثها،غير أنه ما من بأس فى أن يظن بهم نوع من القصد السليم وعمق التفكير ، فكل من الضفادع والحيات يناسب الحياة الاولى التى عاشتها الارواح الثمانية كل المناسبة ، فهى تحيا فى الماء واليابس ، وتحيا كذلك عن قربهما ، وتبدو كما لو كانت تختزن فى جوفها الهواء ، ولعلهم زادوا كذلك فافترضوا فى الضفدع على أقل تقدير ، تمثيلها لمرحلة عتيقة من صور الحياة الاولى ، ولا سيما أنه يتبدى من مظهرها الاغبر وجلدها المغض ما يوحى بالقدم والتقادم لجنسها بالفعل ، فضلا عن أنه فى الكثرة الهائلة التى تتوالد بها على شواطىء الماء ما يوحى باتخاذ مخلوقاتها الصغيرة رمزا للكثرة التى تعاقبت بها المخلوقات الاخرى الكبيرة وتم بها عمران الكون ، وهو أمر أخذ به المصريون فى كتابتهم التصويرية القديمة ، فجعلوا من صورة يرقة الضفدع رمزا يعبر عن مائة •

ومنها (رابعا) أن النصوص انما تشير الى أن عمل الالهة الثمانية انما هو خلق النور ، أى خلق اله الشمس ، ومن هنا فقد أطلق عليها «الاباء والامهات الذين صنعوا النور ، والمياه التى صنعت الهواء ، آباء وأمهات الشمس» و «الارواح التى صنعت الشمس» و «والالهة القدامى الذين صنعوا ساكن الافق (رع) ، والذين خلقوا اله الشمس بعد الظلام» ، ويشير كتاب الموتى من عهد الدولة الحديثة الى أن خلق النور انما تم عن طريق الالهة الثمانية القدامى • التى تركت اله الشمس ينشأ فى زهرة من زهور اللوتس عند مصدر الماء القديم ، ومنها خرج اله الشمس ، ويذهب «كورت زيته» الى أن خلق النور انما قد حدث فوق التل البدائى لهرموبوليس ، ذلك لانه انما كان أول قطعة أرض صلبة انبثقت من مصدر الماء نون ، والتى يمكن أن يمارس فوقها هذا العمل •

ومنها (خامسا) انه ربما أمكننا القول أن نظرية الاشمونين هذه ربما تكمل نظرية عين شمس ، فكما أشرنا من قبل أن نظرية هليوبوليس

قدمت لنا نظرية خــلق كاملة للكون الحالى وعناصره ، ولكنها أهملت جانبا هاما من قصة الخلق يتمثل فى مادة الكون وطبيعته قبل الخلق ، فضلا عن التل البدائى الذى مارس فوقه أتوم أول أعماله فى الخلق ، ومن ثم فان نظــرية هرموبوليس تكمل هذا النقص عن طبيعـــة الكون ومادته قبل الخلق ، فتذهب الى أن ثامونها انما هو تشخيص وصفات للهيولى ، وهــو مادة الكــون قبل خلق العالم ، ومن ثم فــاذا ضمت النظريتان الى بعضهما لانتجا نظرية شبه متكاملة لا ينقصها ســوى تفسير كيفية وجود التل البدائى ذلك لان التعاليم الهرموبوليتانية لم تقدم لنا تفسيرا اثيولوجيا مع ضرورة وجود هذا التل لتعيش الالهة الثمانية ، فضلا عن اشارة هذه التعاليم الى قيام هذه الالهة بخلق النور فوق هذا التــل •

ومنها (سادسا) أن تعاليم منف وطيبة عن فكرة الخلق انما تشير الى أن كلا منهما تحاول أن تثبت تفوقها عن طريق تقرير أن الالهة الخالقة فى هليوبوليس وفى هرموبوليس ان هى الا صور ومظاهــر لبتاح منف وآمون طيبة ، مما يثبت أصالة عقيدتى ايونووأونو ، كما أن كلا منهما لها طابعها الخاص ، هذا فضلا عن أن طبيعة تعاليم هرموبوليس والمفهوم الذى تقــدمه انما يشير الى أنها أقدم من تعاليم هايوبوليس ، واذا ماقيل أن الاولى انما قد وضعت لمنافسة الثانية فيما يتصل بنسبة الخلق الى أتوم اله ايونو ، فان ذلك يمكن قبوله بالنسبة لتعاليم منف مثلا ، حيث تنص صراحة على أن أتوم من خلق بتاح ، أما تعاليم أوتو فقد أعطت تفسيرا لطبيعة الكــون قبل الخلق ، ثم خلق النور بانتاج الـــه الشمس الذى لم يكن أتوم ، وانما اله آخر لقبه القوم «شبسى الذى فى خمنو ، الابن الرائع للثامون» ، فضلا عن أنها تعاليم منطقية تعطى تفسيرات معقولة أكثر من عبارة «الذى خلق نفسه» التى نسبها كهان هليوبوليس الى ربهم أتوم ، الذى جعلوه مخلوقا من نفسه ، ولم يخلقه أحد بل أنه خلق كذلك عناصر فى الكون كأبناء له ، منها السماء التى هى فى الواقع أعظم اذ أنــه يسير فى فلكها ، بل هى أمــه التى تنجبه كل

صبلح ، وهذا فى حد ذاته يرجح أن عقيدة هرموبوليس لم تكن أحدث من تلك التى كانت لهليوبوليس [٣] •

(٣) نظــرية منف

استطاع الملك مينا أن يوحد القطرين ، وأن يؤسس الاسرة الاولى المصرية ، وأن يقيم لمصر حكومة متحددة قوية حوالى عام ٣٢٠٠ ق•م ، وأن يشيد له عاصمة جديدة ، هى «أنب حج» (منف) ، وسرعان ما بدأ أهلها يهتمون بتفوق مدينتهم الجديدة على المدن الاخرى ، ليس فقط لانها أصبحت مقر العرش الملكى ، ومن ثم فقــد أصبحت لها الاهمية السياسية الاولى فى البلاد ، ولكن كذلك على أساس أنها مركــز دينى يفوق غيره من المراكز الدينية الاخــرى ، وهكذا بدأت تظهــر فى منف مدرسة دينية ثالثة ، بجانب مدرستى عين شمس والاشمونين •

وفى الواقع فلقد كانت مدرسة منف هذه أكثر المدارس الثلاثة عمقا وأكثرهــا حبكة ، وأقربها الى المعنــوية والمنطق ، وتذهب الى أن ربها «بتاح» هو الرب الخلاق القديم،وأن الارباب الاخرى التى عرفها البشر لم تكن غير صور من «بتاح» ، وأنه منذ أن استوى على عرشه لاول مرة كان روحا للكيان المائى العظيم بكل ما احتواه من ذكر وأنثى ، وهكذا حاول المنفيون أن يجعلوا ربهم بتاح محل أتوم ، رب عين شمس ، وأن يجعلوه على رأس تاسوع مكون من «تاثنن» ثم أتوم ونون ونونة ، ثم أربعة آلهة أخرى هى : حور وتحوت ، ثم نفر توم والثعبان ، ومن ثم

---

(٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٥ ــ ٣٩ ، محمد عبد اللطيف : المرجع السابق ص ١٣١ ــ ١٤٨ ، ارمان : ديانة مصر القديمة ص ٧٢ ــ ٧٣ ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ص ٥١ ــ ٥٢ ، وكذا

B. Gunn, JEA, III, 1916, P. 84-85.

V. Lons, Op. Cit., P. 33-37; A. Erman, the Literature of Ancient Egyptians 1927, P. 298-301.

K. Sethe, Amin und die Achte Urgotter Von Hermopolis, P. 36-38 50-52, 61-62, 74-82; H. Frankfort, Op. Cit., P. 151, 155_166.

فقد أعتبر أتوم فى هذه المدرسة أقل شأنا من بتاح ، كما أن شفتى أتوم وأسنانه التى تفل بهما شو وتفنوت قد استعارهما من بتاح ، كما اعتبر القلب واللسان من أطياف بتاح ، وهذان كانا يمثلان حور وتحوت ، وقد خلق اللسان (أى تحوت) كل شيء بواسطة الكلمة .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى عدة نقـاط ، منها (أولا) أن أصحاب منف قد أبتغوا فى مذهبهم التجديد ، فضلا عن اعـلاء شـأن مدينتهم وأربابها المحليين ، وليس هناك مـن ريب فى أنهم كانوا على دراية بما نادى به مذهبا ايونو وأونو ، ومن ثم فاذا كان أصحاب عين شمس قد شبهوا ظهور ربهم الخالق القديم بظهور ربوة عالية أو طافية فصدقهم القوم وأعتنقوا مذهبهم ، واذا كان أصحاب أونو بدورهم قد نادوا بوجود ربوة عالية ظهر عليها رب الشمس حين خـرج من دحيته لاول مرة ، فلم لا تكون الربوة العاليـة أو الطافية الحقيقية هى منف ذاتها أو جزءا معينا منها ، وهى بالفعل أرض طافية ومن غير مجاز من قبل أن يتحول عنها طوفان الماء القديم أو طغيان فرع النيل القديم ، ولم لا يكون ما حدث فى منف من عمران وتنظيم منذ بداية أنشائها القديم عن تدبير حكيم ، قد حدث مثله عند نشأة الوجود لاول مرة ؟ .

ومنها (ثانيا) أن أصحاب المذهب المنفى انما اعتبروا بتاح ، الـه منف الاكبر ، والمتحكم فى القضاء والقدر ، انما هو الاله خالق العالم كله ، وهو «بتاح» بمعنى المفتاح أو البناء ، وربما الخلاق كذلك، ويلقب أحيانا بلقب «تاثنن» بمعنى رب الارض العالية أو الناهضة ، وهكذا أعلن المنفيون أن الارباب الذين عرفهم البشر جميعا لم يكونوا غير صور من بتاح أو اقانيم له ، وأن بتاح هو الرب الخلاق القديم ، وانه منذ أستوى على عرشه لاول مرة ، كان روحا للكيان المائى العظيم بكل ما احتواه من ذكر وأنثى ، كما كان روحا لليابس القديم أو الارض الطافية الناهضة على حد سـواء .

وارتأى أصحاب المذهب أنه لما كان بتاح هو الاصل والجوهـر ،

والارباب صوره وأقانيمه ، فقد حق له أن يتميز عنهم جميعا بحيث ظل «بمثابة القلب واللسان لهم جميعا» ، وهذا التعبير الخارق للمألوف يصير أكثر وضوحا لنا عندما نعلم أن القلب معناه «العقل» أو «الفهم» ، أما اللسان فهو رمز للنطق أى للاداة التى تبرز أفكار العقل وتعبر عن أوامره،أى أنها تخرج مافيه من خير الى عالم الحقيقة الملموس ، وهكذا، كما قالوا ، لم يكن القلب واللسان بالشىء الهين ، اذ كان لهما سيطرة على كل عضو فى الجسم ، واذا كان ثمة دليل سابق ، فهو «دليل قائم فى كل صدر ، وفى كل فم للارباب والبشر والانعـام والزواحف على سواء» ، واذا كان ثمة دليل مرة أخرى على أهمية القلب فانما يكون مما يلاحظ من أن «ماتشهده العينان وتسمعه الأذنان وتشممه الانف ، انما جميعه الى الفؤاد» و «أما الفم فهو الناطق بكل شىء» •

ومنها (ثالثا) أن أصحاب منف انما ذهبوا الى أن بتاح هـو قلب ولسان التاسوع ، وقد قصدوا بذلك أن بتاح انما هو قلبولسان تاسوع أتوم،ومن ثم فقد سلبوا أتوم رب هليوبوليس،كل عمل خلاق وكل قدرة ونشاط فى الخلق والابداع،مادام قلبه ولسانه اللذين خلق بهما التاسوع الهليوبوليتانى ، ليسا الا أحد مظاهر بتاح ، وهكذا نسب المنفيون عمل آتوم فى الخلق الى ربهم بتاح ، أى أن تعاليم منف جعلت كل النشاط الخلاق لآتوم من عمل بتاح •

ومنها (رابعا) أن هناك من يذهب الى أن فكرة وجود ثمانية أشكال لبتاح ، انما هى اقتباس من فكرة الخلق الهليوبوليتانية التى أعترفت باله الشمس ، ولكنها فى نفس الوقت ذهبت الى أنه من انجـاب الالهة الثمانية الذين يشخصون الهيولى (مادة الكون قبل أن يأتى أى شىء للوجود) ، وما دام هؤلاء الثمانية كانـوا من مادة بتاح ، مظاهر غير مخلوقة لكينونته ، ومن ثم يصبح بتاح خالقا للشمس وللالهة جميعا •

ومنها (خامسا) أن حور كان فى مذهب المنفيين مظهرا لبتاح ، وقد مثل فى الطقوس كفرعون الحاكم ، وقد ظهر فى حجر شباكا (مصدرنا عن المذهب المنفى) كحاكم للارض ومسئول عن توحيدها وذكرها مع الاسم

الكبير «تاثنــن» ، وأصبح تاثنن هــو اسم بتاح فى منف (بتاح التل الازلى) وقد قصدوا من ذلك أن بتاح لم يخلق الارض فحسب ، وانما هو الارض كذلك ، ولعل الهدف تفنيد مزاعم أصحاب هليوبوليس من أن معبدهم مقام فوق نون ، التل الازلى •

ومنها (سادسا) أن مفكرى منف انمــا كانوا يدركون أن كل هذه التمثيلات لبتاح انما هى مجرد رموز ، بمثابة أفكار فلسفية ، فقد كان بتاح يملك قوة الخلق من خلال الفكر والارادة ، وقــد أستبعد أتوم ، وحل محله حور ، الذى ولد بارادة بتاح ، وقد أعتبره المنفيون بمثابة القلب ، كما أعتبروا تحوت بمثابة اللســان ، ربما كمحاولة لادخــال عقائدهم فى نظرية أكثر قدما من نظرية هليوبوليس ، فقد كان حور هو اله الشمس القديم ، وكان تحوت هو اله القمر ، واله الحكمة كذلك ، وقد كان من المفروض أن يكون قلب بتاح هو تحوت ، ولسانه هو حور ، ذلك لان تحوت انما هو العقــل المفكر ، اله الحــكمة والذكاء والعلم، بينما كان حور ممثل السلطة الفرعونية ، سلطة الحــاكم الذى يعطى أوامر تنفذ ، فهو اللسان أو النطق القاطع البات ، هــو الامر الذى يصدر لتنفيذ ما فكر فيه القلب •

ولكن النص صريح ويفرض الالتزام بما جاء به ويجعل الاجتهاد خروجا عليه ، ولو أن المنطق قد لا يتقبل تشخيص القلب ب «حــو» (حور) بعكس الحال بالنسبة لتشخيص اللسان ب «سيا» (تحوت) الذى يمكن قبوله على أساس أن تحوت أيضا ســيد الكلام والصيغ السحرية ، الاله الذى ينطق الكلام بالمنطق الصحيح وبالنغمة الصحيحة، على أنه يمكننا أن نتصور أن المذهب المنفى جعل من حور قلبا لبتاح ربما لان مؤسسى الوحدة ومشيدى منف كانوا من أتباع حور ، ومن ثم فقد نسب كهان منف،ارضاء لهم،الى حور الدور الفعال فى مذهبهم، فجعلوه بمثابة القلب العضو الاكثر أهمية فى تعاليمهم ، فهو الذى تنشأ عنه كل الافكار والاعمال ، بينما يقتصر عمل اللسان على مجرد تنفيذ هذه الافكار باصدار الامر بها •

ومنها (سابعا) أن بتاح لم يكن فى نظر المنفيين هو خالق الكون والروح الخالقه للعالم المادى ، والجامع لكل وظائف الالهة الاخرى فحسب ، وانما كان كذلك خالق النظام الاخلاقى ، مما يشير الى تطور نظرية منف أكثر من نظرية ايونو ، وان كانت معلوماتنا عن الاخيرة ليست كافية ، ويقرر حجر شباكا (الذى دونت عليه تعـاليم منف ، والموجود حاليا بالمتحف البريطانى) أن بتاح هو «الذى صنع الجميع، أحضر الالهة الى الوجود ، انه حقا تاثنن ، الذى أحضر قديما الالهة ، لان كل شىء انبثق منه ، الغذاء والمؤن وقرابين الالهـة ، وكل شىء طيب ، وهكذا اكتشف وفهم أن قوته أعظم من الالهة الاخرى ، لذلك كان بتاح راضيا بعد أن صنع كل شىء ، وكذا كل أمر الهى ، لقد شكل الالهة ، وأسس المدن ، وأوجد الاقاليم ، ومن ثم فهو الذى خلق النظام السياسى ، لقد وضع الالهة فى محاريبهم وصنع أجسامهم بالطريقـة التى ترضى قلوبهم ، ولذا فقد دخلت الالهة فى أجسامها من كل نوع من الخشب والحجر والطفل أو أى شىء مما ينمو فوقه ، قد يأخذون فيه أشكالهم ، ومن ثم فان كل الالهة «كا» ءاتهم قـد جمعت أنفسها له ، راضية ومقترنة بسيد الارضين» ، وهكذا كان بتاح هو «تاثنن» الارض المرتفعة ، اله هذه الارض وروح الحياة الموجودة فيها ، ومن ثم فهو يقوم بتنظيم هذه الارض باقامة المدن والمقاطعات الى جانب أنه أتى بكل الالهة وبجميع الكائنات الى الوجود ، على أساس أن كل شىء فى هذا الوجود انما هو انبثاق منه كالقلب واللسان .

ومنها (ثامنا) وصف بتاح بأنه «تاثنن» التل البدائى الذى ارتفع من الهيولى ، والذى يمثل أول قطعة أرض برزت من هذا الهيولى ، وهذا التل هو الذى مارس فوقـه أتوم أول أعماله فى الخلق ، وفقا لنظرية عين شمس ، وهو المكان الذى تعيش فوقه ثمانية هرموبوليس، طبقا لنظرية الاشمونين ، وقد أشير من قبل الى أن نظرية عين شمس لم تقدم تفسيرا ثيولوجيا عن الهيولى (مادة الكون قبل الخلق) والتل البدائى الذى ارتفع من هذا الهيولى ، وأن نظـرية الاشمونين قـد استوفت الهيولى بأن جعلت الثامون تشخيصا ووصفا للهيولى ، ولكنها

لم تقدم تفسيرا ثيولوجيا لكيفية وجود التل البدائى ، برغم الاشارة الى أن الالهة الثمانية خلقت اله الشمس فوق هذا التل ، وهكذا جاءت نظرية منف لتكمل نظرية عين شمس عن التل البدائى فنادت بأن بتاح تاثنن هو هذه الارض الاولى التى ارتفعت من الهيولى الكونى،وهكذا يمكن القول أن النظريات الثلاث انما تقدم معا قصة خلق متكاملة تقدم تفسيرا للكون وظواهره وكائناته قبل أن تأتى الخليقة الى الوجود وبعد أن أتت •

ومنها (تاسعا) أن كهانة منف حاولوا أن يربطوا مدينتهم بديانة أوزير ، وذلك بادعاء أن أوزير قد غرق عند شاطىء منف ، وأن ايزة وتفنيس قد انتشلتا جسده ثم دفنتاه فى أرض منف ، ومن ثم تصبح منف مخزن غلال الاله التى تمد الارضين بالغذاء ، نتيجة للخصوبة التى اكتسبتها أرضها بدفن أوزير فيها ، ذلك لان أوزير كان ، فيمـا يعتقد القوم ، مياه الفيضان الخصبة أو هو القوة التى تمنح الارض الخصب والحياة ، وبالتالى تصبح منف التى نسب اليها مكان غرق أوزير ودفنه هى أخصب الاراضى المصرية قاطبة ، وهكذا أصبحت مخزن غلال الاله التى تمد الارض بالقوت ، هذا فضلا عن أن المنفيين انما نسبوا الى أوزير ، شأنه فى ذلك شـأن بتاح ، أنه عـلم الجنس البشرى فنون الحضارة ، مما يشير الى أن الكهانة المنفية انما أرادت أن تستميل أوزير وتجعله واحدا فى نظامها •

ومنها (عاشرا) أن أصحاب المذهب المنفى انما أطلقوا على بتـاح كذلك لقب الصانع الماهر المقدس ، كما كان الخالق العظيم ، وقد وحده الاغريق مع المهم «هيفايستوس» ، ولكنه كان كذلك سيدا للصدق ، ومن ثم فقد صحبه تحوت الى الحكمة فى كل مكان ، ولما كانت أفعاله أعمال عدالة كان مع تحوت يعمل كل شىء بصورة كاملة لم يكن مضللا أو مخادعا ولكنه كان صانعا ماهرا ، انه بتـاح ومن هنا فقـد نادت النظرية المنفية بأن العدالة تعطى لمن يفعل ما هو محبوب ، والظلم لمن يفعل ما هو مكروه ، وأن الحياة تعطى للمسالم ويحيق الموت بالمجرم

الاثيم ، وفى التعبيرين «لما هو محبوب وما هو مكروه» نجـد أقدم برهان عرف على مقدرة الانسان على التمييز بين الخلق الحسن والخلق السيء ، لانهما ذكرا هنا لاول مرة فى تاريخ البشر .

ومنها (حادى عشر) أن بتاح قد مارس عمله فى الخلق عن طريق القلب واللسان ، وهو أسلوب فى الخلق لم يشهده فى النظريات الاخرى، فالنظرية المنفية جعلت من الخلق عملية عقلية معنوية صرفة لا تتصـل بالمادية من قريب أو بعيد ، ومن ثم فـلم يكن المذهب فى حاجة الى تقديم تفسيرات عن كيفية خلق السماء أو الارض أو الهواء أو غيرها من الظواهر الكونة الاخرى ، هذا فضلا عن أن بتاح انما هو القلب واللسان فى كل كائن ، سواء أكان من البشر أو الالهة أو أى شيء يعيش على الارض ، ومادام كل عمل أو نشـاط ينسب الى القلب الذى هو منبع كل فكرة ، واللسان الذىيقوم بتنفيذ هذه الفكرة بالنطق بها،ومن ثم فان كل نشاط فى هذه الحياة انما ينسب الى بتاح ، وهذا يعنى أن بتاح هو نشاط هذا العالم وحياته ولولاه لما وجد فى هذا العالم حياة، وهو مبدأ لم تتناوله النظريات الاخرى .

وهكذا كان اللاهوته المنفى الذى كتب قبل العبرانيين وقبل اليونان بأكثر من ألفى سنة ، كان اصراره على وجـود عقل خالق ومسيطر ، عقل صور مظاهر الطبيعة وأمدها منذ البداية بالقاعدة والبرهان ، كان تفكيرا شاهقا فىسموه ، قبل أن يوجد الفكر اليونانى أصـلا ، ولم يستطع المصريون بعد ذلك أن يصلوا الى علوه ، فضلا عن أن يتجاوزوه، هذا فضلا عن أن هذا اللاهـوت المنفى انما يزيل من ديانة المصرين القدامى سمة المادية ، فقد كانت ذات طبيعة روحية وفلسفية لا تبارى من قبل النظريات الاخرى ، فقد كان بتاح روحا خلقت نفسها ، ومسببا للاسباب التى أنتجت كل شيء وكل كائن مادى فى السمـاء والارض والعلم السفلى ، وهكذا انتقل القوم من عالم المادة الى عالم الروح.

على أن هذا اللون من ألوان التفكير فى الخلق وخـالقه لم يجب

ما تقدمه من ألوان أخرى ، فنحن نرى الجديد على رقيه وتهذيبه الى جانب القـديم على ما فيه من خشونة مادية وجفـاف ، وليس ذلك بالشيء الغريب ، فان القديم على جفافه وخشونته حرمه فى ضمـير الزمن وقدسية فى نفوس النـاس ، وآية ذلك ان نظـرية منف على ما فيها من لطف وروحانية لم تستطع أن تجب نظرية هليوبوليس المادية الفطرية بل ان هذه الطبيعة المعنوية التى انفردت بها تعاليم منف عن الخلق هى التى كانت عائقا أمام انتشار هذه التعاليم ، ذلك لأن أفكارها الدينية والفلسفية السامية لم يتقبلها عامة القوم قبـولا حسنا ، ربما لانهم لم يجدوا لها تفسيرا فى الواقع المحسوس ، وربما لانها لم تترك شيئا لنشاط خيالهم أو لادراك عقولهم ، ومن ثم ازدهرت هذه العقيده ابان سيطرة ملوك منف ، ومع ذلك فقد استطاع كهان رع أن ينشروا مذهبهم بنجاح فى الاسرة الرابعة ، وان كان نجاحهم أكبر فى الاسرة الخامسة ، على أن نهـاية الاسرة السادسة ربما كانت بمثابة انهيار للعقيدة المنفية ، كما أن طبيعة بتاح الروحية لم تدعيها فيما بعد واحدة من الكهانات لمعبودها[٤] .

٤ ـ نظـرية طيبـة

كانت المدرسة الرابعة قد نشأت فى طيبة (واست) ، وهى مدينـة تهيأ لها حظ واسع فى عالم الفكر والسياسة والدين خلال فترات قصار من عصر الدولة الوسطى ، وفترات طـوال من عصر الدولة الحديثة ، حتى اصبحت كبرى عواصم الشرق القديم من غير منازع ، وفى فترة

---

(٤) جيمس هنرى برستد : فجر الضمير ص ٤٨ ـ ٦٠ ، أحمد بدوى فى موكب الشمس حـ١ ص ١٥٨ ـ ١٥٩ ، عبد العـزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٩ ـ ٤٣ ، محمد عبد اللطيف : المرجع السابق ص ١٤٦ـ١٧٦ ياروسلاف تشرنى : المرجع السابق ص ٥٤ ـ ٥٥ ،فرانسو دوما : آلهة مصر ص ٦٤ ـ ٧٠ .

J. A. Wilson, the Culture of Ancient Egypt, P. 58-61.
ANET, P. 4-6; H. Frankfort, Op. Cit., P. 24-31; V. Lons, Op. Cit. P. 33-34; E. A. Budge, Op. Cit., P. 265-270, P.Boylan, Thoth the Hermes of Egypt, P. 110-111; J. Vandier, Op. Cit., P. 34.

لاندرى تحديدها عن يقين خرج أهل الفكر والدين فى واست (الاقصر) بمذهب جديد من مذاهب نشأة الوجود،وكان من البدهى لهؤلاء ان يبدأوا بمدينتهم ، وأن يلتمسوا لها من متن الطبيعة وتـدم النشاه وقداسة السمعة ، ما يكفل تصويرها للناس على أنها الموطن القديم للبدء والخلق والعز والمجد ، دون أية مدينة أخرى سواها ، وهكذا مهد اهل طيبه أو واست لأزلية مدينتهم ، ثم يفعلون الشىء نفسه بالنسبة لربها آمون، فاعلنوه ملكا للارباب جميعـا ، وتعمدوا أن يوحـدوا بينه وبين الهة المذاهب القديمة جميعا ، وأن يجعلوه المصدر الازلى القديم لها جميعا.

وانطلاقا من هذا فلقد بدأ أنصار آمون ينسبون اليه كل ما يليق بمكانة ربهم الذى أيدهم بنصره فى مصر وخارجهـا ، فاعطوه الصفة العالمية ، وردوا اليه ربوبية النشأة الاولى ، كما ردوا اليه روبية النشأة الاخيرة ، واعتبروه ربا للوجود ، ذلك أن آمون انما قد أصبح ، طبقا لمذهب طيبة هذا ، والذى تاثر بمذهب الاشمونين ، هو الاله الاكبر الذى أوجد ذاته بذاته ، شأنه فى ذلك شأن أتوم ، لم يكن هناك اله آخر غيره ليخلقه ، ومن ثم فلم يكن له أب ولا أم ، لم يكن مرئيا،وانما ولد فى الخفاء ، واستمر فردا حتى أتم عهدا قدره لنفسه ، وحين ذاك تخير لنفسه مكانا قدسيا آوى اليه واستقر فيه ، وظل أمر الاله خفيا باسمه وشكله والمقر الذى استقر فيه ، حتى ابتغوا أنصاره أن ينسبوا اليه ألقـابا ثلاثة يرتضيها لنفسه ، فدعـوه «آمون» بمعنى الخفى ، و «آمون رنف» أى خفى الاسم ، و «كم آتف» بمعنى الذى أتم عهده، كما جروا على أن يرمزوا اليه تجاوزا بهيئة الثعبان ، ويتخيلوا مأواه المختار فى عالم سفلى بعيد يقع مدخلهلدى مكان دعوه «يأت ثامو» على مقربة من مدينة «حابو» بغربى طيبة ، وظل أمره كذلك حتى اتجه الى خلق الارض ، وهنا أطلق عليه أنصاره لقبين ، الواحد آمون بمعنى الخفى ، والاخر «ايرتا» بمعنى خالق الارض ، أو صانع الارض .

وارتأى رب واست (الاقصر) بعد ذلك أن يغادر مقره القديم ، وأن يتزود له بقدرة الخلق والاخصاب،فاتجه الى الاشمونين،وهناك أصبح

واحدا من أربابها الثمانية الكبار ، وان زعم الطيبيون أنه كان قد خلق الارباب الثمانية من نفسه قبل ان يغادر طيبة فى مكان معبد الاقصر الحالى ، والذى أقيم بعد ذلك بعشرات القرون ، ومن ثم فان آمون حينما ظهر فى ثامون الاشمونين انما استمرت له الهيمنة وظل صورتهم المثلى ، ولم يعدوا أن يكونوا أقانيمه أو توائمه ، و فى هـذا الوضع الاخير فى الاشمونين أصبح آمون ربا للهـواء وحفيظا على مقومات الحياة وشريكا فى توليد شمس السماء ، وصـورة أصلية من الهها فى الوقت نفسه ، ومن ثم فقد اتجه أصحابه الى التعديل فى ألقابه القديمة، لفظا ومدلولا ، فخلعوا عليه لقب آمون القديم ، ولكن بمدلول جديد، وهو «الحفيظ» ، كما أضافوا اليه لقبا آخر فجعلوه «آمون رع» تنويها بألوهيته للشمس وما يصدر عنها من حرارة ودفء ونور •

وأما الارباب الثمانية التوائم فى أونو ، فقد نصبوا اله الشمس فى هيئته الجديدة خليفة لهم ، ثم خرجوا معه بعد ذلك الى عدة مواضع أصبحت فيما بعد عواصم الدين والملكوت جميعا ، خرجوا به الى عين شمس (ايونو) فقضوا بها زمنا وجعلوا له فيها شأنا كبيرا ، ثم رجعوا به الى الاشمونين حيث أكدوا له ملكوات الهواء ، ثم انطلقوا به بعد ذلك الى منف حيث عهدوا اليه بعرش ربها ، وأخيرا عادوا به الى طيبة، حيث استقروا فى عالمها السفلى ، على مقربة من مدينة حابو ، حيث أستقر قبلهم «كم آتف» أصلهم الازلى القديم •

وكان من نتائج ذلك كله عدة دعاوى ، منها (أولا) أن رب الشمس الذى عهد الارباب الاوائل بخلافتهم اليه ، لم يكن رع ، أو رع أتوم، وانما كان آمون الذى يرجع نسبه الى طيبة وحدها ، ومنها (ثانيا) أن آمون رع انما قد جمع كل مظاهر السلطة والتقديس التى زعمها كهان عين شمس والاشمونين ومنف لاربابهم ، وأن آمون رع الذى ورث عروش الالهة لم يكن فى الواقع غير فيض أخير للاله القديم «كم أتف»، معبود واست (ويزة) ، وخالق الارض ، واله التناسل •

ومنها (ثالثا) أن الروح الالهية التى اعتاد الناس أن يتعبدوها فى

معابد واست (الكرنك والاقصر وحابو وغيرها) لم تكن غير روح واحدة تعددت أوضاعها ، ولكنها صدرت جميعها عن واحد ، وامتدت جميعها الى واحد ، ومن ثم فقد ظل آمون رع رب معبد الكرنك وملك الارباب ورب العروش ، حريصا على أن يتردد على معبد الاقصر مرة كل عشرة أيام ، ليؤكد قدرته على الخلق والاخصاب ، كما ظل كذلك يزور معبد حابو من حين الى حين ليؤكد روابطه القديمة بكل من المصدر الاول الذى صدر عنه وهو «كم آتف» والاقاليم الثمانية التى صدرت منه ، والتى تواضع الناس على تسميتها باسم الثامون الازلى •

ومنها (رابعا) أن طيبة انما كانت أول مدينة ظهرت فى الوجود ، ثم تكونت بعدها المدن الاخرى ، وكانت واست الماء الاول (نون) والارض الاولى (التل الازلى) وقد تأسست طيبة فوق التل ، ومن ثم بدأ العالم ، ثم خلق الجنس البشرى ليشيد المدن الاخرى ، (شأنها فى ذلك شأن عين أتوم التى تشرف على شو وتفنوت فى مياه نون) •

ومنها (خامسا) أن الكهانة الطيبية انما زعمت أن مدينتهم طيبة انما كانت كذلك مكان مولد أوزير ، وليس هنـاك من ريب فى أن ذلك انما يرجع الى الوقت الذى حاز فيه أوزير على مكانته الشعبية فضلا عن ارتباطه بالبيت الملكى وبخصوبة الارض •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة أخيرا الى أن أصحـاب المذاهب المصرية لم يتصوروا خطة محددة لخلق الانسان ، وانما صدرت عنهم آراء متفرقة يمكن اجمالها فى ستة آراء منها (أولا) رأى قديم مادى شائع رد أصحابه خلق الانسان الى أرباب عدة ، ردوه الى اله دعوه «خنوم» ، وصوروه جالسـا الى دولاب الفخـار يسوى الاجنة من صلصال ، ثم جعلوا له شريكة فى بعض الاحايين دعوها «مسخنت» ، وردوا الخلق تارة ثالثة الى ثلاث من الربات الاناث هن «حقت ورننت ومسخنت» ، وكانت «حقت» تصور عادة بهيئة الانثى ورأس الضفدعة، و «رننت» يدل اسمهـا على معنى المربية ، و «مسخنت» واحدة من ربات الوضع والولادة •

ومنها (ثانيا) رأى جمع أصحابه بين المادية والواقعية ، واعتقدوا أن الانسان خلق أصلا من صلصال ، «وأن الاله هو مسويه» ، وأن هذا الاله «لايزال يرفع الناس ويخفضهم كل يوم ، فيجعل ألفا منهم توابع ان شاء ، وألفا رؤساء ان شاء» ، ومنها (ثالثا) رأى معنوى يذهب الى أن خلق البشر تأتى عن رغبة أرادها الاله وأمر بها لسانه ، فكان من أمر خلقهم وتناسلهم ما كان ، ومنها (رابعا) رأى ذهب الى أن الاله خلق الناس على صورته ومن ذات بدنه ، ولايزال يرعاهم أجنة وكبارا ، ومنها (خامسا) رأى شاعرى ذهب الى أن الاله خلق الناس من عينيه وأرسلهم على الارض مع دموعه .

ومنها (سادسا) رأى أسطورى ذهب الى أن خلق البشر تم فى مصر وحدها ، لولا أن تمرد بعضهم على سلطان ربها ثم تخوفوا نقمته، فتفرقوا شر فرقة[5] ، وفرت جماعات منهم الى الجنوب حيث أصبحوا السلف القديم للسودانيين ، وهرع آخرون الى الشمال فكانوا أسلافا للاسيويين على حين تناسل الليبيون من الهاربين ناحية المغرب ، ونشأ أسلاف البدو من اللائذين بالشرق[6] .

---

(٥) قارن : تكوين ١١/١ ــ ٩ .

(٦) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٤٣ ــ ٤٦ ، تشرنى : المرجع السابق ص ٥٥ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر .

J. A. Wilson, Op. Cit., P. 130-131. V. Lois, Op. Cit., P. 37-38.

وانظر :

S. G. F. Brandon, Creation Legends of The Ancient Near East, London, 1963.

الفصل الثانى

المعبودات المصرية القديمة

تمهيـــــد :

لم تكن هناك قوة فى حياة الانسان القديم يسيطر أثرها على نشاطه ــ فيما يرى برستد ــ كما يسيطر الدين ، ذلك لان الدين كان منفذا للخيالات ، ومحاولة لتفسير الظواهر المحيطة بالانسان ، وهو يصدر دائما عن رغبة أو رهبة ، رغبة فى المنفعة أو رهبة من المجهول والاخطار، والحياة لا تتأثر بالدين فحسب ، بل تختلط وتمتزج به امتزاجا يتأثر بالانطباعات الخارجية حتى يخرج من ذلك كله مزاج يتطور مع القوى الكامنة فى الانسان ، هذا وكانت الطبيعة المبشر الاول للدين ، اذ فسر الانسان مظاهرها حين عجز عن فهمها بأن عزاها الى قوى خارجة عن نطاق تفكيره ، والالهة أو المعبودات فى رأى الانسان القديم كالبشر يمكن أن نترضاهم بالقرابين والتقدمات،ولهم صفات البشر أحيانا كذلك.

هذا وقد تكون عند المصرى القديم نوعان من الالهة ، آلهة عالمية، وآلهة محلية ، وقد لعبت الاخيرة عنده الدور الرئيسى ، وقد ظلت تعبد حتى نهاية العصور الفرعونية ، وذلك لقربها منه ، ولتأثره المباشر بها، حتى أصبح لكل أسرة، ولكل قبيـلة ، ولكل اقليم ، معبوداتها المحلية المتعددة ، غير أن نفوذ كل معبود انما كان أحيانا لا يقتصر على منطقته التى نشأ فيها ، وانما كان يمتد الى ما حولها من القرى حسب أحوال البيئة التى تحيط بمنطقة نفوذه ، وخاصة الاحوال السياسية ، فـاذا ما عظم شأن قبيلة سياسيا تغلب الهها على ما حولها من القبائل الاخرى دينيا ، وأصبح اله هذه القبيلة هو صاحب النفوذ الاعظم .

واستمر الحال على هذا النحـو حتى أصبح لمصر كيان سياسى ،

فاندمجت المناطق بعضها فى البعض الاخر ، وانقسمت الى قطرين ، ثم اتحدت البلاد تحت امرة ملك واحد ، وهنا ظهر نوع ثالث من الالهة، هو معبود الدولة الذى كان فى الاصل أحد المعبودات المحلية ثم استطاع حاكم اقليمه أن يفرض سيطرته على مصر بأكملها ، وحتم على القوم أجمعين أن يقدسوا معبوده ، فيصبح بالتالى معبود الدولة بأكملها •

على أن المعبودات المحلية ، رغم أنها أساس الديانة المصرية القديمة ، فان قوى الطبيعة العالمية قد قامت بدور هام فى معتقدات القوم فى كل عصور التاريخ المصرى القديم ، ولابد أن هذه الالهة كانت تعبد منذ الازل بصفة عامة ، غير أنها لم تحتل مكانة مرموقة ، على ما يظن ، فى نفوس القوم الذين كانوا لا يؤمنون الا بعبادة الاشياء المحسة القريبة الى عقولهم ، وربما لم تتأصل عبادة القوى العالمية فى نفوس القوم بسبب تطورات عقلية ، وربما بسبب توجيهات رجال الفكر والدين عندما أرادوا تفسير أصل العالم وتكوينه ، ولا نزاع فى أن الالهة العالمية اذا ما قورنت بالالهة المحلية ، فان الاخيرة تتضاءل أمام الاولى ، وربما كان من المرجح أن عبادة القوى الطبيعية البارزة لم تأت الا بعد اتحاد القطرين •

هذا وقد بدت لنا الالهة العالمية اما فى صورة انسانية أو صورة حيوانية ، فقد ظهر اله الشمس فى صورة انسان برأس صقر ، كما مثلت الهة السماء «نوت» فى صورة بقرة كبيرة تعتمد على قوائمها الاربع التى تمثل دعائم السماء ، يبحر فيها قارب يحمل شمس الصباح، وقد ظهرت السماء كذلك امرأة تحل محل البقرة أحيانا ، تنحنى بجسمها المديد فوق الارض ، وتعمد على ذراعيها وساقيها التى تحل محل قوائم البقرة ، ومن ثم نفهم أن نظام عبادة القوى الطبيعية يرجع الى عهود قديمة جدا ، وربما قد عبدت هذه الالهة الطبيعية فى بادىء الامر فى صورة مبهمة ، ومن ثم فلم يكن لها محاريب خاصة ، وأن محرابها انما كان الكون نفسه ، غير أن المصرى الذى لم يكن يؤمن الا

بالمرئيات والاشياء المحسة قد اتخذ لها أماكن عبــادة كالتى اتخذها فى بادىء الامر لالهته المحلية •

هذا ومن المعروف أن الدين المصرى القديم انما كان — كما ظل طوال ألف وخمسمائة عام — ثمرة تداخل عدد كبير من العبادات القبلية الاصلية ، وكان لكل مدينة معبودها الخاص ، ومن ثم فقد تميزت كل منطقة بمعبود خاص ، ربما كان فى الاصل هو الكائن الغالب فى البيئة أو ذو التأثير الكبير فى سكانها ، وهكذا عبد التمساح فى المناطق التى تكثر فيها الجزر أو البحيرات ، حيث يكثر وجوده هناك ، ومن ثم فقد عبد فى منطقة دندرة ، عند ثنية قنا ، حيث ينحنى النيل ويتخلف عن انحنائه عدة جزر ، لاريب فى أن عددها كان فى تلك الايام الغابرة أكثر منه اليوم ، كما عبد فى منطقة وادى كوم أمبو ، وفى الفيوم حيث توجد بحيرة قارون العذبة ، وما يتصل بها من بحـــيرات صغيرة تتناثر بها الجزر التى تأوى اليها التماسيح ، كما عبدت الثعـــابين والافاعى فى مناطق التلال القريبة من الوادى ، حيث يكثر وجودها هناك ، كما فى قاو الكبير ، وفى مستنقعات الدلتا ، كما فى بوتو ، كما عبدت السبع فى الاقاليم المجاورة للدلتا •

وعبدت الصقور فى مناطق التقاء الوديان أو الطرق الصحراوية بوادى النيل ، كما فى ادفو حيث ينتهى وادى عبادى ، وفى قفط حيث ينتهى وادى الحمامات ، فضلا عن المناطق التى تتاخم الصحراء والتى تقع فى أقصى شرق الدلتا ، وغربها ، كما فى دمنهور وفى أوسيم ، وفى منطقة صفط الحنة قريبا من فاقوس ، كما عبد الذئب وابن آوى فى تلال أسيوط شبه الجبلية وفى أقاليم مصر الوسطى ، وعبدت القطط فى بوباستة وعند وادى بنى حسن ، وأنثى النسر فى ثالث أقاليم الوادى من الشرق ، والصقر من الغرب ، وعبد الكبش فى كثير من الاقـــاليم المصرية من مطلع الوادى الى رأس الدلتا •

على أننا يجب أن نلاحظ أن القوم لم يقدسوا حيوانا لذاته ، ولم يقروا تماما لاربابهم بالتجسد المادى فى هيئة حيوان أو طير ، وانمــا

كان اهتمام المتدينين منهم بما تخيره من الحيــوان والطير يستهدف رغبتين ، وهما : رغبــة الرمز الى صفات اله خفى ببعض المخلوقات الظاهرة التى تحمل صفة من صفاته أو آية من آياته ، ثم رغبة التقرب اليه عن طريق الرعــاية التى يقدمونها ضمنا لمــا رمزوا به اليه من مخلوقاته ، هذا وقد ترتب على التفرقة بين كل اله ورموزه الحية من الحيوانات والطيور ، أن اختلف وضع هذه الرموز عندهم ، عنه عند شعوب أخرى ، فلم يكن اختيار المصريين لرمز أو فرد من الحيــوان يؤدى الى تقديس كل أفراد نوعه ، ولم يكن من بأس على قرية ترمز الى ربها بهيئة الفحل مثلا ، أن تستخدم الفحول فى الحقــل والنقل والذبح ، وانما هو مجرد حيوان واحد منها يتخيره الكهان اذا توافرت فيه علامات حددها لهم الدين ونواميسه ، ثم يتركونه فى مزاره آية مشهودة حتى ينفق ، وذلك على العــكس من شعوب أخرى قدست أنواعا من الحيوانات بكافة أفرادها •

ومن ثم فاننا نلاحظ أنه ما من معبد من المعابد الكبيرة الباقية حتى الآن ، مما خلفته العصور الممتدة من الدولة القديمة وحتى نهاية الدولة الحديثة على أقل تقدير ، أى خلال ما يقرب من ألفى عام ، قد تضمن مكانا معدا لحيوان ، مما يعنى أن رمز الحيوان المقدس اذا وجد لم يكن مقرا لعبادة فعلية على الاطلاق ، وان كنا نفترض من جهة أخرى ، بناء على نصوص وصور نادرة ، وعادات أخرى تتعلق بالعجل أبيس وغيره من عصور متأخــرة ، أنه اذا قضت الظروف بالعناية بحيوان معبود ما ، وضع الكهنة هذا الحيوان المختار فى مزاره منفصلا عن مكان العبادة ، بحيث ان شاء المتعبد زاره ، وان شاء تجاوزه •

وعلى أى حال ، فان القوم فى معظم الاحوال ، انما قد اتخــذوا آلهتهم ، فى بادىء الامر ، من طبيعة البيئة التى كانوا يعيشون فيها ، مراعين فى ذلك مدى افادتهم من هذه الالهة ، سواء أكان ذلك بكشف الضر عنهم أو جلب الخير لهم ، بخاصة وأن التجارب قد علمتهم أن بعض الالهة قد يتأتى عنها كثير من الخير ، وبعضها الاخر قد يتأتى

عنها كثير من الشر ، ويظهر أثر البعض منها فى جهـات بعينها ، وفى ظروف بعينها ، أكثر مما يظهر أثر بعضها الاخر ، الامر الذى لم يكن يخلو من اعجاز فى نطاق تصوراتهم التى كانت فى عصـورها الاولى لاتزال قليلة التجارب ، محدودة الافاق ، وبوحى هذه التصورات رمزوا بحيوية الكبش الطلوق الى الاخصاب الطبيعي والنوعى ، ورمزوا بقوة الفحل الى شىء من ذلك ، والى قوة البأس فى مجملها ، ورمزوا بنفع البقرة ووداعتها بحنو السماء وأمومتها ، ورمزوا بقوة السباع واللبوات الى أرباب الحرب ورباتها ، ورمزوا بفراسة القرد واتزان طائر أبى منجل الى اله الحكمة ، ورمزوا بالحيات والضفادع الى أرباب الازل، ورمزوا بخصائص الصقر الى رب الضياء وحامى الملكية ، وهلم جرا .

وهكذا كان معبود كل مدينة يظهر أحيانا على صورة رمز مقدس (فيتش Fetish) مادى ، ولكن فى أغلب الاحيان فى صور حيوانية ، وهكذا كانت القطة باست فى بوباستة ، والالهة الصل ادجو فى بوتو ، والابيس تحوت فى الاشمونين ، والاله وب واوات الاله ابن آوى فى أسيوط ، وعندما تجمـع الالهة معا زودت هـذه المعبودات الحيوانية بأجساد وأعضاء الادميين العاديين ونسبت اليهم بعض الصفات وألوان النشاط الادمية ، وهكذا صور الاله آمون فى هيئة آداميةبرأس كبش، وصورت الالهة حتحور ، برأس آدمية ، ولها قرون بقرة .

ومع ذلك كله ، فلقد ندر أن قدس القوم معبودا ذا رمز حيوانى باسم الحيوان المادى الذى يرتبط به ، فهم لم يقدسوا هيئة الصقر مثلا باسمه الحيوانى «بيك» ، ولكن باسم ربانى هو «حور» ، ولم يقدسوا هيئة البقرة باسمها الحيوانى «آحت» (احة) وانما باسم «حتحور»، ولم يقدسوا هيئة اتمساح باسمه الحيوانى «مسح» ولكن باسم ربانى هو «سوبك» ، ولم يقدسوا هيئة الكبش باسمه الحيوانى «با» ولكن باحدا اسمين ربانيين ، هما «خنوم» و «آمون» ، هذا فضلا عن أن القوم لم يقدسوا السماء باسمهـا الطبيعى «بت» ولكن باسم ربتها «نوت» ، أضف الى ذلك أن بعض أسماء معبوداتهم الانفة الذكر ، انما

كانت صفات فى جوهرها أكثر منها أسماء ، فاسم «حور» يعنى العالى أو البعيد ، واسم «سخمت» يعنى القادرة أو المقتدرة ، واسم «أتوم» يعنى الكامل المنتهى ، واسم «آمون» يعنى الحفيظ والخفى ، وما الى ذلك من أسماء يعز علينا تفسير معانيها بالتحديد •

هذا وقد كانت الهيئة البشرية هى أكرم ما تصور المصريون به أربابهم ، ومن ثم فقد جرت العادة على تمثيلهم على هيئة الانسان فى أغلب الاحوال ، مع تميزهم عنهم بأزليتهم وأبديتهم ومطلق قدرتهم ، ولو أن ضرورة تمييز كل معبود منهم عن الاخر دفعت أتباعهم الى تمثيل كل واحد منهم بجسم انسان ورأس الحيوان أو الطير الذى رمزوا به اليه ، وذلك ما نفذه الفنانون المصريون فى صورهم وتماثيلهم فى توافق عجيب لم يستطعه فنان آخر قديم ، وتمثيلهم بهيئة الانسان كاملة مع تمييز كل واحد منهم بشارة تدل عليه ، وكان من هؤلاء الارباب الاخارى الذين احتفظوا بالهيئة البشرية الخالصة : أتوم وبتاح وعنجتى ومين وجب ونوت وأوزير وايسه ونبت حت وسشسات وخونسو هذا وربما كان تمثيل الالهة فى هيئة آدمية سببا فى أن يظن القوم أن لها من المشاعر ما يحاكى مشاعر البشر من حب وبغض،وأنها تأخذ وتعطى،وتعاقب وتثيب ، مما لايستطيعه الحيوان أو الجماد ، أو أنهم أرادوا أن يضيفوا عليها صفاتهم الانسانية وعواطفهم ، ومن ثم فقد جمعوا بين الانسان والحيوان الذى يعبدونه عند تصورهم الاله بصورة تتفق مع واقعيته •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن كثيرا من الالهة انما كانت تكون أسرا الهية ، منها ما كان يؤلف فى عهد الاسرات ثالوثا من الاب والام والابن ، كما فى ثالوث أوزير وايزه وحور ، على أن هذه الاشكال الثلاثة لم تكن دائما فى نظر القوم شخصيات مستقلة لها ذاتيتها وفرديتها ، وانما هى أشكال أو صور لاله واحد جمع فى شخصه درجات القرابة فى العائلة الانسانية ، فهو الاب ، على أساس أنه العضو الاول فى الثالوث ، والام ليست سوى صورته المؤنثة ، وهو الابن ، على

أساس أنه العضو الثالث الذى يشبهه هو نفسه ، فهو أب لنفسه وابن لنفسه وزوج لأمه •

على أن هنـــاك من يذهب الى أن الثالوث ماهـــو الا تشكيلة من معبودات ثبتت صفات كل منها منذ زمن بعيـــد ، مستقلة عن صفات الاخرين ، فاذا ماتركنا الثالوث جانبا ، وجدنا أنفسنا أمام آلهة لا صلة بينها ، فضلا عن الرابطة والتبعية ، هذا الى جـــانب أن الثالوث قد يتكون كذلك من زوج وزوجتين ، كما فى ثالوث اليفانتين ، المكون من خنوم وزوجتيه ساتت وعنقت ، بل ربما يتكون كذلك من أم وابنين ، كما فى ثالوث دندرة والمكون من حتحور وولديها سماتاوى وايحى •

ولعل من أشهر هذه الاسر الالهية : ثالوث اليفانتين ، ويتكون من خنـــوم وساتت وعنقت ، وثالوث كـــوم أمبو ، ويتكـــون من سوبك وحتحور وخونسو (الذى ظهر كخونسوحور) ، وثالوث ادفو ، ويتكون من حور وحتحور وحارسوماتيس ، وثالوث اسنا ، ويتكون من خنوم ومنحيت وحكا ، وثالوث أرمنت ، ويتكون من مونتو ورع أيب تاوى وحور بارع ، وثالوث طود ، ويتكون من مونتو وثنيت وحربو قراط ، وثالوث طيبة ويتكون من آمون وموت وخونسو ، وثالوث قفط ، ويتكون من مين ورشب وقدش (الالهان الاخيران أجنبيان) ، وكذا أوزير وايزه وحـــور ، وثالوث دندرة ، ويتكون من حتحـــور وسماتاوى وايحى ، وثالوث أبيدوس ويتكـــون من أوزير وايزه وحـــور ، وثالوث منف ، ويتكون من بتاح وسخمت ونفرتم ، وثالوث عين شمس ويتكون من أتوم وتفنوت ، وفى أطفيح حتحور ونبت وسوبك[1] •

---

(١) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم ـ مصر والعـــراق ، القاهرة ١٩٦٧ ص ٢٩٧ ـ ٣٠٠ ، أدولف ارمان : المرجع السابق ص ٤٠ـ ٥٧ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٢٨ وما بعدها ، تشرنى : المرجع السابق ص ١٣ ـ ٤٤ •

G. Maspero, Sur Lenneade, Bulletin de la religion Egyptienne, 1891, P. 42-43.

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y., 1939P. 45, A History of Egypt, P. 53-54.

A. H .Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 214.

المعبـــــودات المصرية

١ ـ حـــور

يجمع المؤرخون أو يكادون على أن اله السماء «حـــور» انما قد أصبح الاله الأعظم فى مصر منذ بداية العصر التاريخى ، وأن له معبدا فى «نخن» (البصيلية مركز ادفو) عاصمة مصر العليا فيما قبل التوحيد، وذلك منذ أخريات عصر بداية الاسرات ، ثم أصبح الاله الحامى لحكام الصعيد المنتصرين على الدلتا وخلفائهم المباشرين ، ذلك لان القوم انما كانوا يرون أنه بتأييد منحور ومؤازرته استطاع ملك نخن أو ملك الصعيد «نعرمر» أن يحقق الوحدة لمصر بعد انتصاره على الدلتا ، وأن يؤسس الاسرة المصرية الاولى ، وأن يخلد هـذا العمل التاريخى على لوحته المشهورة (لوحة نعرمر) التى عثر عليها فى نخن ، حيث يسجل على أحد وجهى اللوحة انتصاره على الدلتـا ، وهو يرتدى تاج الصعيد الابيض ، فضلا عن مشاركة حور فى احراز هذا النصر ، وذلك بتمثيله فى صورة صقر مهيب يقف بأحدى قدميه فوق نبات البردى ، شعار الدلتا ، بينما تمتد قدمه الاخرى فى شكل ذراع بشرية لتمسك بحبل خزمت به أنف رأس بشرية تتصل بشكل مستطيل ، ربما تشير الى بيئة الدلتا ذات المستنقعات ، اذ ينبثق منه نبات البردى الذى أشير من قبل أن حور انما كان واقفا فوقه .

وأما الوجه الآخـر للوحة ، وفيه يرتدى «نعرمر» تـاج الدلتا الاحمر ، فتعبر نقوشه عن نتائج نصر الملك الصعيدى المبين على الدلتا ، وقد مثلت فيه أربعة ألوية للمعبودات التى شاركت فى أحراز النصر ، وهى لواءان للصقر حور فى المقدمة ، مما يشير الى سيادته على الصعيد والدلتا ، يليها لواء المعبود «وب واوات» (فاتح الطريق) ، ثم لواء رابع يصعب التعـرف على مدلوله ، ويمثل فى شـكل أنفتاح شـبه

بيضاوى ، بل ان هناك ما يشير الى أن الاله حــور انما سبق تمثيله فى نقش للملك العقرب ، وهو يقف فى مواجهة الملك ويمسك فى احدى قدميه بطرف حبل خزمت بطرفه الاخــر أنف أحد زعماء البدو ، فى صورة تشبه تمثيل حور فى لوحة نعرمر •

وهكــذا حقق حور لأتباعه من زعماء الصعيد وحــدة الارضين (تاشمعو ، وتامحو) فأصبح بذلك اله الدولة ، فضلا عن الملكية الجديدة ومن ثم فقد اتخــذ ملوك الاسرة الاولى شعارا ملكيا يعــلوه صقر (السرخ) الذى كان يكتب فيه الاسم الحــورى للملك فى عصر هذه الاسرة ، والذى كان يتصدر غيره من الاسماء الملكية الاخــرى ، كما تشهد آثار تلك الفترة ، والتى تشير الكثير منها الى أن الملكية انما هى منحة من الاله حــور ، أول معبود رســمى للدولة والملكية فى التاريخ المصرى القديم ، ومن ثم فقد تصدر حور مكان الصدار بين غيره من الآلهة فى عصر الاسرة الاولى ، ثم سرعان ما بدأت عبادة حور تنتشر فى الصعيد فى الاقليم الثانى والثالث والثانى عشر والسابع عشر والثامن عشر والحادى والعشرين ، وعبد فى الدلتا فى الاقليم الثانى والخامس والحــادى عشر والســادس عشر والسابــع عشر والتاســع عشر والعشرين (1) •

هذا وقد قام جدل طويل حول الموطن الاصلى للاله حور ، فيذهب البعض ، اعتمادا على المصادر المتأخرة ، الى أن الموطن الاصلى لحور انما كان فى الدلتا ، وليس فى الصعيد ، وأن عبــادته قد أنتشرت فى الصعيد بعد انتصار الدلتا على الجنوب ، وقيام الاتحاد الاول فى الربع الاخير من الألف الخامسة قبل الميلاد ، وأن هذا الاتحاد لم يعد فرضا من الفروض ، كما كان الأمر من قبل ، وانما أصبح حقيقة مقررة بعد دراسة حجر بالرمو ، وغيره من آثار ذلك العصر ، وأن لم يكن لدينا

---

1) J. E. Quibell, Hierakonpolis, I, London, 1900, Pls. XXVI, XXIX; A. Gradiner, JEA, 30, 1944, P. 24-25-39; W. B. Emery, Archaic Egypt, 1963, P. 120.

معلومات مؤكدة عن عاصمة المملكة المتحدة وقت ذاك ، فقد أصبح فيها للاله حور مركز أهم من مركز الاله «ســت» ، وأصبحت مدينة نخن (البصيلية) مركزا رئيسيا لعبادته فى أواخــر عصر ما قبل الاسرات حيث وجد أقدم رمز للاله أوزير فى الصعيد على مدخل معبد حور فى نخن فى أخريات عصر بداية الاسرات [٢] .

على أن هناك من يعترض على وجهة النظر هذه ، ذلك لان هناك ما يشير الى وجود تماثيل له فى نقادة منذ عصر ما قبل الاسرات ، وأن عبادته كانت منتشرة فى الصعيد ، فى كوم أمبو وادفو والبصيلية والمعلا وأصفون المطاعنة ، فاذا كانت عبادة حــور قد أنتقلت من الدلتا الى الصعيد ، فانه يصعب عدم فهم عدم أنتشارها فى أقاليم الدلتا ذاتها ، فضلا عن مصر الوسطى ، من الجيزة الى سوهاج وان عبد فى حبنو ، جنوب زاوية الميتين ، (جنوب شرق المنيا عبر النهــر) ، هذا ويذهب «جاردنر» الى أن أصل حور من مستنقعات الدلتا الشمالية ، مع أن الصقر طائر صحراوى ، وقــد وصف فى متــون الاهرام تارة بكلمة «أختى» وتارة بكلمة «أبتى» والأولى معناها «أفق الشمس» ، والثانية معناها «الشرق» ، وكلا الكلمتين تشير الى المشرق •

ويذهب أستاذنا الدكتور أحمد فخرى ــ طيب الله ثراه ــ الى أن هناك أشارات كثيرة الى أن الوطن الاصلى لحور ، انما كان فى «بونت»، والى أن اسم «حر» (حور) غريب على اللغة المصرية القديمة ، ولكنه موجود فى اللغات السامية ، وبعبارة أدق فى اللغة العربية ، حيث تطلق العرب اسم «حر» على الطائر المعروف باسم Faucon Pelerin . وقد نقل الدميرى عن «ابن سيدة» أن «الحر طائر صغير أنمر أصقع قصــير الذنب عظيم المنكبين والرأس ، وقيل انه يضرب الى الخضرة وهو يصيد» ، وأما الصقر فهو كلمة عامة لكل طير يصيد مــن البزاة والشواهين ، ومازالت كلمة «حر» تستعمل حتى الان فى كثير من بلاد

2) J. E. Quibell, Op. Cit., Pl. II; W. B. Emery, Op. Cit., P. 42.

العرب وشمال افريقية لهذا الطير [٣] .

ويرى بعض الباحثين أن الاله حور ، انما جاء مع أتباع حور الذين عبروا شبه جزيرة العرب الى الشاطىء الافريقى فى أرتيريا ، ثم صاروا مخترقين البلاد حتى وصلوا الى صحراء مصر الشرقية ودخلوها عن طريق وادى الحمامات ، وأن الاله الصقر حور ، قد أختلط مع الصقور التى كانت تعبد فى مصر ، وأن ذلك الشعب لابس الريشة الذى وفد الى مصر من الشرق قادما من بلاد العرب فى منتصف عصر حضارة نقادة الاولى ، ثم سرعان ما أستقر هذا الشعب فى المناطق الجبلية التى تحد وادى الحمامات ، وفى الوادى نفسه ، حيث تركوا رسومهم ، ويذهب «مرسر» الى أن كلمة «حر» المصرية لم تكن فى ذلك العصر المبكر تعنى «صقر» الا اذا كانت صيغة مصرية من كلمة «حر» العربية التى تعنى «صقر» وفى هذه الحالة فان الكلمة تدل على أصل عربى للاله حور ، وعلى أى حال ، ففى كل هذه الحالات ، فان أصل حور ليس من الدلتا ، وانما من بلاد العرب أولا ثم من الصعيد ثانيا ، وان ذهب «بترى» الى أنه جاء من عيلام عن طريق الخليج العربى ، ثم أستقر فى القرن الافريقى ، ثم اتجه الى الشمال ، ودخل مصر عن طريق القصير وقفط [٤] .

وأيا ما كان الامر ، فان مصر قبل قيام الاسرة الاولى كانت خاضعة لحكومتين ، الواحدة فى الصعيد ، والاخرى فى الدلتا ، وقد أطلق القوم على ملوك هاتين المملكتين «أتباع حور» أو «أنصاف الآلهة» ، كما كان

---

(٣) احمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ص ١٣٥ ــ ١٣٦ ، محمد بيومى مهران : مصر ــ الكتاب الاول ــ التاريخ ص ٣١٥ ــ ٣١٧ ، كمال الدين الدميرى : حياة الحيوان ١/٤٣٢ ، ٢/٩١ ، وكذا

V. Loret, B.I.F.A.O., III, 1903, P. 15-16.

A. Gardiner, Onom., II, P. 5-7, 12-1, 27-29.

4) V. Loret, Op. Cit., P. 7-1; S. Mercer, Hours, Royal God of Egypt, 1942, P. 87_90,

W. F. Petrie, The Making of Egypt, London, 1939, P. 77 F, 226.

يعبد فى احدى المملكتين احدى الآلهات التى كانت تحمى المملكة «نخبت وواجيت» ، فضلا عن الاله حور ، وان ذهب «كيس» الى أنه ليس لدينا ما يؤكد أن مصر كانت قبل «مينا» مقسمة الى مملكتين حورتين ، سادهما اله واحد هو «حور» صحيح أن عبادة الصقر كانت منتشرة جدا فى الصعيد والدلتا ، ولكن كان لكل «صقر» شخصيته الخاصة به ، فمثلا لقد أصبحت هيئة الصقر (رمز حور) علما على أرباب مدن كثيرة فى الصعيد ، مثل البصيلية وادفو ، وأرمنت وقوص وقفط والهمامية وبنى حسن والمطاولة ، ولو أنه ما من بأس أن نفترض أن بعض هذه المدن انما كانت ترمز الى أربابها بهيئة الصقر فعلا منذ زمن قديم ، دون أن تربط بين هذه الهيئة ، وبين رمز الاله حور (٥) .

وأيا ما كان الامر ، فقبيل بدايه التاريخ ، قام الصعيد بتكوين اتحاد من أقاليمه كانت عاصمته نخن ، حث كان يعبد الاله حور ، وقد تجمع حكام الاقاليم الاخرى ، وكذا الالهة المحلية الاخرى ، حول ملك نخن (البصيلية) ، وحول اله مدينته حور ، وكونوا اتحادا ، وهؤلاء الذين يمكننا أن نطلق عليهم «أتباع حور» (٦) ، وعلى أيديهم تحققت وحدة مصر آخر الامر ، وأصبح الاله حور الاله الاعظم فى مصر ، والحامى لحكام الصعيد المنتصرين ، ومن ثم فقـد أصبح اللقب الحورى أول الالقاب الملكية الخمسية التى حملها الملوك طوال العصور الفرعونية ، وكان يكتب داخل اطار مستطيل (سرخ) يمثل واجهة البيت الملكى بماله من دخلات وخرجات ، يعلوه صقر حور ، اله الاسرات لكل مصر ، والابن المنتقم لاوزير ، رمز الملك الميت ، وكان هذا اللقب الحورى بمثابة توكيد

5) H. Kees, Horus und Seth, II, P. 9, 29 F; ZAS, LXIV, P. 18, W.M.F. Petrie, the making of Egypt, London, 1939, P. 77.

(٦) انظر عن «اتباع حور» (محمد بيومى مهران) : المرجع السابق ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧ (طبعة ١٩٨٨)

A. Weill, Recherches sur la Ire Dynstie et les Temps Pharaonique, II, Cairo, 1961, P. 279.

A. Gardiner, Op. Cit., P. 422.

H. Frankfort, Kingship and Gods, Chicago, 1948, P. 90 F.

لاسماء حامله الى عالم الالهة ، الى الاله حور ، ويجعل منه وريثا لحور يحكم باسمه ويتجسد شخصيته ، ذلك لان حور انما قد ورث حكم مصر عن أبيه أوزير ، ثم ورثه للملك الفرعون •

هذا ويشير الصقر — فيما يرى بعض الباحثين — الى انه الاسم الابدى للملك ، وليس اسما اقليميا ، بينما يذهب آخرون الى أن اللقب الحورى وثيق الاتصال بعبادة أوزير ، ومن ثم فهو يعنـــى أن الجالس على عرش مصر انما هو ابن أوزير وخليفته ، على أن فريقا ثالثا انما يذهب الى أن الصقر انما هو اله مدينة نخن ، ومن ثم فهو يشير الى أن الملك انما جاء من هذا الاقليم ، أى من مدينة الصقر عاصمة الصعيد، وصاحبة الفضل فى توحيد البلاد ، وقيام أول ملكية فى التاريخ (٧) •

هذا وقد أطلق القوم على حور القابا كثيرة ، لعل من أهمها «حور سيد السماء» أو «نجم فى السماء» وقد ظهر ذلك اللقب على مشط من عصر الاسرة الاولى ، وقـــد مثل فيه حـــور ناشرا جناحيه التى تمثل السماء ، كما عبد محليا بأســماء مختلفة ، منها «حـــور المتقدم على العينين» (حرخنتى ارتى) و «حـــور المنتقم لابيـــه» (حرنج أتف) و «حور موحد الارضين» (حرسما تاوى) و «حور الافقى» (حر أختى) و «حور فى الافق» (حرام أخت) ، وقد عرف منذ الاسرة الاولى باسم «حور الافق» ، وذلك لتمثيله فى قارب فوق أجنحة مثل الشمس التى تبحر عبر السماء •

وعبر الفن بأكثر من طريقـــة عن ارتباط حور بالسماء والشمس ، فكان قرص الشمس المجنح ، كما يظهر على مشط من الاسرة الاولى ، وعندما يصور الاله «حر أختى» فانه يظهر كصقر أو رجل برأس صقر متوج بقرص الشمس ، وهناك كذلك حور الذى نال شهرة بين القوم ، بصفته الابن الذى فقد أباه أوزير ، وهو «حور ابن ايزه» حر — سا —

---

7) P. E. Newberry, PSBA, 26, 1904, P. 295-297; W. B. Emery, Op. Cit., P. 106, F. Petrie, The Royal Tombs I, P. 35-36.

است) ، وان كان «فرانكفورت» يذهب الى أن الصقر حور اله السماء ، انما هو نفسه حور ابن أوزير وايزه ، وانه لمن الخطأ أن نفصل بين «حور الاله الكبير سيد السماء» و «حور بن ايزه» ، أو أن نفسر حقيقة هذا التوحيد على أنه يرجع الى التوفيق بين المذاهب فى العصور المتأخرة [٨] .

وعلى أى حال ، فان حور الكبير ، المحارب فى مدينة ليتوبوليس وغيرها ، يصبح فى رأى البعض ابنا للاله أتوم ، أوجب ، وهو حين يكون أبنا للاله جب يصبح اخا لاوزير ، وليس هناك ما يشير الى أن حور كان ابنا للاله رع فى عصور ما قبل التاريخ ، وانما كانا صديقين يتعاونان معا كالهين فى السماء والضوء ، وهما على قدم المساواة فى متون الاهرام ، ومع ذلك فقد أصبح حور ادفو ابنا لرع فى النصوص المتأخرة ، هذا وليست هناك علاقة بين حور المسمى «كنتشتاوى» معبود أتريب وبين حور «سبدو» ، وكلاهما عبد فى شرق الدلتا فى المنطقة التى كان يخترقها الطريق الموصل الى فلسطين ، وان كان هناك من يرى أن «سوبدو» من المقاطعة العربية ، كما سماها اليونان (الاقليم العشرون من الدلتا) ، و «خمن» من أسفينيس ، و «عانتى» من أنتيوبوليس (قاو الكبير) كانوا جميعا صورا من «حور» لانهم شاركوه فى نفس صورة الباشق [٩] .

هذا وهناك كذلك «حور الطفل» (حور باخرد) وقد كتبه اليونان «حربو كراتس» (حور بوقراط) وقد مثل على هيئة طفل عار يضع سبابته اليمنى فى فمه ، وتتدلى خصلة من الشعر على جانب رأسه ، ويمثل واقفا أو جالسا على ركبتى أمه ايزه ، وأخيرا فهناك «حور الادفوى» أى المنتسب الى ادفو ، وهو هنا ليس حور بن ايزة وأوزير ، كما فى الثالوث المشهور ، ولكنه كان الاله الاب والاله الابن فى صورتين مختلفتين ، وهكذا نجد «حور — حتحور ، حور موحد الارضين» .

---

8) H. Frankfort Kingship and the Gods. Chicago, 1948, P. 38-41.
9) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 216.

وأما معابد حور فكثيرة ، لعل أقدمها فى الصعيد معبد نخن (١٠) ، وأقدمها فى الدلتا فى دمنهور ، وان كان أشهرها معبد حور فى ادفو ، حيث صور هناك على شكل الشمس المجنحة ، وكما يبدو واضحا ، ليس هناك أى شبه بين صورة هذا الاله ، وصورة حـور الحقيقية ، فلقد صور حور ادفو على شكل قرص الشمس بجناحين كبيرين ذى ألوان مختلفة وصفا بأنهما الجناحان ذو الريش المختلف الالوان التى تتمكن بهما الشمس من أن تطوف السماء ، وهذه الصورة (صورة حور ادفو) نراها منقوشة فوق مداخل معابد مصر ، لانها كانت تعتبره حارسا يحول دون دخول الاشرار المعبد ، وما يزال معبده قائما فى ادفو ، وهو معبد لا يضارعه معبد آخر فى مصر فى الاحتفاظ بمظهره العام ، وطوله ١٣٧ مترا ، وارتفاع الصرح ٣٦ مترا ، والى جانب أهميته المعمارية فهو يعتبر من أكمل المعابد المصرية فى العصور المتأخرة ، من حيث بنيانه ، ومن حيث نصوصه التى تضمنت ثروة طيبة من شعائر العبادة وأساطير الدين والسياسة ، وقد استمر بناؤه قـرابة القرنين ، حيث بدىء فى بنائه فى عهد «بطليموس الثالث» الذى وضع أساسه فى ٢٣ أغسطس عام ٢٣٧ ق•م ، الا أن بناءه وزخرفته لم يتما الا فى عام ٥٧ ق•م ، فى عهد بطليموس الثانى عشر (١١) •

٢ ـ ست

يذهب العلماء الى أن الموطن الاصلى للاله «ست» (سوتخ) انما كان فى الصعيد ، ربما فى «شاس حوتب» ، وهى الشطب الحالية ، على

---

(١٠) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة ص ٢٧٩ ،
وكذا J. Quibell, Op. Cit., I, Pl. II.
وانظر عن المعبد والمدينة (محمد بيومى مهران : مصر ـ الجـزء الثانى ص ٥٩ ـ ٧٤) •

11) E. A. W. Budge, the Gods of the Egyptians, I, N. Y. 1969, P. 466-499; E. Bevan, A History if Egypt under the Ptolemaic Dynasty, London, 1927, P. 186, 214.
وكذا H. Kees, Horus und Seth, II, P. 9, 29 F.
وانظر : أحمد فخرى : الموسوعة المصرية ١/٨٧ ـ ٨٨ ، محمد بيومى مهران : مصر الجزء الاول ص ٣٢٢ •

مبعدة ٦ كيلا جنوبى أسيوط ، وربما فى أهم مركز لعبادته فى الصعيد ، فى مدينة «نوبت» أو «نبت» بمعنى الذهبية ، لقربها من مصادر الذهب فى الصحراء الشرقية ، ثم سماها الاغريق «أمبوس» ، وقامت على أطلالها ، وربما على مبعدة كيلو مترين الى الجنوب منها بلدة «طوخ» الحالية ، فى منتصف المسافة بين نقادة والبلاص ، مركز نقادة بمحافظة قنا ، وليس هنـاك شيء مؤكد عن الاوضـاع السياسية والدينية فى نوبت خـلال عهود حضـارتها الاولى ، وان أعطت الاساطير معبودها «ست» (سوتخ النوبتى) شهرة واسعة ، وأعتبرته ربا للصعيد .

وقد كان معبده يقع الى الشمال الغربى قليلا من نوبت على مرتفع من الهضبة ، وان لم يمكن ارجاع أى أثر مادى اليه بصورة مؤكدة ، ولعل السبب فى ذلك عدم الاتفاق على نوع الحيوان الذى كان يمثله ، فبينما يرى البعض أن فرس النهر كان علامة سـت فى عصور ما قبل التاريخ ، يرى آخرون أنه كان كلبا أو حمارا أو غزالا ، وعلى أى حال، ففى الازمنة المبكرة كان أتباع ست يمثلون قطاعا قويا من سكان الوادى، ويقطنون منطقة واسعة فى الصعيد ، مركزها نوبت ، وقد كانوا من القوة بحيث أصبح معبودهم ست ندا للاله حور ، بل انه حل مكانه كمعبود ملكى فى بعض فتـرات الاسرة الثانية ، هذا وقد عبد سـت كذلك فى البهنسا بمركز بنى مزار بمحافظة المنيا ، على هيئة سمكة مدببة الانف، كما كان الها له مكانته فى الصحراء الغربية وليبيا(١٢) .

هذا وقد قام ست بأدوار كثيرة فى الاساطير المصرية ، فكان واحدا من تاسوع أون ، كان ابنا لجب ونوت ، وزوجا لتفنيس ، كما مثل الشر فى أسطورة الصراع بين حـور وست (١٣) ، حيث ذكر على أنه قاتل

12) E. J. Baumgartel, the Cultures of Prehistoric Egypt, II, P. 33; W. Emery, Op. Cit., P. 121; F. Petrie and J. E. Quibell, Naqada and Ballas P. 1-2, 65.

(١٣) انظر : محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية ٣٣/١ ـ ٤٢ ،
وكذا J. Wilson, ANET, P. 14-18.
وكذا J. Capart, 8, 1933, P. 43-255.

=

أوزير ، ومغتصب عرش حور ، رأى الاغريق فيه الههم «تيفون» ، الذي كان مثل ست الها للرعد والعواصف ، وبمـا أن ست كان يمثل العواصف فهو اذن ذلك الذى يعلو صريخه فى السماء ، وصوته هو الرعد ، وهو الذى يهز الارض هزا ، وهو الذى يسلب القمـر ، أى عين حور ، وهو أحمر اللون ، وعيناه حمراوتان ، وما كان يصنعه من أعمال شريرة انما كانت أشياء حمـراء ، ومن المعـروف أن المصريين القدامى كانوا يكرهون اللون الاحمر •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أنه لم تكن هناك فى أول الامر ، منافسة كبيرة بين عبادة ست وعبادة أوزير وايزة ، وكما رأينا من قبل ، فلقد كان القوم يعتقدون أنهم جميعا ينتسبون الى أسرة واحدة ، فقد كان ست هو الابن الثالث للاله جب ونوت ، وأنه ولد فى اليوم الثالث من أيام النسىء ، وتزوج من أخته نفتيس ، وفيمـا بعد قاوم أتباع ست أتباع حور الجنوبيين الذين وحـدوا البلاد تحت قيادة مينـا ، وانعكس ذلك فى الديانة كصراع بين القوتين ، ومن ثم فقد لطخ أتباع أوزير شخصية ست بالسواد منذ لحظة مولده ، وادعوا أنه لم يولد فى الوقت السليم ، ولا فى المكان الصحيح ، فلقد القى بنفسه من رحم أمه ، وانفجر من جنبها •

وهنـاك روايات أخرى عن النزاع بين ست وأوزير ، غـير رواية بلوتارك،فتذهب واحدة منها الى أن جب قد قسم مملكته بين ولديه ست وأوزير ، على أن يأخذ الاول الصعيد ، ويأخذ الثانى الدلتا ، غير أن ست ادعى بعد ذلك أن المملكة كلها له ، وأنكر مشاركة أخيه له فيها ، وتذهب رواية أخرى الى أن أوزير وست قد رضيا بحكم أبيهما ، وبدأ كل منهما يحكم نصيبه غير أن «جب» عاد فقرر أن ست حاكم سيىء ومن ثم فقد أعطى نصيبه لاوزير ، وبينما كان أوزير يغزو البلاد الاجنبية ،

=

وكذا M. Lichtheim, Op. Cit., P. 214-223
وكذا A. Gardiner, LES, P. 37-60.

تاركا امرأته ايزة تصرف الامور فى مصر ، بدأت عوامل الشر تتحرك فى قلب ست ، بخاصة وأنه كاله للحرب ، كان يرى أوزير يستخدم الكثير من الوسائل السليمة ، ومن ثم فقد بدأ يفكر فى الانتقام من أوزير ، وانتهز مناسبة الاحتفال بعودة أخيه المنتصر الى منف ، وطبقا لرواية بلوتارك فقد وضعه فى صندوق كان فى الاصل تابوتا له .

وتذهب أساطير أخرى الى أن الاغتيال كان عند «ندية» على مقربة من ابيدوس ، ثم ألقاه فى النيل ، وأن جسد أوزير القتيل انما تم تقطيعه الى أربعة عشر جزءا (وربما ستة عشر) ، وان امرأته ايزه وأخته نفتيس قد عثرتا على جسد أوزير عند شواطىء ندية،بينما تذهب رواية أخرى الى أن الاغتيال كان فى منف ، وان ايزه ونفتيس قد دفنتاه هناك ، بينما تذهب رواية ثالثة الى أن الجسد قد حمله تيار النهر الى بيبليس فى مستنقعات الدلتا ، حيث تمكنته ايزه ونفتيس من العثور عليه هناك (وقد حرفت Byblles فما بعد الى بيبلوس Bybilos التى فى فينيقيا) ، وان اتفقت الروايات جميعا على ان ايزة قد اتخذت لها مأوى فى الدلتا لتحمل وتضع ابنها حور ، وقد حاول ست مضايقتها كثيرا ، وهذه مرة أخرى ، ليست أمرا مثيرا ، فلقد جالت ايزة تحت جناح بوتو ، والتى لم تكن الهة محلية فحسب ، وانما كانت كذلك الهة مملكة مصر السفلى .

هذا ورغم أن القوم ظلوا ينظرون الى ست كاله ، يشار اليه بلقب «جلالة ست» ، وهو لقب لم يمنح لغير الاله رع ، ففى خلال المعركة الشرسة التى نشبت بين ست وحور (الكبير) ووريث رع ، تمكن حور من خصى ست ، كما تمكن ست ، كخنزير أسود ، من خرق عين حور الضعيفة (القمر) ، هذا وتشير الاسطورة الى أن ست انما كان يوحد أحيانا مع كسوف الشمس وخسوف القمر ، حيث كان يقوم بمهاجمتهما كل شهر ، لانهما كانا يضمان روح أوزير ، ولكن حور سرعان مااستعاد عينه ، وحكمت له محكمة الالهة بملك مصر جميعا ، وعندما أصبحت أوزير وحور متشابكة انتقل العداء الى حور بن ايزة ، وأصبح ست

هو قاتل أوزير[١٤] ، ورغم أن محكمة الالهة قد قضت بحق حور ، الا ان رئيسها رع سرعان ما بدأ يؤيد مزاعم ست ، ذلك لان حور ، ان كان يعتبر ابنا لرع ، فقد كان ست ابنه كذلك ، كما كان رع يعتمد على ست ، كاله للحرب ، وكواحد من الالهة الهامة التى تقف على القارب الشمسى لتحمى رع من أعـدائه ، وبخاصة أولئك الحـاقدين عليه ، وأخطرهم الحية أبيب أو أبو فيس ، وفى أثناء محاكمة ست وحـور ، تفاخر ست بشجاعته اليومية ودوره فى حماة رع ، وزعم أنه سوف يكافأ بالملكة .

ويشير كتاب الموتى الى أن ست لم يقنع بشرف الدفاع عن رئيس الالهة ، فذكر الكثير عن شجاعته ، وأنه ذبح أبيب Abeb ثم عاد الى رع ليعلن خبر انتصاره ، بل وهدد رع بأنه لن يستطيع أن يظهر أبيب من المخبأ الذى ماتت فيه ، وأن يحضر معه كل رموز قوة رع المقدسة ، وأخيرا حذره بأنه ان لم يحسن معـاملته فسوف يسلط عليه رعـوده وعواصفه ، وعندئذ أمر رع طاقم بحارته بأن يطردوا ست منها،وعندما فعلوا ذلك ، استدعت نوت ست ، وأمر رع فجره المقدس بالظهور ، هذا وقد تضمنت هذه الاسطورة مظهر ست الالهى كقاتل للحية أبيب ، وكان هذا شيئا أساسيا لحماية رع فى رحلته اليومية ، ويقابل ذلك فى الاهمية أنه قد طرد من القارب قبل أن ينتقل الى الجزء المقدس ، ولعل هذا هو السبب فى ندرة تصوير ست فى القارب الشمسى ، حيث حل مكانه تحوت ، وبنفس الطريقة فى احدى روايات الاسطورة أن ست قد حكم عليه بأن يحمل أوزير على أكتافه أو أن يمده بالنسيم العليل ليحمل قاربه ، وفى رواية أخرى ، فلقد نفى ست الى السماء كتعويض

---

(١٤) انظر : عن أسطورة أوزيروست (محمـــد بيومى مهران : الحضارة المصرية ـ الجزء الاول ص ٢٠ ــ ٢٨ .

وكذا J. Vandier, la religion Egyptienne, Paris, 1949, P. 45-47.

وكذا H. Frankfort, Op. Cit., P. 38-41.

وكذا V. Lons, Op. Cit., P. 127-138.

J. Griffith, The Conflict of Horus and Seth, Liverpool, 1960.

له عن فقده للعرش ، حيث دخل جسم الدب الاكبر ، يسمح له بعمل الضوضاء المثيرة التى يرغب فى القيام بها كاله للرياح والعواصف،وان كان قد فقد أكثر الاشياء شيوعا ، حتى صلته بأراضى المملكة الجنوبية، وأصبح سلطانه مرتبطا بحدود الصحراء ، وكاله للاجانب[١٥] ٠

وليس هناك من ريب فى أن الادلة الاثرية انما تثبت وجود عبادة ست منذ عصر التأسيس ، فمن بين الاعلام الموجودة على رأس مقمعة الملك العقرب يوجد علمان يحملان حيوان الاله ست ، كما ظهر الاله ست فى عصر التأسيس فى بعض ألقاب الملكات مثل لقب «تلك التى ترى حور وست» الذى عثر عليه فى مقبرة الملك «جر» ، ولقب «ساق حور وذراع ست» ، كما انتسب آخر ملكين من هذا العصر ، وهما خع سخم وخع سخموى ، الى الاله ست ، وهناك كثير من الاحتمال لما يفترضه «جردسلوف» من أن الملك «سخم ايب ان ماعت» هو فى الواقع «بر ايب سن»[١٦] ، قبل أن يتخلى عن ارتباطه بالاله حور ، ليصبح المتعبد للاله ست ، باعتباره من أرباب الحروب ، وان احتفظ لنفسه بلقب «نيسو — بتى» ولقب «نبتى» أى أنه مايزال محتفظا بانتسابه الى الصعيد والدلتا ، والى معبوديهما فى نفس الوقت ٠

وهكذا يبدو أن هناك ألوانا من الاضطرابات الشديدة نشأت فى الأسرة الثانية ، وان كان من المستحيل أن نشخص طبيعتها ، لقد كان حور يرتبط فى الماضى بالدلتا ، بينما كانت عبادة ست محلية فى أمبوس، ويذهب البعض الى أن كهنة ست شعروا أن نفوذهم القديم بدأ يتضاءل ، بخاصة وقد بدأ الملوك ينتسبون الى حور ، ويهتمون بالعاصمة الشمالية منف ، وربما بدأوا يتأثرون بثقافة أهل الشمال ويظهرون الاهتمام بمعبوداتهم ، وهنا بدأ كهنة ست يخشون على نفوذهم القديم،

---

15) E. A. W. Budge, Op. Cit., II, P. 241-260; Veronical Lons, Egyption Mythology, 1968, P. 63-66.
وكذا T. G. Allen, The Book of Dead, Chicago,. 1974.

(١٦) أنظر عن «ثورة بر — ايب سن» (محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثانى ص ٤٧ — ٥٧) ٠

ومن ثم فقد أشعلوا نيران الثورة ضد الاتجاهات الجديدة ، مما جعل «بر أيب سن» يحذف رمز حور ، ويضع رمز ست فى مكانه ، أى أنه أعلن صراحة انتسابه الى الاله ست ، وليس الى حور ، ولم تعد الامور الى وضعها الطبيعى الا فى عهد آخر ملوك الاسرة الثانية « خع سخموى»(١٧) .

وتحدثنا بردية ساليه الاولى أن ملك الهكسوس أبو فيس قد اتخذ الاله «سوتخ» الها له ، ولم يحترم الها فى الارض غيره ، وبنى له معبدا جميلا بجوار قصره ، وكان يقدم له الاضاحى كل صباح ، وكان موظفو الملك يحملون أكاليل الزهور ، كما يحدث تماما فى معبد «حر أختى» ، وهذا يعنى أن الهكسوس عندما أرادوا اقامة ديانة رسمية على طراز الديانة المصرية ، اختاروا معبودا ذا مظهر غريب ليصبح الاله الرئيسى فى المنطقة التى كانت الاساس الاول لعملياتهم ، وكان ذلك الاله هو «ست» (سوتخ) اله أفاريس ، عدو الاله الطيب أوزير وقاتله، ومع ذلك ، فرغم أن ست كان فى الاصل اله مصر العليا ، فان عبادته فى شرق الدلتا انما ترجع الى أقدم العصور ، وبالذات الى عهد الدولة القديمة ، وربما قد بدأت هناك فى مكان يقال له «سزرت» منذ أيام الاسرة الرابعة(١٨) .

وأما ترجمة الهكسوس لمنطوق الكلمة «ست» التى تكتب بالبابلية وكأنما تنطق «سوتخ» فكانت دون شك آسيوية فى مظهرها ، أكثر منها وطنية الأصل ، وربما وجد الهكسوس فى ست اله أفاريس ، صورة

---

17) B. Grdseloff, ASAE, XLIV, 1945, P. 295; A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1964, P. 417; W. F. Petrie, the Royal Tombs, II, Pls. XXVII, 96, 129, XXII, 173-190.

18) D. B. Redford, the Hyksos Invasion, in History and Tradition, Orrentalla, 39, 1970, P. 35-36; ASAE. XLIV, P. 295 F; B. Gun and A. Gardiner, JEA, 5, 1918, P. 40 F. J. Wilson, Op. Cit., P. 161-162, JEA, 37, 1951, P. 64-65, ZAS, 75, P. 77 F.

وأنظر : محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة ص ١٥٢ ــ ١٥٥ ، أحمد بدوى : المرجع السابق ص ١٣٣ .

لواحد من معبوداتهم الاسيوية وأن مظهره ، كما حفظته جعارينهم ، انما يبدو بوضوح أنه آسيوى المظهر ، فهو يحمل فى ثنايا ملابسه ورداء رأسه تشابها مميزا للاله بعل السامى ، ومع هذا فتوحيد ه ببعل ، وكذا رشب أو تشوب الحيثى ، فتطور حدث فيما بعد ، ومع ذلك فهو كثير الشبه بالاله تشوب اله العاصفة والرعد والحرب عند الأناضوليين ، وخاصة الحيثيين والميتانيين ، والوثائق المكتوبة فى لغتين من عصر رعمسيس الثانى تؤكد هذا التشابه بين ست وتشوب ، وقد تحول ست عند هذه النقطة الى الاله العائلى لمغتصبى الدلتا الشرقية ، حتى أننا نجد لوحة فى تانيس مكرسة للاله ست المحارب المقدام ، وهناك أكثر من دليل على أن الهكسوس قد جاملوه أكثر من كل المعبودات المصرية ، أما صورة الانثى العارية التى تظهر على الجعارين من عصر الهكسوس ، فيظن أنها تمثل الالهة عنات أو «عتر عشتارت» ، ويشار اليها فى نصوص متأخرة ، وكأنها زوجة للاله «ست ــ بعل» [١٩] .

وفى الاسرة التاسعة عشرة يظهر ست كصاحب مكانة ممتازة بصفته الاله المحلى لهذه الاسرة ، ومن ثم نرى الفراعين يقدرون الاله ست ، حتى أن جيوش رعمسيس الثانى نظمت فى فيالق أربعة ، تحمل أسماء آلهة أربع : آمون ورع وبتاح وست ، فمن طيبة أتى فيلق آمون ، ومن منف ومصر الوسطى أتى فيلق بتاح ومن عين شمس والدلتا أتى فيلق رع ، ومن «بر رعمسيس» أتى فيلق ست ، وهكذا وضع ست فى مرتبة متساوية مع مرتبة هذه الالهة الثلاثة الكبرى ، بل أنه فى المدينة الكبيرة (بر ــ رعمسيس) كان هناك معبد للاله ست ، كما دخل اسمه فى تركيب اسمين من ملوك هذه الاسرة وهما : سيتى الاول وسيتى الثانى[٢٠] .

---

19) A. Gardiner, Op. Cit., P. 164-165, T. Save Soderbergh, J.E.A., 37, 1950, P. 64; W. C., Hayes, C.A.H., II, Part, I, 1970, P. 56.

20) H. Goedicke, JEA, 52, P. 72-79.
وكذا
J. Wilson, ANET, P. 470.

٣ ـ اوزيــر

كان أوزير أكثر الالهة شعبية فى مصر بسبب مظهره السلمى وخلقه الرضى ونعمه الوفيرة على البشرية ، ثم ميتته العنيفة وبعثه ، ومن ثم فلم يقدسه المصريون فحسب ، بل غزا أفئدة الكثيرين من شعوب حوض البحر المتوسط ، وخاصة فى بــلاد الاغريق والرومان وهمــا فى أوج حضارتهما ، هذا وهناك ما يشير الى أن أقدم رمز للاله أوزير انما وجد فى الصعيد على مدخل معبد حور فى نخن (البصيلية) من أخريات عصر بداية الاسرات ، كما أسفرت حفائر حلوان عن العثور على رمز للاله أوزير فى احدى المقابر التى ترجع الى عصر الاسرة الاولى ، وكان يمثل على هيئة شجرة جذعها مستقيم وقد ربطت فروعها طبقات بعضها فوق بعض ، مما يدل على أن عبادة أوزير انما كانت قائمة فى ذلك العصر .

على أن هناك من يرى أن وطن أوزير انما كان فى الدلتا ، فى اقليم «عنجه» ، والتى سميت فيما بعد «جــدو» ، واتخذ اهلها من اوزير معبودا وأطلقوا على مدينتهم «جدو» اسم «بر ــ أوزير» الذى حرفه الاغريق الى «بوزيريس» ، وهى «أبو صيرنا» الحالية ، على مبعدة ١٠ كيلا جنوبى غرب سمنود ، وهكذا حل أوزير محل المعبود «عنجتى» فى بوزيريس ، وأخذ عنه بعض مظاهر شاراته كريشتى التاج وعصا الراعى المعقوفة ، ثم انتشرت عبادته من هذه المدينة الى جميع أنحاء البلاد . وخاصة أبيدوس ، التى أصبحت المركز الرئيسى لعبادته [٢١].

غير أن هــذا الرأى الذى يذهب الى أن انتشار عبــادة أوزير من «بوزيرس» الى الصعيد ، لا يستطيع أن يثبت أمام فرض عكسى يذهب الى أنها قد انتشرت من الصعيد الى الدلتا ، هذا فضلا عن أن ما قيل أن أوزير قد أخذه من «عنجتى» يمكن أن يكون من خواص الحكم أو

---

21) A. Moret Le Nile et la Civilisation Egyptienne, Paris, 1926, P. 99-100.
J. Cerny, Ancient Egyptian Religion, London, 1952, P. 48; W. B. Emery, Op. Cit., P. 124.

شاراته ، ومن ثم فيمكن أن نفترض أن غازيا صعيديا كالملك العقرب قد أخضع جزءا من شرق الدلتا ، واكتسب لقب «عنجتى» ، أى المنتسب الى الاله عنجتى ، ولعل مما يدعم هـذا الفرض ذلك الشريط الطويل المتدلى الى الخلف من رأس الاله عنجتى ، وهو من زينة الاله مين ، وكذا الاله آمون ، وهما الالهان للذان لا يشك أحد فى أصلهما الصعيدى وأخيرا فكن رئيس عظيم فى عصور ما قبل التاريخ ، انمـا كان يعبد كأوزير •

هذا ويذهب «فرانكفورت» الى أن بعض المقاصير المقدسة لرؤساء ما قبل الاسرات ، انما قد بقيت بعد الاتحاد وقيام الاسرة الاولى ، وصارت مقاصير لأوزير — وليس للالهة المحلية — على أعتبار أن كل ملك انما كان أوزيرا ، ومن ثم فقد ارتبط أوزير بعدد من المقاصير،الامر الذى يفسر لنا ادعاء عدة مواقع فى مصر أنها كانت تمتلك جسد أوزير ، أو جزءا من هذا الجسد ، وأن قصة تقطيع ست لجسد أوزير ، لا يمكن أن تمثل الاعتقاد الأصيل ، الذى يرى حفظ الجسد كاملا ، وان المؤلفين المتأخرين قد كتبوا هذا تحت تأثير قصة «ديونسيوس» و «أودونيس» ثم يشـير « فرانكفورت » بعد ذلك الى أن « بوزيريس » قد امتلكت واحدة من مقاصير ملك قديم وكان لها أرتباط بأوزير ، وأن أبيدوس قد امتلكت أهم أعضاء أوزير ، وهى «الرأس» التى دفنت ، طبقا للتقاليد، هناك ، وقد عرفت مقبرة الملك «جر» بمقبرة أوزير وأصبحت أبيدوس فى الدولة الوسطى المركز الرئيسى لعبادة أوزير ، ويخلص «فرانكفورت» من ذلك الى أن عبادة أوزير انما كانت مـن أبيدوس ، وأن الريشتين اللتين كانا يلبسهما «عنجتى» انما كان أصلهما من الصعيد ، ومن ثم فقد شجبت النظرية التى تقـول بأن أوزير من شرق الدلتـا — من بوزيريس — وبأن الدلتا قد غزت الصعيد ، بعد أن اتحدت المملكتان تحت قيادة أوزير [٢٢] •

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن هناك من يرى أن أوزير لم يكن

22) H. Frankfort, Op. Cit., P. 200 F.

فى الاصل الها مصريا ، ذلك لان هناك ما يشير الى وجود بيت أساسى لاوزير فى مجاورات حدود مصر الشرقية ربما جاء اتباعه من سورية ووحدوا الههم مع معبود رعوى يقال له «عنجتى» واستوطنوا مدينة «عنجت» فى عصور ما قبل الأسرات ، وعرفت عبادتهم بعمود «جد» Djed ، وقيل أنها تمثل أربعة أعمدة يظهر كل منها وراء الآخر ، وعظام ظهر الانسان ، وربما كان اكثر احتمالا انها تمثل شجرة الأرز السورى ، مع فروعه الموجودة عليه ، وقد أحضروه معهم من سورية ، ثم أطلقوا على مدينتهم بعد ذلك اسم «جدو» ، ثم مالبثت المدينة أن أطلق عليها «بر — أوزير» أو «بوزيريس» نسبة الى «أوزير» ، وأما معنى الاسم فغير مؤكد ، وان كان يمكن تفسيره بمعنى «يخلق العرش» أو بمعنى «بؤرة أو قوة العين» . هذا بينما يذهب آخرون الى أنه انما كان الها ليبيا ، وليس آسيويا [٢٣] .

وهناك من الروايات ما يشير الى أن نوت قد ولدت أوزير فى طيبة فى أول أيام النسىء الخمسة [٢٤] ، وأن أوزير قد سمع صوتا فى المعبد ينادى بانه قد ولد اليوم الاله الملكى العظيم ، سيد كل الذين يدخلون الى الضوء ، واعترف رع بأوزير وريثا له ، وقيل أيضا أن أوزير وايزة قد أحبا بعضهما ، وهما ما يزالان فى الرحم ، وقد أثمر هذا الحب ولدهما حور الاكبر ، وأن أوزير قد نجح فى أعتلاء عرش أبيه جب ، وطبقا للأساطير المتصلة بأوزير ، فان الناس فى ذلك العصر المبكر كانوا ما يزالون فى بربرية يأكلون لحم البشر ، وأن أوزير قد علمهم الحضارة، وما يجب أن يؤكل وما لا يؤكل ، وأوضح لهم كيفية زراعة الحبوب كالقمح وكروم العنب ، كما علمهم كذلك طريقة عبادة الالهة ، وكتب القانون من أجلهم ، بعون من كاتبه تحوت ، الذى خلق الفنون والعلوم وأعطى الاشياء اسماءها ، وأنه قد حكم بالمنطق ، وليس بالقوة ، ثم

---

23) Egyptian Mythology, P. 50, O. Bates, The Nome of Osiris, JEA, II, 1915, P. 208.

(٢٤) انظر عن أيام النسىء (محمد بيومى مهران — مصر — ج ١ ص ١٨٠) .

بدأ ينشر علمه فى بقية العالم ، تاركا ايزة نائبة فى تصريف الأمور فى مصر ، وقد اصطحب معه فى مهمته كثيرا من الموسيقيين ، فضــلا عن الالهة المتوسطة ، واستطاع ، عن طريق المناقشة وأغانى الاناشيد ، أن يقنع الناس هناك باتباع وسائله ، وهكذا كتب له نجحا غير قليل فى تعليمهم زراعة القمح والشعير والعنب ، وكذا بنـــاء المدن ، وفى أثيوبيا علمهم كيفية تنظيم الفيضان عن طريق قنوات الرى والسدود .

وفى أثناء غيابه ، قامت ايزة ، بعون من تحــوت ، بادارة المملكة ولكنها جوبهت بدسائس «ست» الذى لم يكن طامعا فى العرش فحسب ، ولكنه كان مفتونا بها كذلك ، فضلا عن الرغبة فى تغيير النظام المقرر ، وبعد عودة أوزير بفترة قصيرة ، قرر ست ، بعــون من ملكة اثيوبيا «آسو» واثنين وسبعين متآمرا ــ ابعاد أوزير ، وذلك فى اليوم السابع عشر من شهر حتحور (سبتمبر أو نوفمبر فيما بعد) من العام الثامن والعشرين من حكمه ، وسقط أوزير ضحية التآمر ، وألقى ست بجسده فى النيل ، وتمكنت ايزه بعد ذلك من العثور على الجسد ، واعادة الحياة اليه بقوة سحرها ، وبمساعدة تحوت ونفتيس وأنوبيس وحور ، لكن أوزير كان قد انتسب الى عالم الموتى ، وفضل أن تكون مملكته هناك فى أرض الموتـــى ، تاركا مهمة الدفـــاع عنه فى هـــذه الارض لولده حـــور [٢٥] .

هذا وقــد ربط المصريون بين أوزيـــر (أوسيرى بالقبطية) وكل التطورات التى تحدث على سطح الارض طــوال العام ، وتؤثر فى انتاجهم الزراعى ، فعندما يجىء الفيضان يكون أوزير هو الماء الجديد الذى يكسب الحقول خضرة ، ومع أن أوزير صار مع المـــاء ، بل مع ينابيع الماء العظيمة ، نفسا واحدة ، فانه من الواضـــح ، أن وظيفة خاصة للماء هى التى أمتزج بها ، فالماء بوصفه مصدرا للخصب ، ومانحا

(٢٥) احمد بدوى وجمال مختار : المرجع السابق ص ٦٢ ـ ٦٣ ، وكذا Egyptian Mythology, P. 50-54.

للحياة ، هو الذى وحد به أوزير ، وهو الذى يسبغ الحياة على التربة، ومن ثم فان أوزير كان يتصل بالتربة اتصالا وثيقا ، واذا ما جف النبات وفنى ، فان هذا يعنى أن أوزير قد مات ، غير أن موته هذا ليس أبديا اذا اعتقد القوم أن الحياة تعود اليه كل عام ، وبعودتها تنبت المزروعات التى يعيش عليها الحيوان والانسان ، ومن ثم فان الاشارات المعروفة لنا عن أوزير انما تقرنه بحياة النبات أو توحده معها ، كما تربط متون الاهرام بين أوزير والحياة النباتية ، ويرتبط بذلك تصوير أوزير مستلقيا على الارض وينبت القمح من جسده أو تمثل شجرة نابتة من قبره أو تابوته ، أو تجعل تماثيل الاله المصورة على هيئة مومياء فى قالب مكون من الدشيشة والتراب مدفونة مع المتوفى أو موضوعة فى حقل القمح ليضمن به الزارع محصولا موفورا من أرضه .

هذا فضلا عن أو أوزير انما قد وحد فى أقدم نسخة من كتاب الموتى مع الحنطة ، اذ يقول المتوفى معبرا عن نفسه «انى أوزير ، وانى أعيش كحبة حنطة وأنمو كحبة حنطة ، وانى شعير» ، وهكذا ، ومن أجل الحياة والموت أعتبر أزير بعد ذلك الها للموتى وسيدا لهم ، وكانت تلك الصفة من أبرز الصفات التى عرفت عنه ، ومن ثم فقد أصبح فى العصور التاريخية الها للموتى ، وأما فى العصور المتأخرة فقد أعتبر الها للقمر ، لانه كان يختفى ثم يعود مرة ثانية الى الحياة ، كما مثل كذلك الشمس الغاربة والمشرقة ، هذا وقد أدت كثرة وظائف أوزيـر الى أن يصبح ينبوعا لا ينضب لوضع الاساطير .

وربما كانت أسطورته صدى لاحداث طواها الدهر منذ أمد بعيد ، وربما كانت هذه الاحداث غير مرتبطة فى الاصل ، فضلا عن انتمائها الى عصور مختلفة ، ثم ادمجت فيما بعد فى قصة أخلاقية عن الكفاح بين الخير والشر ، وتتلخص فى أن ملكا طيبـا قتله أخـوه الشرير ، فأحضرت زوجه جثته ونجحت فى أن تعيد اليها الحياة ، ثم عكفت على تربية ولدها منه فى كتمان شديد ، حتى اذا ما بلغ مبلغ الشباب انتصر على قاتل أبيه وجلـس على عرشه ، ولا ريب فى أن مـا اكسب هذه

الاسطورة تلك القوة ، انما كان بسبب الاعتقاد بأن الاستبداد والظلم ليسا هما القوتان اللتان تسودان العالم ، وانما الحق والاخلاص ، هذا فضلا عن الاعتقاد بانتصــار الاله المقتول على الميت ، فقد أسترجع الحياة ، وأصبح سيدا للموتى ، بعد أن تنازل عن حقه فى سيادة الاحياء لولده حور ، ومن الواضح أن القوم انما قد تمسكوا بهذه الافكار منذ أول عصورهم ، وأن هذه القصة كانت بمثابة المثل الواضح الذى تبلورت حوله هذه الافكار (٣٦) •

هذا وتصف النصوص كذلك وفاء الزوجة ايزة لزوجها أوزير ، فقد أخذت تبحث عنه دونما كلل أو ملل فى كل أنحاء البلاد ، بعون من أختها نفتيس (نبت حت) ، حتى قــدر لها أن تعثر عليه فى « ندية » ، ثم استعانت بكل الالهة وبكل القوى السحرية ، حتى تمكنت آخر الامر من أن تعيد اليه الحياة حينا من الدهر ، حملت فيه من زوجها حملا الهيا ، وأنجبت ولدهما حــور ، الذى قدر له أن يستعيد حق أبيه وعرشـــه المغتصب ، ويذهب «أوتو» الى أن التفسيرات المتاخرة قد أوضحت لنا أنها قد اسدلت الستار على جسدها ، واستقبلت مولودها ، وان هذا التصور يعنى عند القوم أن الموتى انما كان فى استطاعتهم أن يهبوا الاحياء الخصوبة ، ومن ثم فان أوزير انما قد جسد الخصوبة الارضية، وحين تتجسد هذه الفكرة فى شكل اله ميت ، فان هذا يعنى منح الحياة الجديدة للابن من الاب المتوفى •

وعلى أى حال ، فلقد عكفت ايزة على تربية ولدها حور ، وعندما بلغ مبلغ الرجال ، عقد له أتباع أوزير لواء الزعامة لاستعادة نفوذهم القديم ، تحت شعار «بوتو» احدى مراكز عبادة حور ، وقد كتب له فى

---

(٣٦) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٥٩ ــ ٢٦٢ ، تشرنى : المرجع السابق ص ٤٠ ــ ٤٢ •
جيمس هنرى برستد : فجر الضمير ص ١١ ــ ١١٣ ، أدولف ارمان : ديانة مصر القديمة ص ٤٨ ــ ٤٩ ، ٨٠ ــ ٨١ ، محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ــ الآداب والعلوم ــ الاسكندرية ١٩٨٩ ص ٢٥ ــ ٢٧ •

ذلك نجما بعيد المدى ، وهكذا كان المصرى يرمز لكل ملك حـى بأنه «حور» ولكل ملك ميت بأنه «أوزير» ، ثم سرعان ما تصبح للعقيدة الاوزيرية علاقة وثيقة بالملك ، ومن ثم فقد اتخذ الملك زى وشارات أوزير ، وكان الهدف منه ربط فرعون بهذا الحادث الميمون ، وفى النهاية أصبح فرعون المتوفى أوزير [٢٧] •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى ما تعبر عنه الاسطورة من قيم فاضلة ، غير ما ذكرنا من قبل ، فاخلاص الزوجة لزوجها ، وبر الابن بأبيه ، والحنان وحب الوالدين الخالص من الأنانية نحـو الابناء ، ونصرة الابناء لوالديهم ، كلها أدلة على أهمية السلوك الفاضل داخل الاسرة ، باعتبارها العامل الاول فى ظهور الافكار الخلقية ، هذا فضلا عن أن الحكم الذى صدر لصالح أوزير واعتباره «ماع خرو» أى مبرأ أو صادق الصوت ، واحتفال الالهة فى كل أنحاء البلاد ، وفى الجهات الاربع وفى السموات والارض بذلك ، انما يعد انتصار للحق ممثلا فى أوزير ، ويدل على معنى خلق كان له صـداه فى عصر الدولة القديمة والوسطى ، أضف الى ذلك أن سلوك الانسان وأفعاله انما قد خرجت من نطاق الاسرة الضيق ، وأصبح الحكم عليه ، صوابا أو خطأ ، من المجتمع نفسه ، ذلك لأن قيم الانسان وأفكاره انما أصبحت ترتبط بحياته العملية وبسلوكه داخل المجتمع •

هذا وكان من نتائج ازدياد أهمية أوزير وأسطورته ذات المغزى الطيب ، وانتشارها التدريجى بين طبقات المجتمع المصرى ، وبخاصة الدنيا منها،أن انعكس ذلك فى الخلود ، عن طريق اسم أوزير ومحاكاته، على أساس أنه ملك مؤله ، ورث حكم مصر عن أبيه جب ، فاقام فيها العدل ، وهدى الناس الى الخير ، ونشر بينهم العدل ، ثم تعرض لغدر أخيه ست ، فمات وبعث حيا ، فظلت ذكراه فى قلوب الناس تحمل معانى

---

27) H. Frankfort, Op. Cit., P. 38-41.
وكذا J. Vandier, le Religion Egyptienne, Paris, 1949, P. 96-97.

التقديس والاجلال ، ومن ثم فقد مزج كهنة رع عودته للحيـاة لكى يضيفوا الى ملوكهم نفس صفات أوزيـر ، بغيه أن يعيشـوا الحياة الدائمة ، ، كما عاش أوزير •

غير أن هذا التصور الاوزيرى لم يكن مقصورا على الملوك وحدهم ، وانما تعداه الى فئات اخرى من المجتمع ، وان بدت ظواهره خفية فى البداية ، ثم سرعان ما أصبحت واضحه بعد عصر الثورة الاجتماعية التى اتجهت فيها البلاد نحو الديمقراطيه ، والتى لم تكن وقفـا على الحياة الدنيا ، بل تعدتها الى الحيـاة التانية ، ولهذا نجد العامة من القوم يشاركون الفرعون مصيره الأخروى ، فكما أن الفرعون سيكون أوزير فى الآخرة ، فلقد أعتقد كل فرد أنه سيكون كذلك أوزير ، فما كاد الحى ينتهى الى الآخرة حتى يحمل أوزير وصفاته ، فيرعى جسده حارس الموتى أنوبيس،وتحنو عليه ربة السماء نوت ، أم أوزير ، وتبكيه أختاه ايزة ونفتيس،ويقوم الى جواره ولده حور ليدفع عنه شر المعتدين ثم يقوده فى موكب النصر والرحمـة الى مكانه من السماء ، وما كاد ركب التاريخ يصل بأيامه الى مطلع أيام الدولة الوسطى حتى تصبح هذه العقيدة واضحة فيما انتشر على توابيت الموتى من تعاويذ ورقى ، ويصبح الناس متساوين فى عالم القبور [٢٨] •

وهكذا أخذ نفوذ أوزير ومصيره فى العام الآخـر ينتشر بين كل طبقات المجتمع الذين اعتقدوا أن قبر أوزير الاصـلى ، انما كان فى الصحراء خلف أبيدوس ، فى مكان مقبرة جر ، ومن ثم فقد أصبحت مكانا مقدسا ، بل أكثر قداسة من أى مكان آخر فى مصر ، وبالتالى فقد عملت فئات كثيرة من كل الطبقات والبلاد على أن تدفن هناك بجوار قبر أوزير ، ومن تعذر عليه ذلك جهد على أن يقيم لنفسه قبرا رمزيا أو لوحا تذكاريـا ، نقش عليه اسمه وأسمـاء أقاربه ، فضـلا عن الدعوات

---

(٢٨) احمد بدوى : فى مركب الشمس ـ الجزء الثانى ص ٧٠ ، محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ٢١٤ ـ ٢١٧ وكذا J. H. Breasted, The Dawn of Consciencee, P. 122-129.

والصلوات للاله العظيم ، كما حرص بعض حكام الاقاليم ممن كتب عليهم أن يدفنوا فى أقاليمهم ، أن يحمل جثمانهم الى مقر اله الموتى فى أبيدوس ثم العودة ببعض الاشيــاء لتودع معهم فى قبورهم فى مواطنهم الاصلة ، ولعل السبب فى ذلك أن القوم انما كانوا يعتقدون أن بعث أوزير انما تم فى أبيدوس على يد تحوت ، سيد الكلم المقدس ، وايزة التى انتفعت بما زودها به تحوت من كلام ، ثم حور الذى قام بالاحتفالات الرمزية ، كما يقال أن رع قد أرسل أنوبيس ليعاون ايزة ونفتيس وتحوت وحور ، فضلا عن أن يخيط الاوصال المقطعة .

وهكذا عادت الحياة الى أوزير ، وبدأ حكمه كملك على الموتى فى العالم السفلى ، وسيدا للابدية ، وكان يظن أن بعثه كان بعثا جسمانيا بفضل السحر ، كما كان يحتفل به سنويا فى ابيدوس ، وهكذا أصبحت أبيدوس بعد نهاية الدولة القديمة مكانا مقدسا ، وأصبحت الرحلة اليها عند القوم رحلة حج الى مقر أوزير ، وبالتدريج حلت محل ما يسمى «بالحق القديم الذى كان يقام فى أون» ، الأمر الذى يفسر لنا كذلك اللوحات الجنازية الموجودة فى «أم المعقاب» ، والتى أقامها أصحابها القادمون من جميع أنحاء البلاد لزيارة قبر أوزير ، ومن هنا كان أهم ألقاب أوزير «خنتى أمنتى سيد ابجو» ، بجانب ألقابه الاخرى ، مثل ملك الالهة ووريث جب وسيد الابدية والكائن الطيب ، واله الخصب والنمــاء .

هذا وقد عبد أوزير فى كل أنحاء البلاد فى ثالوث يتكون منه ومن ايزة وحور ، وكانت مراكزه الرئيسية فى «بوزيريس» (أبو صيربنا) وفى أبيدوس (ابجو) وفى «نديت» على مقربــة من أبيدوس ، حيث قتل هناك أو عثرت ايزه على جسده ، وعرف هناك بصفته «أول الغربيين» وهو اللقب الذى أخذه من معبــود أبيدوس الاصلى «خنتى امنتيو» ويعنى ملك الموتى ، وربما كان هناك لاوزير معبد فى كل بلد فى مصر ، غير أن «أبيدوس» انما كانت أشهر مراكز عبادته فى مصر ، ومن هنا اهتم الملوك بها منذ عصر التأسيس ، حيث اكتسبت نصيبا من القداسة

لوجود معبد «خنتى امنتى» أمام الغربيين على حافة الاراضى الزراعية المؤدية اليها وعلى حافة الطرق المؤدية الى مقابر الملوك فيها وزادت قداستها بعد بداية عصر الاسرات ، منذ أن اعتبرها أهل الدين مقرا لضريح أوزير ، منذ أن نسبوا اليه الملك «جر» من الاسرة الاولى ، ثم تضخمت قداستها بمرور الاجيال حتى اعتبرت فى الدولة القديمة دارا للحج والزيارة(٢٩) .

هذا وقد أثبتت الحفريات أن كثـيرا من ملوك الدولة القديمة قد أسهموا فى توسيع المعبد الكبير داخل أسوار أوزير ، وقد أصدر الملك «نفر كارع» من الاسرة الخامسة مرسوما يعفى كهنة هذا المكان من الاعمال التى يقوم بها غيرهم ، كما أضاف الكثـير من ملوك الاسرة السادسة ، من أمثال ببى الاول ومرى ان رع وببى الثانى ، كثيرا من المبانى والتحسينات للمبانى القائمة ، وهناك من عصر الثورة الاجتماعية ما يشير الى قداسة أبيدوس ، حيث يحدثنا الملك الاهناسى عن الحرب التى دارت رحاها بين طيبة واهناسيا على الارض المقدسة فى ابجو ، ويحاول أن يبرر موقفه بأن انتهاك حرمة المقابر المقدسة قد وقعت من وراء علمه وأنه لم يعلم بها الا بعد وقوعهـا ، ومع ذلك فقد استحق العقاب من الالهة(٣٠) .

وفى الاسرة الثانية عشرة يقوم ملوكها بواجبهم نحو المدينة المقدسة، فمن عهد سنوسرت الأول يحدثنا وزيره «منتوحتب» بقوله : « لقـد قمت بأعمال فى المعبد ، فبنيت بيته وحفرت البركة المقـدسة وأقمت البئر ، بأمر جلالة حور» ، كما ذكر كذلك أنه بنى مركبا مقدسا لاوزير، وأمده ومعبده بكل وأفضل ما يقدم لاله فى مواكبه ويحـدثنا موظف

---

(٢٩) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة ص ٢٨١ ، فرانسو دوما : المرجع السابق ص٥٩ ، محمد بيومى مهران : مصر الجزء الثانى ص ٧٦ــ ٧٧ ، وكذا

C. De. Buck, Coffin Texts, I, P. 225.

30) J. Wilson, The Instruction of King Meri-Ka-Re, ANET, 1966, P. 414.

يدعى «خنتى أم ستى» أرسل فى عهد أمنمحات الثانى للتفتيش على معابد البلاد بقوله «لقد رسوت فى ابجو ، وأثبت اسمى فى المكان الذى وجدت فيه الاله أوزير ، أول سكان الغــرب ، وسيد الابدية وحاكم الغرب ، الذى يهــرع اليه الجميع طمعا فى نفعه ، حتى آكل خبزه ، وانطلق خارجا أثناء النهار» ، هذا وقد أقام سنوسرت الثالث معبدا فى أبيدوس مقر أوزير ، كما اهتم بهذه المدينة المقدسة ، ومن ثم فقد أمر بترميم ما تهدم من معابدها وتنظيم أعيادها ، كما عثر له عى تمثالين بين أطلالها ، ومعبد جنزى صغير ، هذا فضلا عن قبر له هناك ، لايدرى الاثريون ، ان كان قبرا أصليا أو رمزيا ، وهو الارجح ، وجد منهوبا تماما ، كما استغلت الطبقــة الوسطى فى عهــده ثرواتها فى اقــامة لوحات بأسماء أصحابها ، وتماثيل صغيرة ، أقاموها لانفسهم بمعبد أوزير فى أبيدوس(٣١) •

وهناك من الاسرة الثالثة عشرة ما يشير الى أن الملك «نفر حوتب الاول» انما يصور على أثر له من أبيدوس ، وهــو يستشير حاشيته منبئا اياهم أنه يود أن يصوغ مثالا للاله أوزير وتاسوعه فى أشكالهم الحقيقية ، ثم يقوم بزيارة لمكتبة الاله أتوم فى أون ، لكى يفتش فى الكتب القديمة بحثا عن ضالته ، وبعد أن يتم لفرعون ما أراد يرسل موظفا الى ابجو لكى يقوم بعمل الترتيبات كى يظهر أوزير فى الموكب فى قاربه المقدس ، ثم يصل الملك بشخصه ويشرف بنفسه على صناعة الصور ، ويسهم فى الابادة التقليدية لاعداء الاله ، وأما بقية النص فخصص للملك الذى يتسم بالتقوى للمعبود ، ولتهديد من تسول له نفسه مستقبلا أن يحول دون تذكر مثل هذا الملك الخير العظيم •

---

(٣١) عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ص ٣٩٠ ــ ٣٩١ ، محمد بيومى مهران : مصر ــ الجزء الثانى ص ٣٦٦ ، وكذا

W. M. F. Petrie, Abydos, II, London, 1903, Pl. XVII.

W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, New York, 1953.

J. Vercoutter, Op. Cit., P. 374.

هذا وقد ترك فراعنة الاسرة الثامنة عشرة ما يشير الى اهتمامهم بمعبد أوزير فى أبيدوس ، فقام تحوتمس الثالث بترميمه ، كما أوقف تحوتمس الرابع أرضين واسعة على المعبد وخصص لمذبحه دخلا ثابتا من ذبائح الحيوان والطير ، على أن أبيدوس انما بلغت الذروة فى القوة والثراء على أيام الاسرة التاسعة عشرة فلقد عمل رعمسيس الاول وسيتى الاول ورعمسيس الثانى على اعلاء شأن أوزير فى معبده العظيم ، ومنذ ذلك الوقت ، أصبحت اسطورة أوزير شائعة تماما كأحد مظاهر الديانة المصرية ، وأصبح هذا المظهر هو الذى يروق للعالم بوجه عام على أنه الشىء المميز فى المجموع العام فى العقيدة المصرية، وأصبح «وب واوات» و «خنتى امنتيو» و «ون نفر» ، وجميع آلهة الموتى والعالم الاخر الاخرى موحدة فى أوزير ، أو من اتباعه المتواضعين ، ومنذ هذا الوقت وحتى نهاية الدين المصرى كعقيدة حية، كانت سيادة أوزير لا مجال للتساؤل فيها لدرجة أن أصبح من المعتاد أن يعرف به كل ميت ، وأصبح الحديث عن أوزير (فلان) ، كما نتحدث اليوم عن المرحوم (فلان) •

وهكذا فان الملك سيتى الاول عندما أراد أن يكسب شعبية بين المصريين فانه قد شيد معبد للاله أوزير ، ينافس فى فخامته أعظم هياكل ومصليات المدن الكبرى فى مصر ، ذلك أن أبيدوس رغم أنها المقر المشهور لاوزير ، وأنها ظلت المركز المفضل للنشاط المعمارى عند الفراعين ، فلم يحدث أن واحدا من أسلاف سيتى الاول استطاع أن يمجد المنطقة بالقدر الذى فعله هذا الفرعون ، وذلك عندما أقام معبده المعروف باسم «بيت من ماعت رع» ، وقد دفعه حبه لأوزير الى أن يصدر مرسوم نورى المشهور لحماية مخصصات أوزير فى أبيدوس ، والحفاظ على ممتلكات المعبد ، وعدم التدخل فى شئونه ، ونصرة العاملين فيه ضد أى حيف يتعرضون له ، وأن كل العاملين فيه مصانون ومحميون مثل الاوز على شاطىء النهر ، وأن كل أعمالهم مكرسة لروح أوزير فى الاقليم العظيم الذى يحبه (أى فى أبيدوس) وأن خطأ لن يرتكب ضدهم ، وأنهم سوف يثبتون فى ممتلكاتهم ابنا بعد ابن حتى

حدود فترة الابدية ، وأن كل من يتعرض لهم سوف يعاقب بشدة ، وأن الفراعين الذين سوف لا يعملون بما جاء فى هذا المرسوم سوف يكونون مسئولين عن ذلك أمام الالهة ، الذين سوف يشتعلون غضبا ، كشعلة نار ، وسوف يحرقون جسد أولئك الذين لا يستمعون الى كلماتى هذه»

وليس من شك فى أن الغرض من هذا المرسوم — بجانب اظهار تقوى سيتى الاول وتكريمه لاوزير — أن اسم الفرعون «سيتى» (بمعنى المنتسب الى الاله ست) انما يشير الى ولاء للاله ست قاتل أوزير ، ومن ثم فقد أراد فرعون أن يترضى أوزير ، أو بمعني أصح كهانته القوية ومن ثم فرغم كثرة ما أنفق على هذا الاثر ، فان المعماريين لم يعنوا بتخصيص مكان للاله ست بين شاغليه المقدسين ، بل انهم خلال كتابتهم للقب الحاكم فقد استخدموا صورة أوزير فى مكان الصورة الحيوانية لخصمه اللدود ست ، ومع ذلك لم يسمح لأوزير أن يعبد هنا بنوع خاص على حساب ست ، ذلك أن المعبد انما كان يعتبر مصلى وطنيا ، فقد أقيمت الى جانب أوزير مصليات لزوجته ايزه ولابنه حور ، وهؤلاء الثلاثة هم الذين يكونون ثالوث أبيدوس القديم ، ولكن كان هناك كذلك مصليات أخرى من نفس الحجم بنفس الاهمية كرست لآمون اله طيبة ولبتاح اله منف ثم لرع حر أختى اله هليوبوليس ، ولم يكن سيتى الاول بالرجل الذى يفصل ما بينه وبين هذه الصحبة الفخمة ، ومن ثم فقد أمر أن يكرس لعبادته الهيكل السابع فى أقصى الجنوب •

وعلى أى حال ، فان سيتى الاول توفى قبل أن يتم بناء المعبد فأتمه رعمسيس الثانى ليكفل لابيه حياة مبررة فى الاخرة ، ولكى يحظى هو برضاء الالهة ، والمعبد حقيقة أحد مفاخر العمارة المصرية ، ويعد أعظم ما أخرجه الفنان المصرى فى ذلك العهد ، ويمتاز عن غيره من دور العبادة المصرية بتصميمه الفريد فى نوعه ، اذ صمم على هيئة حرف (٦) الرومانى مقلوبا ، هذا وقد أقام رعمسيس الثانى كذلك معبدا فى

أبيدوس يقف على قدم المساواة مع معبد أبيه ، ولكنه الان مخربا[٣٢] .

٤ ـ رع

يمثل الاله رع الشمس فى قوتها ، ويعنى اسمه ببساطة «الشمس»، وقد وحد منذ وقت مبكر جدا مع أتوم ، الاله الخالق فى أون ، مركز عبادة رع الرئيسى منذ أقدم العصور وحتى ظهور المسيحية ، ومن ثم فقد روت الاساطير أحيانا أن آتوم انما قد خلق رع ، وان كان فى الغالب ، أن رع انما قد بزغ من نون بارادته وحده ، وأن هناك اعتقادا أنه قد نشأ من المياه الازلية المحاطة بأوراق زهرة اللوتس التى طوقته أكثر من مرة عندما كان يعود اليها كل مساء ، أو أنه قد نشأ فى شكل طائر الفينكس (العنقاء Phoenix) ، طائر البنو ، وأضاء على القمة الهرمية للمسلة ، حجر ال «بن بن» ، الذى يمثل أشعة الشمس ، وأن أكثر الاشياء قدسية فى معبد رع فى أون انما هو حجر «بن بن»(Benben) الذى تعكس أسطحه المذهبة أشعة الشمس فى الصباح ، وأن موقع المعبد انما هو التل الاصلى نفسه ، وأن بيت ال «بن بن» انما كان فى وسطه ، هذا وقد قيل أحيانا أن رع انما قد اتخذ له زوجة هى «رعت» (رعة Rat) أو (Ius-as) أو (Urt-Hikiu)(عظيمة السحر) ، وأحيانا حتحور (وهى ابنته فى أحايين أخرى) .

وطبقا لنظرية الكهنوت الهليوبوليتانى[٣٣] كان رع هو الاله المبدئى

---

(٣٢) محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى رعمسيس الثالث ص ٦٦ ـ ٧٠ ، مصر ـ الكتاب الثالث ـ التاريخ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤ (ط ١٩٨٨) جيمس بيكى الاثار المصرية فى وادى النيل ، الجزء الثانى ص ١٥٧ ـ ١٨٥ .

F. Griffith, JEA, 13, 1927, P. 193-202; E. A. Budge, Op. Cit., P. 113-194; Egyptian mythology, P. 50-58; A. H. Gradiner, Op. Cit., P. 250-251; J. Spiegel, Die Welt des Orients, II, 1959, P. 397-403.

E. Drioton and J. Vandier, L'Egypte, Paris, 1962, 1962, P. 315.

W. C. Hayes, Op. Cit., P. 350, A. Gradiner, JEA, 38, 1947, P. 32.

J. H. Breasted, ARE, P. 84-85, W. F. Edgerton, JNES, 6, 1947, P. 157.

(٣٣) انظر عن نظرية الكهنوت الهليوبوليتانى (نظرية عين شمس) أعلاه ص ٣٠٣ ـ ٣٠٩ .

أتوم ، وقد أوجد نفسه من نفسه ، أو أن ذلك تم عندما خلق من نفسه أول زوجين مقدسين ، همـا شو وتفنوت ، وقد أنجبـا بدورهما جب ونوت اللذين أنجبا أوزير وايزه وست ونفتيس ، وان قيه كذلك أن رع نفسه انما هو ابن جب ونوت فى صورة بقرة ، وان رع كان يولد كل صباح كعجل ثم يكبر حتى يصبح ثورا فى وسـط النهار عندما يقوم باخصاب أمه ، مثل كان منفيس (ثور أمه) ، ثم يموت فى المساء ليولد فى صباح اليوم التالى ، بل ان القوم انما اعتقدوا كذلك أنه خرج من بيضة شكلها بتاح من صلصال ، أو أن جب قد خلقه فى صورة أوزير ، هذا وقد مثل رع أحيانا كقرص بسيط يولد على قارب ، وان صور غالبا على هيئة رجل برأس صقر ، وذلك بسبب توحيده مع حور ، وقد توج الرأس بقرص الشمس التى طوقت بالحية التى تنثر النيران على أعداء رع ، وكان الاله فى هذه الهيئة يعرف على أنه «رع حور أختى»،حاملا علامة «عنخ» (الحياة) و «واس» (الصولجان) ، وكانت الاولى فى يده اليمنى ، والاخرى فى يده اليسرى ، ومثل كذلك كطفـل فى زهرة اللوتس ، مثل طائر البنو ، الذى يشرق عند الفجر من حجر بنبن،ولكنه لم يصور على شكل تمثال الا فى حالته كآمون رع ، هذا وقد ارتبط رع ارتباطا وثيقا بالملوك فقد كان الهم الحامى ، وقد اعتقد الفرعون أنه حور بن رع ، وأنه سوف يصبح رع بعد موته ، وفى أول الامر ، كان الفرعون وحده هو الذى يسمح له بعبادة رع ، ولكنه أصبح بعد ذلك الها للدولة أكثر منه الها للفرعون،وأصبح الفرعون حور بن أوزير، أكثر منه حورس الشمس(٣٤) .

هذا وقد عرفت مصر عبادة الشمس منـذ الازل ، وكان للشمس مظاهر متعددة ، كان كل منها الها مستقلا ، وأحد مظاهر اله الشمس نفسه ، وأصبح رع اله أون هو اله الشس ، الذى غطى على ما عداه، فاستحوذ على السلطة فى أون من آتوم ، الاله الخالق ، الذى وحـد نفسه مع الاله الجديد ، وصار يسمى «رع أتوم» وجمع رع بينه وبين

---

34) E.A.W. Budge, Op. Cit., P. 322-335 Egyptian mythology, P. 40-41.

بعض مظاهر الشمس ، مثل اله الافق «رع حر أختى» ، وضموا اسم رع بصفته الاله الاعظم الى بعض الالهة الهامة فصارت أسماؤها «رع حر أختى» أو «سوبك رع» أو «خنـــوم رع» وهكذا ، ومنذ الاسرة الثانية عشرة مزج الاله أمون بالاله رع ، تحت اسم «آمون رع» بغية أن يكتسب آمون صفا ترع ونفوذه القوى بين الناس ، حتى يمكن عبادته وقبول طبيعته كرع ، ومع ذلك فقد ظل كل من أمون ورع الها مستقلا ، أحدهما للهواء ، والاخر للشمس ، بالرغم من أنهما قد اتحدا تحت اسم «آمون رع» ، الذى أصبح الاله الاعظم للآمة ، ولم تسمح ثروة آمون رع أو نفوذه السياسى ، أو أنه أصبح ملك الالهة،بأن يضم الى معبده فى الكرنك ، معبد اله الشمس فى هليوبوليس ، هذا وقد كان رع ، فيما يعتقد القوم ، أعظم الالهة طرا وسيدهم ، بل هو أبو الالهة، فضلا عن الجنس البشرى ، وكل الكائنات الحية ، وكان مركز رع فى مدينة أون (عين شمس أو فيما بينها وبين المطرية) ، والتى ربما كان اسمها يدل على ارتباط بعبادة رع ، فقد كان اسمها فى المصرية «ايونو» بمعنى العمود ، وكان قومها هم «الايونيتو» أصحاب العمود ، وهــو فى الهيروغليفية المصرية عبارة عن عمود على صورة المسلة تقريبا ، وقد استعملت نفس الكلمة لقمة الهرم أو للهرم كله حين اتخذ نفس الشكل، وكما أشرنا من قبل ، فقد كانت القمة الهرمية تدعى «بنبن» (بن بن) وقد صارت أكثر رموز رع قداسة ، ربما لان أسطحها المذهبة تستطيع أن تتلقى وتشع أشعة الشمس وتعكسها ، ومن ثم فقد كانت ال «بنبن» وليست المسلة كلها أو الهرم كله ، هو ما كان مقدسا لرع ورمزه الاكبر، ومن ثم فقد أقام القوم للاله رع معبدا ذا طابع خاص . لم يكن به صورة لهذا الاله ، وانما حوى قطعة مقدسة من حجر دعيت بنبن كانت توضع فى فناء مكشوف ، واعتقدوا أن الشمس يجب أن ترسل أشعتها الأولى على هذا الحجر ، ولم يعثر على معبد واحد من هذه المعابد فقد اختفت جميعها ، وان كنا نستطيع أن نتصورها اذا ما قارناها بمعابد

الشمس التى شيدها ملوك الاسرة الخامسة على نمطها(٣٥) •

وهناك من الادلة الاثرية ما يشير الى أن عبادة الشمس قد وجدت فى عصر التاسيس (الاسرتان الاولى والثانية) دون شك ، وقد انتسب الملك «رع نب» من الاسرة الثانية الى الاله رع ، كما حمل ملك آخر اسم «ونج» وهو اسم اله قديم ذكرته نصوص الأهرام على أنه «ابن رع» ، هذا فضلا عن ارتباط رمز الاله رع ، والمصور على هيئة قرص الشمس ، مع حيوان الاله ست المصور فوق اسم الملك «بر ايب سن» كما أن المراكب الجنازية الملحقة ببعض مقابر سقارة وحلوان انما تدل على أن الميت ، فيما يعتقد القوم ، يجب أن يلحق بصحبة الالهة فى رحلتها عبر السماء ، وأن هذا الأعتقاد انما كان مقبولاً منذ بداية الاسرة الاولى ، هذا وينسب الاثريون الى الملك زوسر بناء معبد صغير فى مدينة أون ، صور فيه بعض أفراد تاسوعها المقدس(٣٦) •

وفى الاسرة الخامسة نرى أنصارها يرجعون حقها فى عرش الفراعين الى ارادة ربانية قديمة ، والى أصل مقدس ، فيخرجون على الناس بأسطورة تجعل ملوكها أبناء للاله رع من صلبه ، وكانت ديانته قد أصبحت الديانة الرسمية للبلاد منذ ذلك الحين ، كما أصبح لقب «ابن رع» (سارع) من ألقاب ملوك مصر الرسمية حتى نهاية العصور الفرعونية ، ويؤكد هذا اللقب صلة الملك بالاله رع ، بل أنه كان تصريحا من الملك الفرعون ببنوته للاله رع ، تلك البنوة التى أعلنها الفراعين منذ الاسرة الرابعة بصفة متقطعة ، وبصفة دائمة منذ عهد «نفر اير كارع» ثالث ملوك الاسرة الخامسة ، بل ان اسم رع قد دخل فى ألقاب الملوك كما أشرنا آنفا ، منذ الاسرة الثانية ، مثل «رع نب» بمعنى رع الذهبى •

---

(٣٥) أدولف ارمان : المرجع السابق ص ٣١ ، وكذا
J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, P. 209.
36) W. S. Smith, A History of Egyptian Sculpture and Painting in The Old Kingdom, Boston, 1946, Fig. 48-53.

وهكذا كانت الاسرة الخامسة بالذات بداية تأكيد بنوة الملك للاله فى ذلك اللقب الرسمى (سارع)،والذى كان يسبق اسم الملك الشخصى الذى أطلق عليه عند ولادته ، للتاكيد الواضح أن الملك ولد حقيقى للاله رع ، وبذا يصبح صاحب حق شرعى فى حكم مصر ، وكان من المنتظر أن يزيد ذلك فى قدسية ملوك الاسرة الخامسة ، ولكن الذى حدث غير ذلك ، ولعل السبب أن هذه الاسرة انما قامت أصلا بدافع من كهانة رع فى عين شمس ونفوذها ، ومن هنا كان ملوكها يدينون بالولاء للاله رع نفسه ، صاحب الفضل فى ارتقائهم عرش الكنانة ، ثم لكهانته الذين ساندوهم وعضدوهم فى حكمهم ، وقد كان لذلك أبعد الاثر فى قدسية الملوك ، ونجاح رع فى تحدى السلطة الفعلية المطلقة التى كان يتمتع بها الفراعين[٣٧] .

ولقد أدرك ملوك الاسرة الخامسة منذ أول أمرهم ، أن أول واجب عليهم هو اقامة المعابد الكبيرة المكشوفة لعبادة الشمس بجانب مقر اقامتهم ، وهى تختلف كثيرا عن سائر المعابد المصرية ، وقد كشف «بورخاردت» فيما بين عامى ١٨٩٨ ، ١٩٠١م ، فى منطقة أبو غراب ، شمالى أبو صير عن معبد كبير للشمس ، يفترض عقلا أنه صورة من معبد «رع أتوم» فى هليوبوليس ، والمنظر الخارجى العام يشبه منظر المجموعة الهرمية العادية ، وله مبنى كمدخل عند الوادى ، ثم ممر صاعد ، يؤدى الى مستوى أعلى ، وعند القمة ما يمثل الهرم ومعبده الجنازى ، وأما الفارق الرئيسى ، ففى استبدال هذين الاخيرين بمسلة مقامة فوق قاعدة مربعة ، مثل الهرم المبتور القمة ، وتذكرنا المسلة بالحجر القديم جدا فى هليوبوليس ، والمشار اليه من قبل ، ويعرف باسم «بن بن» ، وربما كان اشتقاقه من «الواحد المشع» والذى كان يرمز ، دون شك ، الى شعاع أو أشعة الشمس ، ومن المعروف أن ستة من ملوك الاسرة الخامسة قاموا ببناء معابد للشمس من هذا

---

37) J. Wilson, Op. Cit., P. 120, I.E.S. Edwards, CAH, I, Part, 2, P. 13-54.

النوع ، ولكل منها اسمه،مثل «متعة رع» و «أفق رع» و «حقل رع»، وقد أمكن تحديد مكان اثنين منهما فقط ، الواحد ينسب الى «وسر كاف»، والاخر قام ببنائه «نى وسر رع» •

وكان اله الشمس يعبد هنا تحت قبة السماء ، وتوجد عند قاعدة المسلة ، شرفة فى وسطها مذبح كبير من المرمر ، والى شمال المذبح مساحة شاسعة كانت تقاد اليها الثيران حيث تذبح ، وهناك الى شمال هذه الساحة صف من المخازن ، وأما المرتفع الذى تقوم فوقه المسلة فكان يوصل اليه ممر طويل مغطى ، تزينه مناظر منحوتة ومنقوشة بصورة رائعة ، بعضها تمثل فصول السنة بنباتها وحيواناتها التى خلقها اله الشمس ، بينما تصف الاخرى «عيد سد» الذى كان تجديدا دوريا للملكية ، حيث كان يجتمع آلهة نصفى الدولة ليمجدوا الملك ، ولابد أنها كانت لحظة مثيرة للعواطف ، حين كان يبرز الكهنة فى خلال الاحتفالات من المر المظلم نسبيا الى ضوء الشمس الساطع الذى ينشره الهوهم فى الخارج[٣٨] •

٥ ـ بتـــاح

ليس هناك من الادلة ما يشير الى أن الاله «بتاح» كان واحدا من أقدم آلهـة مصر ، ومع ذلك فـان صلته بأوزير بعد موته وبعثه فى أبيدوس تشير الى أنه أقدم هناك منه فى منف التى أصبح الاله الرئيسى فيها ، هذا وقد نسب القوم مدينتهم منف هذه الى معبودها بتـاح ، وكان من أوائل الالهة التى ظهرت فى هيئة بشرية منذ ما قبل عصر بداية الاسرات ، وظل محتفظا بها حتى نهاية التاريخ المصرى القديم ، كما ظلت عقيدته ، وخاصة بين الطبقات المثقفة ، قوية ، اذ كانت تسودها الروحانية ، بخلاف العقائد الاخرى التى سادتها المادية ، وربما كان

---

38) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 85-86.

وانظر : محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفراعنة ص ٣٨ ، مصر ـ الجزء الثانى ص ١٥٦ ـ ١٦٣ •

أصل هذا الاله رجلا عبقريا ، طـواه النسيان لزمن بعيد ، ذلك لانه بخلاف مجموعة الالهة المصرية لم يأخذ صورة حيـوان ، ولم تكن له صلة بواحد من هذه الحيوانات ، وقـد مثل فى شكل رجل فى لفـائف مومياء ، لا يغطى رأسه سوى قلنسوة ضيقة ملاصقة لعظام الرأس ، ويلتف برداء يصل الى القدمين ، ولا تبرز منه سوى اليدين ، يقبض بها على رمزى «جد» (الدوام) و «واس» (الصولجان) ، ويزين رقبته بقلادة عريضة تغطى كتفيه وجزءا من صدره ٠

وقد رفعه كهان منف الى مرتبة الاله الخالق ، وقالوا عنه ، فيما تروى نظرية الخلق المنفية ، والتى ربما ترجع الى أوائل عهد الدولة القديمة وربما الى بداية العصور التاريخية ، أنه كان قبل كل شيء وأنه خلق العالم ، على أساس أنه القلب (أى الفكرة) فى كل شيء ، وأنه اللسان (أى الكلم) فى كل فم ، يوحى القلب بالفكرة الى اللسان ، فاذا نطق اللسان ، كان هذا النطق هو الخلق ، بمعنى أن كل الاشياء تاتى الى الوجود ، وتؤدى كل الاعمال ، بعد أن يتصورها بتـاح فى قلبه كفكر ، ثم يصدر بها الامر عن طريق اللسان ، فتخرج الى حيز التنفيذ عن طريق أعضاء الجسم الاخرى وهكذا كانت وسائل بتاح فى الخلق غير وسائل آلهة الخلق الاخرى ، فقد كانت روحانية أكثر منها جسدية، مما أدى الى عدم شيوعها بين الشعب ، رغم بقاء أهمية بتاح طوال العصور الفرعونية ٠

هذا وقد اكتسب بتاح شهرة واسعة منذ أن أصبحت منف عاصمة البلاد ، ذلك لان تفوقها السياسى انما كان سببا فى أن يحظى معبودها بتاح بمكانة مرموقة بين الالهة المصرية،بل وان يعتبر الها للارض كلها، أسوة بالاله جب ، وأن يكون سيدا للفنون ، حاميا للفنانين ، ومن ثم فقد كان أهم لقب يعتز به كبير كهانه لقب «عظيم الفنانين» (ور — خريو حمت) ، وربما اعتبر كذلك اله القوة التى فى الارض ، الخشب والحجر وباقى المواد التى تصنع منها التماثيل ، كما كان يطلق عليه سيد العدالة، وملك الارضين ، وخالق الفن ، ورافع السموات وخالق الالهة ، الاله

العظيم ، صاحب البداية الاولى ، أول من كان وأول اله فى الخليقة ، وبذا كان بتاح بمثابة الاله الذى عاش عصورا لا حد لها ، أو كما يقول المصرى القديم ، احتفل بعدد لا يحصى من الاعياد الفضية ، ومن ثم فقد أصبح مثلا يشبه به كل ملوك مصر الذين حكموها مددا طويلة •

هذا وقد وجد الاغريق الشبه كبيرا بينه وبين معبودهم «هيفايستوس» (المثال) فأطلقوا عليه هذا الاسم ، وهكذا اقترن بتاح فى العصر اليونانى بالاله «هيفايستوس» وفى العصر الرومانى بالمعبود «فولكان»، أما فى مصر فقد اقترن بتاح بسوكر الذى شارك بتاح شهرته فى منطقة منف ، وقد صور على هيئة صقر محنف ، وبشكل آدمى برأس صقر، واعتبر الها لسقارة ، جبانة منف ، التى سميت باسمه ، وربما كان له معبد داخل منف نفسها ، وكان القوم يعتقدون فى هذا المنظر الجامع للمعبودين أنه يحمى الجبانة ومن يدفن فيها ، وفى وقت لاحق أضافوا اليهما معبودا ثالثا ، هو الاله أوزير ، فأصبح اسم المعبود الجديد الذى يجمع قوى وخصائص المعبودات الثلاثة «بتاح — سوكر — أوزير» وقد مثلوه على هيئة رجل قمىء رأسه جعران ، وأحيانا كان كصورة مومياء ملتحية تعلوها الريشتان وقرص الشمس وقرون الخروف،وكان الها جنزيا ، وفى الواقع فلقد ارتبط بتاح بكثير من الآلهة ، بما فيها نون ، الماء الازلى الذى بزغ منه العالم ، وحعبى اله النيل ومصدر الخصب ، وجب اله الارض ، وتاتنن اله الارض القديم والذى يمثل التل الازلى ، وشو الذى يصعد الى السماء ، وحتى أتون ، وأما ثالوثه المقدس فكان يتكون من بتاح كأب ، وسخمت كزوجة ، ونفر توم كابن، ثم فيما بعد (بتاح — سخمت — ايمحوتب) •

وهناك من الادلة الاثرية ما يشير الى وجود ديانة بتاح منذ عصر الاسرة الاولى ، فقد عثر فى طرخان على آنية من الالبستر عليها شكل بتاح فى مقصورته وقد كتب عليها اسمه ، وأما مركز عبادته الرئيسى فكان فى منف ، حيث شاد القوم معبد بتاح فى الناحية الجنوبية المفتوحة من السور ، واعتادوا أن يلقبوه منذ ذلك الحين بلقب «الكائن جنوبى

جداره» أو «جنوبى سوره» وربما شادوا الى الجنوب من الباب القبلى لمعبده بناية صغيرة خصصت للمعبود «حاب» الذى رمزوا له بالفحل ، وربما للفحل نفسه •

وفى عهد الاسرة السادسة والعشرين زاد بسماتيك الاول من حجم المعبد ، حيث عبد بتاح على هيئة العجل أبيس الذى بنى له سرابيوم منف أو مدفن العجول المقدسة فى أقصى الغـرب من منطقـة سقارة الشمالية ، وكان العجل أبيس فى ذلك العصر بمثابة الرمز الحى للاله بتاح وكان يحفـظ بعد موته ويدفن فى احتفـال مهيب ، وتوضع معه الاوانى والحلى وغيرها ، ويذهب البعض الى أن عبادة الثور انما كانت قائمة منذ عهد الاسرة الاولى ، اعتماداً على تصوير ملوك هذه الاسرة على هيئة ثيران ، وأن الثور انما كان فى نظر القوم رمزا للقـوة فى الحرب وفى الاخصاب ، هذا وقد اشتهرت هذه العبادة باسم «مرور حبى» (منفيس وأبيس فى تصحيف اليونان) ، حيث عبد الاول فى عين شمس ، رمزا لاله الشمس ، وعبد الثانى فى منف رمزا لبتاح ، وقد احتفظ القوم فى معبد بتاح بالعجل المقدس أبيس ، دون أن تكون هناك علاقة ما ، على الاقل فى العصور المبكرة ، بين المعبودين ، كما أن بُتاح لم يصور أبدا على هيئة ثور ولم يعتقد القوم أنه تجسد فى ثور ، ولم يعتبر أبيس كروح لبتاح ، الا على أيام الدولة الحديثة ، وان كان هناك اعتقاد يجعل من أبيس ، وكذا من منفيس عجل هليوبوليس ، رسولين يقومان بتبليغ الرسائل الى معبوديهما،وهو اعتقاد يرجع الى عهد الدولة الحديثة •

وعلى أى حال ، فلقد تمتع بتاح على أيام الاسرة التاسعة عشرة بالدرجة الرفيعة والمنزلة السامية ، كذلك حرص أمراء تلك الاسرة ، من أمثال مرنبتاح الذى خلف أباه رعمسيس الثانى على عـرش الكنانة ، على تولى منصب الكاهن الاكبر للعجل حبى (أبيس) ومن قبل كان أخوه «خع ام واس» كاهنه الاكبر كذلك ، هذا فضلا عن مرنبتـاح نفسه (محبوب بتاح) انما كان ينتسب الى الاله بتاح ، كما كرس له محراب

فى معبد أوزير الذى بناه سيتى الاول فى أبيدوس ، وحمل فيلق من جيش رعمسيس الثانى اسم بتاح (بجـانب فيالق أمون ورع وست) وهو الفيلق الذى جاء من منف ومصر الوسطى(٣٩) .

٦ ـ امـــون

لعل أول الادلة الاثرية التى ورد فيها اسم الاله آمون ، انما هى عدة فقرات من نصـوص الاهرام من عهـد الدولة القديمة ، ويذهب «دوما» الى أن آمون انما قد ذكر ، للمرة الاولى ، على أثر من طيبة يرجع الى أيام «ببى الاول» من الاسرة السادسة ، وكان سـيد طيبة وقت ذاك ، ومع ذلك ، فالاسلم أن نعتبره فى عهد الدولة القديمة الها مغمورا لقرية صغيرة فى الصعيد ، ولم يكن هناك ما يشير الى أنه سوف يكسب ما ناله من شهرة فيما بعد ، كما أن جاره الاله «مونتو» معبود أرمنت كان أشهر منه ، ويذهب البعض الى أنه ظل كـذلك حتى عهد الاسرة الحادية عشرة حيث أصبح معبود الاقليم ، كما أصبح معبودا للاسرة الحاكمة .

على أن هناك من يرى أن الاله آمون هذا ، انما يمثل ألاله «مين»، وأنه قد تفرع منه منذ الاسرة الخامسة ، وقد ذكر على أثر صغير يشبه «الزر» منذ أيام الاسرة السادسة ، كما ذكر كذلك فى الاسرة الثامنة على «زر» و «جعل» ، هذا فضلا عن أن الاله مين انما كان قد صور فى طيبة على هيئة آمون ، عندما عين «ايدى بن شماى» أمير مدينة قفط ، حاكما على المنطقة ما بين «هو» بمركز نجع حمادى ، والفانتين (جزيرة

---

(٣٩) نجيب ميخـائيل : الحضـارة المصريـة ص ٢١١ ـ ٢١٣ ، فرانسو دوما : الهة مصر ص ٨٦ ـ ٩١ وكذا
E. A. Budge, Op. Cit., P. 500-504; Egyptian Mythology, P. 105-106.; W. Emery, Op. Cit., P. 122-124; H. Kees, Das alte Agypten, P. 88; T. Frankfort, Op. Cit., P. 10; I. E. S. Edwards, Op. Cit., P. 52-53; H. Frankfort, Ancient Egyptian Religion, N. Y. 1961, P. 24.

أسوان)[٤٠] .

هذا ويذهب بعض الباحثين الى أن الموطن الاصلى للاله آمون انما كان فى مدينة الاشمونين ، وأن ملوك الاسرة الحادية عشرة والثـانية عشرة ، هم الذين أتوا به الى طيبة ، ثم أخذت شهـرته تنتشر حتى طغى على جميع الالهة المصرية غير أننا لا نملك ، فيما يرى البعض ، دليلا على وجود آمون فى خمنو (الاشمونين) الا على أيام الاسرتين التاسعة عشرة والسادسة والعشرين ، بينما هناك ما يؤيد وجـوده فى الحادية عشرة فى طيبـة ، حيث يرد اسمه على أثرين من عهـد هذه الاسرة ، أحدهما من القرنه ، والاخر من وادى الحمـامات ، وعلى أى حال ، فلقد تمكن آمون من أن يتبوأ مكانة ممتازة فى الدولة ، عندما نجح أمنمحات الاول (آمون فى المقدمة) من تأسيس الاسرة الثـانية عشرة ، بعد أن كان الها يكاد يكون مجهولا ، أو على الاقل لم يكن له نفوذ سياسى فى مصر ، ثم سرعان ما أصبح بعد حين من الدهر ، الاله الرسمى للدولة[٤١] .

هذا وقد مزج الاله آمون والاله رع تحت اسم «أمون رع» منذ بداية الاسرة الثانية عشرة ، بغية أن يكتسب آمون صفات رع ونفوذه القوى بين الناس ، وحتى يمكن عبادته وقبول طبيعته كرع ، واذا كان من العسير على الناس تفهم معنى الخفاء والغموض التى يقدمها اسمه، ولم يكن المزج بالاله رع ، فيما يرى «هنرى فرانكفورت» ، يرجع الى طبيعة آمون كاله للهواء ، وأن القوة الخلاقة فى الهـواء ومثيلتها فى

---

40) F. Daumas, La Civilisation de L'Egypt Pharaonique Paris, 1965, P. 300; S. Mercer, Op. Cit., P. 100, 189; E. Driotin et J. Vandier, L'Egypte, Paris, 1962, P. 66; W. Hayes, JEA, 32, 1946, P. 16.

(٤١) الكسندر شـارف : تاريخ مصر ص ٩٣ ـ ٩٤ ، محمـد عبد اللطيف : آمون فى الدولة الحديثة ص ١٤ .

J. Vandier, La Religion Egyptienne, Paris, 1949, P. 150-151.

W. F. Petrie, Qurnah, London, Pl. X, W. Edgerton, JNES, I, 1941, P. 307 F, R. A. Parker, The Calendars of Ancient Egypt, P. 69.

الشمس واحدة ، وأن رفعه الى مرتبة الاله الاعظم كان على أساس أنه لا توجد قوة فى الكون تبارى مزج الشمس والهواء ، ذلك لان صفة آمون كاله للهواء لم تظهر الا متأخرا عند مزجه برع ، وذلك منذ بداية الاسرة الثانية عشرة .

وقد يقال ان الريشتين المستقيمتين العاليتين فوق رأس آمون تشير الى طبيعته كاله للهواء ، ولكن هذا الامر غير مسلم به ، اذ لم تنفرد به آلهة الهواء ، والتى تحلق فى الهواء كصقور ، مثل شو وأنحور وحور ومونتو ، بل شاركتهم فى ذلك آلهة أخرى مثل مين وأوزير ، ولم يكن أى منها الها للهواء ، فالاله مين اله للاخصاب فى المقام الاول ، وأوزير اله بعث ، وان لم تخل صفاته من الخصب أبدا ، هذا فضلا عن الاله آمون انما كان منذ عهد الاسرة الثانية عشرة يمارس وظيفة منح الفرعون الحياة عن طريق علامة الحياة (عنخ) الى أنف الفرعون ، فضلا عن تقديمه (واس) أى السعادة ، و «جد» (الثبات) ، وان كان هذا الاختصاص لم يكن مقصورا على أمون وحده ، وانما شاركه فيه آخرون ، ومن ثم فلا يكاد يخلو نص دون الاشارة فيه الى أن آمون هو الذى يمنح الفرعون الحياة والدوام والسعادة والصحة[٤٢] .

وبدأ آمون منذ حرب التحرير التى خاضها المصريون ضد الهكسوس[٤٣] يصبح واهب النصر والبلاد الاجنبية لابنه الفرعون ، ذلك لان القوم انما قد كتب لهم نجحا بعيد المدى فى طرد الهكسوس من مصر ، وكذا مطاردتهم حتى زاهى فى لبنان ، وكان ذلك كله تحت لواء آمون ، ونقرأ من هذه الفترة ، على لسان كاموزا « لقد أبحرت شمالا فى عزم وقوة لأغلب الاسيويين بأمر آمون، أعدل الناصحين»[٤٤]،

---

(٤٢) محمد عبد اللطيف : المرجع السابق ص ١٧ ـ ١٨ ، ١٦٦ ـ ١٧٤ .

H. Frankfort Ancient Egyptian Religion, P. 226.

(٤٣) انظر : محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة ـ القاهرة ١٩٧٦ ص ١٦١ ـ ٢٢٣ .

44) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 166.

ثم سرعان ما تمكنت مصر ، تحت لواء آمون ، من تكوين امبراطوريتها الواسعة ، والتى امتدت من أعالى الفرات ودجلة شمالا ، وحتى النجعة جنوبى شندى ، التى تبعد عن الخرطوم بأقــل من سبعين ميلا الى الشمال ، وهكذا اعتقد القوم أن الفضل فى انتصاراتهم ثم فى تكوين الامبراطورية الشاسعة ، انما يرجع الى الاله الملك الذى قاد الجيوش، والى الاله آمون الذى بارك تلك الحروب ، وذلك عندما تعطف وأذن بالحملات الحربية وأعار سيفه وعلمه الالهى الى الفرعون لكى يقود الجيوش ، ومن ثم فقد كان على تلك الجيوش أن تدفع ما عليها من دين لآمون ، بعد أن يتم لها النصر على العــدو ، وأن تعطيه نصيبه العظيم من الغنيمة لانه رعاها وحماها من الخطر(٤٥) .

وقــد أدى ذلك ، مع مرور الايام ، الى زيادة ثروة آمون زيادة كبيرة ، اذ كان كل نصر للجيش معناه زيادة فى ثروة آمون ، ولا نظن أن القوم كانوا يأخذون من ربهم شيئا ، اذا ما أصابتهم هزيمة،وهكذا كانت العلاقة السائدة بين اله الامبراطورية وبين الامة ، لم تكن علاقة من يزهد فى الحصول على المغانم ، ولكنها كانت اشتراكا الهيا فى أمور دولة مقدسة ، ونقرأ كثيرا فى النصوص المصرية أن جزية البلاد الاجنبية وثرواتها انما هى لآمون ، وأن الاسرى الاجانب عبيد له ، يعملون فى خدمة معبده ، ومن ثم فقد فاخر الفراعين باغداق الثروات على آمون حتى تضخمت أملاكه وازدادت ثروته بدرجة عظيمة ، وبمرور الزمن تكونت فى البلاد ملكية خاصة بآمون ، ذات نظام يشبه نظام الحكومة، فكان لها خزانتها ومخازنها ، وعندها مصانعها وموظفوها ، ولها اداراتها وعبيدها ، وكانت منفصلة عن أملاك بيت الفرعون ، وما أن يمضى حين من الدهر ، حتى تتسع هذه الاملاك بدرجــة كبيرة ، فلا تقتصر على أرض الكنانة وحدها ، وانما تشمل مناطق خــارج مصر ، وخاصة فى النوبة التى اتسع نفوذ آمون فيها ، وأصبح ذهبها وقفا عليه .

---

45) J. A. Wilson, Op. Cit, P. 185.

وهكذا فقد تمتع آمون بمكانة ممتازة فى هذه الامبراطورية الشاسعة، وأقيمت له فيها المعابد الضخمة بأموال الجزى التى تدفقت على مصر، ولعل من أوضح الامثلة على ذلك مجموعة معابد الكرنك الهامة ، ومعبد آمون فى الاقصر ، وما تلقاه آمون من ولده تحوتمس الثالث من هدايا، كان منها ، على سبيل المثال ، فى العـــام الرابع والثلاثين من الحكم ما يزيد على سبعمائة رطل من الذهب ، ومثلها فى العام الثامن والثلاثين، فضلا عن ثمانمائة رطل من الذهب فى العام الواحد والاربعين ، هذا فضلا عن تلك الكشوف الطويلة بأسماء الممالك والدويلات التى نقشت على معبد آمون ، والتى قال الفرعون أنه استولى عليها بفضل أبيه آمون[٤٦] .

وسرعان ما بدأ آمون يحمل صفات الاله مين ورع ، فهو مثل مين يحتفل به لانه يحمل ريشتين عاليتين ، وهو مثله يحمى طرق الصحراء، رغم أن طيبة لم تكن أبدا واقعة على الطرق المؤدية الى البحر الاحمر، وهكذا بدأوا يقولون عن آمون ، أن الالهة تشم رائحته عندما يأتى من بونت (بلاد البخور) ، وهو غنى بالعطور حينما ينزل من بلاد المازوى، وهو حور الشرق ، الذى تجلب له الصحراء الفضة والذهب واللازورد حبا فيه ، كما تجلب له كل أنواع البخور من بلاد المـــازوى ، والمر الطازج لأنفه ، وتذكر عادة كل هذه المنتجات تمجيدا لجاره مين ، ثم بدأ آمون يصبح بعد ذلك وكأنه الاله رع ، خالق كل شىء ، والوحيد صـــاحب الايدى البيضاء ، هـــو أب الالهة الذى خلق الناس حسب ألوانهم ، وقد خرج الناس من عينيــه ، والالهة من فيه ، عائل كل الكائنات الحية ، انه يسهر فى الليل حين ينام الناس ، وهو كالراعى الصالح يبحث عن الافضل لقطيعه[٤٧] .

هذا وقد كان آمون فى عقائده الاولى ربا للماء ، كما ادعى بعض

---

46) J. A. Wilson, Op. Cit., 184-185; T.G.H. James, CAH, II, Part, 2. 1973, P. 289-296; J. H. Breasted, ARE, II, 1927, P. 205-214.

(٤٧) أدولف ارمان : المرجع السابق ص ١٢١ — ١٢٢ .

أصحابه ، وربما للهواء ، كما ادعى بعض آخر ، وكان اسمه يعنى «الخفى» ، خفاء الاسم ، وخفاء الصورة ، لدى بعض أنصاره،ويعنى «الحفيظ» لدى بعض آخر ، وأضاف اليه عبدته ربوبية الاخصاب على احتمالين ، هما فطنة الكهنة لما يحمله الماء والهواء من عناصر الاخصاب، وميل العوام الى الربط بينه وبين اله آخر قديم ، عبدوه باسم «مين» وتصوروه متكفلا بربوبية الاخصاب فى كل صورة ، ومن ثم فقد صوروه على شكل الاله مين ، واقفا فى شكل مومياء ، وبالقضيب المنتصب ، والذراع المرفوعة التى يعلوها السوط ذو الثلاثة جدائل وبلباس الرأس المكون من القلنسوة التى تعلوها الريشتان المستقيمتان العاليتان ، والتى يتدلى من مؤخرتها الشريط النازل الى أسفل حتى القاعدة ، التى يقف عليها الاله أو قريبا منها .

هذا فضلا عن أن القوم انما تمثلوا آمون كذلك على هيئة بشرية، كان فيها محتشما طليق الحركة ، وتتدلى احدى ذراعيه الى جانب ، وتمسك يده بعلامة الحياة «عنخ» ، بينما تمتد ذراعه الاخرى قليلا الى الامام وتمسك بصولجان «واس» ، ويرتدى فوق رأسه لباس الرأس المميز ، والذى سبق وصفه فى الشكل الاخصابى ، ولكن يقتصر تدلى الشريط النازل من مؤخرة القلنسوة فى هذا التمثيل حتى الوسط فقط ، ويرجح أن يكون انفراج الساقين ، نتيجة الحركة الطليقة للتمثيل ، قد عاق اظهار باقيه ، ورغم أن الشكل الاخصابى هو الذى يغلب وروده فى الادلة الاثرية من معبد سنوسرت الاول فى الكرنك ، الا أنه يصعب تحديد أولوية أى من هذه الكباش المخصبة الطلوق ، التى توهم أصحابها أنها آية من آيات ربهم على الارض ، هذا وتتميز كباش آمون عن غيرها بالقرون الملتوية حول الاذنين،بينما كانت قرون غيره مستعرضة، وقد سبقته الكباش الاخرى فى الظهور ، أما كبش آمون فيرجع الى عصر الهكسوس ، وأخيرا فلقد مثل آمون أيام الدولة الحديثة فى شكل الاوزة ، والتى ربما تمثل الاله نفسه أو حيوانه المقدس ، كما يتضح من الادلة الاثرية وجود بعض التمثيلات النادرة للاله نفسه فى أيام

الدولة الحديثة تأثر فيها بالاله رع ، وغيره من الالهة مثل أتوم وحور أختى وأوزير[٤٨] •

وعلى أى حال ، فلقد بدأ أيضا أنصار آمون ينسبون اليه كل مايليق بربهم الذى أيدهم بنصره فى مصر وخارجها ، فأعطوه الصفة العالمية، وردوا اليه ربوبية النشأة الاولى ، كما ردوا اليه ربوبية النشأة الاخيرة، واعتبروه ربا للوجود ، ذلك أن آمون انما قد أصبح ، طبقا لتعاليم طيبة ، التى تأثرت بمدرسة الاشمونين هو الاله الذى خلق بقية التاسوع مع أنه أحد الالهة الثمانية فى الاصل ، وعلى ذلك فقد تخيلوه الها فى هيئة ثعبان ، أطلقوا عليه اسم «كم ان اف» أى «ذلك الذى أكمل زمانه» أو بمعنى آخر ، هو الذى انتهى أمره ، وقد أنجب هذا الاله الها آخر «ابر — تا» أى خالق الارض ، وهذا بدوره خلق الثمانية الاخرى التى منها نشأت الخليقة ، ومع كل فقد كان «كم ان اف» فى نظرهم هـو «آمون» العظيم ، معبود الاقصر ، وخالق الارض ، واله التناسل •

ولما ابتغى شعراؤهم أن يمجدوه نسبوا اليه صفات الاله مونتو ، اله الحرب القديم ، ونعوت الاله حور ، رب الدولة وحامى عرشها القـديم ، ونسبوا اليه سيطرة وهيمنة على ما امتدت اليه آفـاقهم السياسية والحضارية فى أقطار العالم القديم ، فهو «سيد بلاد المدجا حاكم بونت ، آتوم الذى خلق البشر ، ونوع هيئاتهم وفرق ألوانهم، جميل الوجه الذى جاء من أرض الاله فى الشرق •• لك ابتهالات كل بلد أجنبى حتى عنان السماء ، والى آخر الارض والى أعماق البحر الاخضر الكبير ، الواحد المنفرد ، الذى لم يكن له كفؤا أحد ، الذى يعيش على الحق كل يوم» ، وهكذا أصبح آمون خالق ما هو كائن ، صانع الرجال ، وأب الالهة ، وسيد الملوك ، وسيد السماء وثور أمه، وسيد عرش الارضين فى طيبة ، وسيد الكرنك ، وأما ثالوثه فيتكون

---

(٤٨) عبد العزيز صالح : الوحدانية فى مصر القديمة ص ١٣-١٤ ، محمد عبد اللطيف : المرجع السابق ص ٣٢٣ — ٣٢٥ •

منه بصفته الاله الاب ، ومن موت الالهة الام ، ومن خونسو الاله الابن[49] .

٧ ـ تحـوت

كان تحوت (تحوتى أو جحوتى كما ينطق فى المصرية) هو المعبود الذى نسب اليه القوم أصول الحكمة والحساب ورعاية الكتاب والكتابة والفصل فى القضاء ، كما اعتبروه كاتبا أعلى ووزيرا ، ونائبا لمعبودهم الاكبر رع ،فهو الاله الذى يقسم الزمن الى شهور ، وهو الذى ينظمها، أى ينظم شئون العالم ، واذا كان اله الشمس هو حاكم العالم ، فان تحوت هو أعظم الموظفين شأنا ، هو الوزير الذى يقف بجـانبه على سطح سفينته ليتلو عليه شئون الدولة ، وهو القاضى الذى يحـكم فى السماء ، ويقضى فى منازعات الالهة ، ويتنبأ للالهة والبشر بما سيحدث لهم ، وهو الذى يشيد المدن ويضع حدودها ، ثم هو العالم سيد الكتب ورب كلمات الآلهة ، أى الكتابة المقدسة .

وهو الذى أعطى الناس الكلمات والكتابة وعلم الكتاب والحساب الصحيح،ولما كانت الرياضة والفلك مرتبطة عند القوم بالسحر والكهانة، فقد كان تحوت سية السحر الكبير ، وعندما كان وزيرا لأوزير ، فقد علمه فنون الحضارة ، كما علم ايزة التعاويذ التى جعلتها جديرةبلقب «الساحرة الكبيرة» ، كما مكنتها من اعادة الحياة لاوزير ، فضـلا عن شفاء جميع الامراض التى عانى منها طفلها حور ، كما تمكن تحوت نفسه ، بعون من رع ، من طرد السم القاتل الذى وضعه ست للطفل حور ، وكاد أن يقتله ، وقد تمكن كذلك ، بصفته الها للطب ، من اعادة عين حور التى استطاع ست أن ينتزعها ، وهو فى هيئة خنزير أسود.

هذا وقد عرف تحوت على أنه كاتب الالهة ومعلن قراراتهم ، ومن

---

(٤٩) محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٣٠٧ ـ ٣١١ ، عبد العزيز صالح المرجع السابق ص ١٤ وكذا .

A. Erman, LAE, 1927, P. 283, J. Wilson, Op. Cit., P. 130-131, 211.

ثم فقد اعتبر رسول الالهة ، ولهذا فقد وحد مع «هرمس» فى العصر اليونانى ونظرا لكونه كان كاتبا لرع فقد عبده الكتبة وكل المثقفين فى مصر ، بما فيهم الكهنة ، واتجهوا فى بعض الاحايين الى تضخيم دوره، ومن ثم فقد ادعوا بأن الفرعون المتوفى يتحد مع رع خلال النهار،ويتحد مع تحوت (القمر) خلال الليل ، ومع ذلك ففى أثناء العهود التى ساد فيها آمون رع أصبح تحوت الها للحكمة وكاتبا ، وغدت وظيفته كاله للقمر عديمة الاهمية[٥٠] .

هذا وقد رمز القوم الى تحوت بثلاث كائنات حسية ، رمزوا اليه بالطائر أبيس (أبو منجل) أو رأس أبيس على جسد آدمى ، ولكنه كان من الممكن أن يكون كذلك قردا ، أو أن يبرز نفسه كقمر ، ثم سرعان ما خرج القوم بتأويلات عدة عن روابط تحوت بهذه الرموز ، ففسرها بعضهم على أساس التشابه الوظيفى بين تحوت رب الحساب ، وبين القمر الذى اتخذت منازله أساسا لحساب الشهور والليالى ، ثم على أساس التشابه الوظيفى كذلك بين تحوت نائب رع وبديله ووزيره فى مجمع الالهة وبين القمر نائب الشمس وبديلها فى ليالى السماء ، بينما فسرها بعض آخر على أساس التشابه المظهرى فى التقوس اليسير الذى يظهر به كل من عرجون القمر أو هلاله ومنقار أبى منجل ، وريشة الكتابة التى يستخدمها تحوت رب الكتابة والميزان .

هذا وقد فسرها فريق ثالث على أساس تشابه الخصال بين تحوت رب الحكمة وما يستتبعها من الرصانة والوقار ، وبين ما يتبدى من حكمة القرد العجوز ، الفطن بين الحيوانات ، ورصانة أبى منجل بين الطيور ، حين يتهادى فى تؤدة وتثاقل ، ويطيل بحثه عن ديدان الارض، وكأنه الرمز الحى للرصانة والصبر ، ويكون فيما يفعله خير للفلاح وأرضه ، وتقبلها فريق رابع ، على أساس التنويه بكرامة تحوت حين يرسل طيوره (أبو منجل) الى مشارف الدلتا فى أسراب كثيرة خلال

---

(٥٠) ادولف ارمان : المرجع السابق ص ٦٧ ــ ٦٨ .
A. H. Gardiner, Op. Cit., 216; BIFAO, XL, 1941, P. 93 F.

مواسم تهب فيها العواصف عليها من الصحراء محملة بديدان وحشرات، فتتلقفها تلك الطيور ، وتقى الناس والزرع أضرارها بأمر ربها[٥١] .

هذا ويذهب بعض الباحثين الى أن عبادة تحوت انما نشأت أولا فى الدلتا ، فى الاقليم الخامس عشر ، ربما فى «هرموبوليس بارفا» ، ثم وجد له موطنا جديدا بعد ذلك فى الاشمونين (هرموبوليس ماجنا) ، على مبعدة ١٠ كيلا شمال غرب ملوى ، حيث أصبحت بعد ذلك المركز الرئيسى لعبادته فى مصر كلها ، هذا وقد ظهرت عبادة تحوت منذ عصور ما قبيل الاسرات ، حيث صوره القوم على رؤوس الصولجانات واللوحات ، كما ظهر رمزه على هيئة طائر الابيس على بعض بطاقات الاسرة الاولى ، وان نسب اليه كهنته فى الاشمونين فضل خلق العالم، بعد أن خلق نفسه بنفسه ، فهو اذن الموحد الاول والخالق الاول ، الذى خرجت منه الالهة جميعا ، وقد اعتبر كذلك الاله الصديق الوفى للالهة وبنى الانسان[٥٢] .

٨ ـ خنوم

كان خنوم (بمعنى الخالق) الها قديما لمنطقة الشلال الاول ، حيث ينبع النيل ، فيما يرى القوم ، عند جزيرة آبو ، من العالم السفلى أو المحيط السفلى لنون من خلال كهفيه ، ومن ثم فان خنوم هو الذى يتحكم فى مصدر الرخاء فى مصر ، فكان يرسل نصف المياه الى الجنوب، ونصفها الاخر الى الشمال ، وكان مركز عبادته الرئيسى فى جزيرتى اليفانتين وفيلة ، وان عبد بصفة خاصة فى آبو (اليفانتين) حيث كان يمثل دور الاب فى ثالوث آبو ، بينما تمثل كل من ساتت وعنقت دور

---

(٥١) عبد العزيز صالح : الشرق الاردنى القديم ٣٠٢/١ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٦٤ ـ ٦٧ .

52) I.E.S. Edwards, Op. Cit., P. 53; W.F. Petrie, The Royal Tombs, II, Pl. X, 2.

وأنظر عن « هرموبوليس بارفا » (محمد بيومى مهران ـ الحضارة المصرية ـ الاسكندرية ١٩٨٤ ص ١٧٦ ، وكذا

J. De Rouge, Geographie Ancienne de la Basse Egypt, P. 8.

H. Gauthier, Dictionnaire des Noms Geographie, II, P. 16, VI, P. 131.

الزوجة،وكان ذلك بصفة خاصة بعد سنوات المجاعة السبع التى حدثت على أيام زوسر من الاسرة الثالثة ، وأصبح يطلق عليه «رب المياه الباردة» وانه «نون العظيم الموجود منذ الازل ، وانه الفيضان الذى يرتفع حيثما يشاء ، ومن ثم فقد منحه زوسر الاراضى الواقعة على ضفتى النهر ، فيما بين جزيرة سهيل جنوبى أسوان وجزيرة ضرار (المحرقة) الواقعة أمام قرته ، الى الجنوب قليلا من الدكة(٥٣) ، كما عبد خنوم كذلك فى كوم أمبو وادفو واسنا وطيبة ودندرة والشطب جنوبى أسيوط ، وفى أسيوط ، وفى الشيخ عبادة واهناسيا ، كما انتشرت عبادته على نطاق واسع لارتباطها بالنيل ، وأما المقاصر الرئيسية لعبادة خنوم ، فكانت فى «سنو» (أسوان) وفى جزيرة اليفانتين وبيجه ، وقد ظهر خنوم فى هذه الاماكن كرب لكل جنوب مصر ، بالاشتراك مع ايزه ربة الجنوب ، فى مقابل بتاح وتاتنن ونفتيس فى الشمال •

وكان خنوم الها خالقا ، اشتق اسمه من فعل «خنم» بمعنى يخلق، مما يشير الى أنه كان الها خالقا منذ البداية ، ولم تسبغ عليه صفة الخلق كغيره من الالهة ، خلق نفسه من نفسه ، كما خلق الارض ورفع السموات على عمدها الاربعة ، وخلق العالم السفلى والمياه ، وخلق الكائنات الموجودة والتى ستوجد والد الاباء ، وأم الامهات ، وخالق الالهة والبشر الذين شكلهم من الصلصال على عجلة الفخار ، سيد فيله، والكبش المقدس لرع ، وقد شكل خنوم ، طبقا لاوامر آمون رع،جسد حتشبسوت التى حملت بها أمها من آمون رع نفسه ، بل ان القوم انما كانوا يعتقدون أن خنوم قد شكل جسد كل طفل مولود •

وكان الكبش الافريقي حيوان خنوم المقدس ، وهو نوع من الكباش

---

(٥٣) انظر : محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثانى ص ١١٠ ـ ١١٣ ، وكذا

J. Wilson, ANET, P. 31-32.

J. Vandier, la Famine dans L'Egypte Ancienne, 1963, P. 132-139.

P. Barguet, la Stele de la Famine d Sahel, le Cairo, 1953.

له قرون تمتد أفقيا ، وقد ظهر هذا النوع من الكباش منذ أقدم العصور ولكنه اختفى وحل محلل الكبش الاسيوى ، الذى لايزال فى مصر للان، وكان خنوم يصور فى هيئة رجل له رأس كبش بقرنين أفقيين ، وأمامه دولاب الفخار يشكل عليه الطفل قبل مولده ، كما يشكل «الكا» الخاصة بالطفل ، أو ككبش يقف على قدميه الخلفيتين ، وقد سمى «روح رع الحية» ، وقد مثل أحيانا وله أربعة رؤوس كباش قد تشير الى أماكن عبادته الرئيسية أو تشير الى أنه اتحد مع الالهة الاربعة العظام،وهم رع وشو وجب وأوزير ، وأن الرؤوس الاربعة انما كانت ترمز الى النار والهواء والارض والماء •

وأما سبب اختيار الكبش رمزا لخنوم فربما كان ما لمسه القوم فى الكبش من قدرة مميزة على الاخصاب ، والتى تتفق مع طبيعة منطقة أسوان ، حيث تصور القوم أن النيل يأتى متفدقا من العالم السفلى الى الارض عن طريق فتحتين فى آبو ، يتحكم فيها خنوم بحيث لا تفتحان الا بأمر منه ، هذا وقد ارتبط خنوم بالنيل ، كما ارتبط احيانا بحور الكبير ، ولهذا فقد صور برأس صقر ، كما ظهر بصفته الها للماء، وهو يفتح يديه حتى يترك المياه تنساب منها •

وكانت حقت زوجته فى بداية الامر ، ثم ما لبثت ساتت أن حلت مكانها ، وتكون ثالوث اليفانتين من خنوم وعنقت وساتت التى ربما كانت زوجة ثانية له ، وربما ابنة لهما ، وعلى أى حال ، فهناك من الادلة مايشير الى وجود عبادة خنوم منذ الاسرة الاولى ، فلقد عثر فى أبيدوس على قطعة من الالبستر ، وقد صور عليها خنوم ، كما ظهر اسمه أكثر من ست مرات فى نصوص الاهرام من عصر الملك وناس ، وظل خنوم طوال التاريخ المصرى القديم وهو يتمتع بمكانة ممتازة بين الالهة المصرية ، فضلا عن المصريين أنفسهم ، بل استمر تقديسه عند القوم الى مدى قرنين أو ثلاثة بعد مولد المسيح ، عليه السلام[٥٤] •

---

54) E. A. Budge, Op. Cit., II, P. 106-109; Egyptian Mythology. P. 49-67 F.

=

٩ ـ مين

يذهب بعض الباحثين الى ان الموطن الاصلى للاله مين انما هى المناطق الشاطئية فى جنوب البحر الاحمر ، أى جنــوب بلاد العرب وارتيريا ، وأنه قد حمل معه أثناء هجــرته الى مصر بعض خصائص وطقوس عبادته ، فضلا عن اشارات الى أصله العربى الجنوبى ، ومنها «رب بونت» ، ويذهب «جوتييه» الى ان المصريين قد اطلقوا على بلاد بونت اسم «أرض الاله» أو الارض المقدسة ، وذلك لقدوم الاله مين منها فى الزمن السحيق ، هذا فضلا عن التشابه بين اقدم معبد للاله مين ، وهو على شكل مخروطى يشبه خلية النحل ، وبين أكواخ أهل بونت المخروطية التى على شكل خلايا نحــل أيضا ، والمرسومة على جدران معبد حتشبسوت فى الدير البحرى[٥٥] .

ويذهب «جوتييه» الى أن الكوخ الذى على شكل خلية النحل انما كان أقدم شكل للمساكن فى مصر ، وانه قد ظهر فى الرسوم المصرية فى عصر الدولة الوسطى خلف صورة الاله مين ، وقد ألحق بمعبد الاله رواق وصارى يعلوه قرنا ثور وهذا المعبد يمثل الهيكل القديم للاله مين عندما كان فى بونت ، بلاده الاصلية على شواطىء البحر الاحمر ولم يكن قد دخل مصر بعد ، وكان يسمى «سحنت» ، أضف الى ذلك أن النص الذى يصف ثور الاله مين بانه «الثــور الذى جاء من البـــلاد الاجنبية» ، وقد حفــر على تماثيل مين التى ترجــع الى عصر ما قبل الاسرات ، وتمثل ثورا ذا قرون على شكل الهلال واقفا فوق ثلاثة تلال تشبه فى شكلها علامة «خاست» التى ترمز فى الهيروغليفية الى البلاد الاجنبية التى جاء منها الاله الثور ، والثور هنا يمثل صفة الاخصاب والتناسل فى الاله مين ، وهى الصفة الاولى أو الاصلية له .

=

Petrie, Abydos, I, Pl. IV. 14.

وانظر : فرانسو دوما : آلهة مصر ص ٣٢ ـ ٣٤ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

(٥٥) أنظــر

E. Naville, The Temple of Deir al Bahari, III, London, 1898, Pls. 69F.

الوافدة الى مصر عن طريق البحر الاحمر ، والواقع أن النصوص انما تشير الى صلات واضحة بين الاله مين ، وبلاد بونت وأشجار البخور التي ارتبطت بهذه البلاد منذ عصر حتشبسوت ، فضلا عن أننا نلاحظ ذكر القمر مرتبطا بعبادة مين ، الى جانب اقتران الثور (حيوان التجسد للاله مين) بهذه العبادة القمرية فى نص من أخميم ، وهكذا يبدو أن عبادة مين تتميز بثلاث خصائص رئيسية هى ، عبادة الاله مين كاله للقمر ، وكحام للقوافل ، واتخاذ الثور رمزا له ، وظهـور قرون هذا الثور الهلالية الشكل فى أقدم رسوم معبد مين[٥٦] .

هذا ونلاحظ فى الجانب الاسيوى للبحر الاحمر ، ظهور أغلب هذه الخصائص فى عبادة اله القمر الاسيوى ، والذى عبد هناك تحت أسماء مختلفة ، فهو المؤقاه عند السبئيين ، وهو «ود» عند المعينين ، و «سين» عند الحضارمة ، كما عبد فى سيناء ، ربما باسم سين كذلك ، فضلا عن أن الحيوان الذى يرمز الى عبادة القمر ، على كل من الجانب الافريقى (منطقة وادى الحمامات ومجـاوراتها فى مصر) والجانب الاسيوى (خاصة فى اليمن والحجاز) هو «الثور» ، حيث كان اله القمـر عند الثموديين واللحيانيين يسمى ثور ، بل ان الديانة العربية القديمة فى جوهرها ديانة قمـرية ، ربما بسبب العوامل الجغـرافية والمناخية ، فالشمس محرقة متعبة ، بينما القمر دليل الحادى ورسول القافلة ، وليس عبثا أن نرى فى العربية التعبير «القمـران» للشمس والقمر ، ويبدو أن الصفة الاساسية التى ارتبطت بالاله مين بحكم موقع عبادته فى قفط ، عند نهاية طريق وادى الحمامات ومجـاوراتها ، هى صفته كحام للقوافل ورب الطرق الصحراوية ، قد قـربت بين عبادته وبين عبادة القمر ، وهى نفس الصفـة التى قامت على أساس عبادة آلهة

---

(٥٦) محمد بيومى مهران : العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة ص ٢٩٧ ـ ٣٠٤ ، الحضارة العربية القديمة ص ٣٣٦ ـ ٣٤٣ .
H. Cauthier, BIFAO, II, P. 99, 142, 144, 198, 299, X. P. 106-107.

القمر على الجانب الاسيوى للبحر الاحمر(٥٧) •

ولعل من الاهمية بمكان أن نشير الى أن الاله مين انما يعد من أقدم الالهة المصرية ، فقد عثر «بترى» على تماثيل له ترجع الى نهاية عصر حضارة جرزة ، وربما الى الاسرة الاولى ، وهى تحمل رسوما محفورة على جوانبها ، تتضمن أسماك وأصداف البحر الاحمر ، وتعتبر أقدم تماثيل لمعبود مصرى ، كما يعد الاله مين كذلك من بين الالهة القلائل التى ظهرت فى عصر التأسيس فى صورة بشرية ، هذا ورغم أن الاله مين فى العصور المبكرة اله سماوى ، ومن ثم فقد لقب «سيد السماء»، وقد وحد حتى عصر الدولة الوسطى مع الاله الصقر حور الكبير ، فان الاله مين انما يعتبر الها للاخصاب فى المقام الاول ، وقد عبده الرجال كمانح للقوة الجنسية ، وصور فى هيئة رجل يلبس رداء ضيقا ، ويرفع أحد دراعيه الى أعلى ، لتحمل احدى شارات الملكية ، بينما تختفى يده الاخرى تحت ردائه لتمسك بعضوه المنتصب ، ويلبس فوق رأسه تاجا له ريشتان مثل تاج آمون ، وقد مثل مين ، كاله للمطر ، القوة التناسلية، فى الطبيعة ، وبصفة خاصة نحو القمح ، وظهر الفرعون فى احدى احتفالات مين ، وهو يضرب الارض بفأسه ، بينما يرنو اليه مين بناظريه ، وفى عيد حصاد مين الذى كان يحتفل به فى بداية موسم الحصاد ، يشاهد الفرعون وهو يقوم بطقس حصاد القمح ، ومن ثم فقد ظهر فى عهد الدولة الحديثة متصدرا عيد الحصاد فى شكل حيوانه المقدس ، وهو ثور أبيض ، يأكل نباته المفضل «الخس» والذى كان القوم يعتقدون أنه مهيج للقوة الجنسية •

هذا وقد وحد القوم فى عصر الدولة الحديثة بين مين وكاموتف

(٥٧) ديتلف نلس : التاريخ العربى القديم ص ١٨٩ ، ٢٠٦ ، سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ص ١٩٤ ، عبد المنعم عبد الحليم : دراسة تاريخية للصلات والمؤثرات الحضارية بين حضارة مصر الفرعونية وحضارات البحر الاحمر ، الاسكندرية ١٩٧٣ ص ٢٥١ ــ ٢٥٦ • ثم قارن فرانسو دوما : آلهة مصر ص ٥٢ ، ٦٢ •

(الملقب بثور أمه) وأدمجوهما فى اله واحد عرف باسم «مين ــ كاموتف» وأصبحت كلمة «كاموتف» وحدهــا تطلق على مين نفسه ، وادمجوا أيضا فى الاله «أمون رع» معبودا آخر هو «آمون رع ــ كاموتف» حتى تسبغ على آمون صفة ذاتية الخلق ، بل ان هناك من يرى أن أمون انما يمثل مين ، وأنه تفرع منه منذ الاسرة الخامسة ، ومن ثم فقد بدأ آمون يحمل صفــات مين ، فهو مثله يحتفــل به لانه يحمل ريشتين عاليتين ، وهو مثله يحمى طرق الصحراء ، رغم أن طيبة لم تكن أبدا واقعة على الطرق المؤدية الى البحر الاحمر •

هذا ورغم ارتباط مين بالخصب ، فقد عرف ، كما أشرنا آنفا ، كسيد للصحراء الشرقية ، حيث كان الاله الحامى لطرق القوافل المتجهة الى البحر الاحمر ، والتى تبدأ من مدينة قفط (٢٢ كيلا جنوبى قنا) مارة بمناطق خطرة ، كما سمى «سيد البلاد الاجنبية» ومن ثم فقد أصبح حاميا للبدو الرحل والصيادين ، هذا وقد عبد مين فى المنطقة التى تقع فيما بين أرمنت وطيبة ، وفيما بين قفط وأخميم ، وان كان مركز عبادته الرئيسى فى قفط وأخميم ، ومع ذلك فقد عبد فى كل المناطق التى يقترب فيها النيل من البحر الاحمر فى الصعيد ، حيث كانت طــرق القوافل تخترقها الى البلاد الشرقية والى المناطق الجنوبية ، وكان لزاما على كل من يود أن يخترق هذه الطرق أن يتعبد للاله مين قبــل أن ينزل قفط ، لكى يحميه من القبائل المتبررة التى كانت تجوب هذه المناطق ، وهكذا أصبح مين ربا للصحراء الشرقية ، صاحب اللازورد والكحــل والخصاب وسيد البلاد الاجنبية طرا ، تفوح منه رائحة الطيب الزكية عندما يأتى من بلاد المازوى (المجاى) وصاحب المكانة المرموقة فى بلاد النوبة ، ويذهب «دوما» الى أن ايزة قد عدت زوجة للاله مين ، كما عد حور ابنا له(٥٨) •

---

58) H. Frankfort, The Birth of Civilization in The near East, P. 110-11; F. Petrie, Koptos, Pls. III, IV, Abydos, I, Pl. III; Egyptian mothology, P. 110; J. H. Breasted, Op. Cit., P. 99, 142; W. C. Hayes, The Coptes of Decrees, JEA, 32, 1946, P. 16.
ثم انظر : فرانسو دوما : آلهة مصر ص ٥٢ ، ٦٢ •

١٠ ـ مونتـــو

كان مونتو من الصعيد ، وقد ذكر مرارا فى نصوص الاهرام ، كما صور بين آلهة مصر العليا فى معبد الملك ببى الثانى من الاسرة السادسة، وكانت أرمنت (١٥ كيلا جنوبى الاقصر) العاصمة القديمة للاقـــليم الرابع قبل طيبة ، مركزا رئيسيا لعبادته ، حيث شيد القوم له معبدا ضخما هناك ، هدمه بعض الدخلاء فى القرن التاسع عشر ، وأقاموا مكانه مصنعا للسكر ، كما عبد كذلك فى الطود والكرنك والمدامود[٥٩] ، حيث اتحد هناك مع اله آخر عرف باسم «بوخيس» ، كما عبــد فى ادفو ودندرة ، وقد أدمج مونتو مع الاله رع ، ليصبح «مونتو رع»، وقد كان يقوم على حراسة رع أثناء رحلته الليلية فى العالم الثانى ، ويصور فى هيئة رجل له رأس صقر ، يعلوه قرص الشمس وريشتان عاليتان ، ويحمى جبينه ثعبان الكوبرا ، كما كان يصور كذلك برأس ثور ويمسك فى يده أسلحة مختلفة ، وكان له زوجتان من الالهات ، هما تننت وأبونت •

هذا وقد كان مونتو من آلهة الحرب المصرية ، وقد اتخذه الملوك حاميا لهم فى حروبهم منذ عهـــد الدولة الوسطى ، ومن ثم فقـــد قاد ملوك الاسرة الحادية عشرة من المناتحة جيـــوشهم ، تحت لواء مونتو ، فى حروبهم ضـــد الاهناسيين ، والتى انتهت بطرد البـــدو الاسيويين من الدلتا ، واعـــادة توحيد البلاد ، ومن ثم فقـــد نسبوا نصرهم المظفر فى هذه الحروب الى الههم مونتو ، راعى الحرب ، الذى كان له مكانه وهيكله فى منطقة الكرنك نفسها ، فنسبوا أسماءهم اليه، وتوارثوا فيمـــا بينهم اسم «مونتو حتب» بمعنى (مونتـــو راض أو مونتو المنعم) تعبير عن وفائهم لربهم ، واعتزازا منهم بطابع الحرب

---

(٥٩) انظر عن هذه المدن : محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ١٣٥ ـ ١٣٦ ، اخناتون ص ٣٨ ـ ٣٩ ، الحضارة المصرية ـ الجزء الثانى ص ١٥٩ •

والكفاح الذى يتمثل فيه ، والذى أسسوا به دولتهم وأعادوا به الى مصر وحدتها ، بل ان مكانته ظلت حتى فى الاسرة الثانية عشرة ، التى أصبح فيها آمون الها للدولة ، ومن ثم رأينا سنوسرت الأول يقـدم أراضى النوبة التى ضمها الى مصر الى الاله مونتو ، بل ان صفـة مونتو ـ كاله حرب ـ ظلت واضحة حتى الاسرة العشرين ، كما نرى ذلك فى حروب رعمسيس الثالث ضد شعوب البحر[٦٠] •

١١ ـ حعبى

كان المصرى القديم يطلق على النيل اسم «ايترو ـ عا» أى النهر العظيم ، اما لفظة النيل فهى تصحيف للفظـة «نيلوس» التى أطلقها اليونانيون على هذا النهر ، اما النيل كاله فقـد أطلق المصريون منذ عصور ما قبل الاسرات اسم «حعبى» ولم يكن حعبى هذا هـو النهر المقدس ، وانما هو ذلك الاله والروح التى تكمن وراء هذا النهر العظيم، والتى تدفع بمياه فيضه حـاملة الخصب والنمـاء ، واعتبرت عبادته حيويه ، ورفعه عبدته أحيانا حتى فـوق رع ، وقيل انه منح الحياة المراعى التى يرعى فيها قطيع رع ، أو الجنس البشرى ، وذلك بتزويده وواحات الصحراء بالماء ، كما أمدهم بالندى من السماء ، وأطلق على حعبى والد الالهه ، فاصبح سيد الآلهة على الارض ، وسيد الخصب والخلق ، وهو الذى يمدهم بالقرابين التى تقدم لهم فى معابدهم،ومن ثم فقد غذى الانسان ، وأيد الامر الالهى ، وقد صور القوم المهم حعبى فى هيئه بشرية تجمع بين الانوثة والذكورة فى هيئة صياد السمك، يلتحى باللحية التقليدية للالهة ، وله ثديا امرأة وبطن مترهل •

ومن عجب أن هذا الاله ، رغم ما أطلق عليه من صفات وألقاب ،

60) Egyptian mythology, P. 92-93; W. F. Edgerton and J. A. Wilson, Records of Ramses, III, P. 5, 13, 38., J. H. Breasted, The Wadi Helfa Stela of Senwosrt, I, in PSBA, 23, 1901, P. 230-235.

وأنظر : جيمس بيكى : الاثار المصرية فى وادى النيل ـ القاهرة ١٩٧٢ ص ٧٢ ـ ٧٤ • وكذا

R. Mond and O. H. Myers, Temples of Armant, 2 Vols, London, 1940.

قد تبوأ منصب الخادم للالهة ، فكان يصـــور على جدران المعـــابد فى صورته هذه يقدم خيراته الى الالهة الكبرى ، وكانت ترتل له الاناشيد فى المناسبات الخاصة ، وفيها يمجد وتعدد أفضاله على مصر ، ومن ذلك : «الحمد لك يا نيل ، يا من تخرج من الارض وتأتى لتغذى مصر، أنت النور الذى يأتى من الظلام ، عندما تفيض يقدمون لك القرابين وتذبح لك الانعام ، ويقام لك حفل كبير» ، وقد أطلق القوم كثيرا من الصفات على الاله حعبى فقد كان رب الرزق العظيم ، ورب الاسماك، وخالق الكائنات،وواهب الحياة،وغير ذلك من ألقاب التمجيد والتعظيم.

هذا وكان لانتشار عقيدة أوزير وملحمته المشهورة أثر فى التوحيد بين النيل كاله وبين أوزير ، وكان من بين ما أطلقـــوا عليه من أسماء «ونن نفر» ، وهو من الاسماء المثيرة ، كما وحد القوم بين النيل وبين بعض الالهة الاخرى التى كانت لها صلة بخصوبة الارض أو المياه مثل خنوم والذى كان يدعى «رب المياه الطاهرة» ولعل السبب اعتقـــاد القوم أن النيل ينبع من وراء الشلال الاول ، من اقليم آبو ، اقليم البداية بالنسبة لارض مصر،حيث تخرج مياهه من كهفين تحت الارض فى الصخور الجرانيتية هناك ، وأما صلته بأوزير ، فلعل سببها اعتقاد القوم أن النيل يأتى من العالم السفلى ، وأن كهفيه يستمدان مياههما من نون (الماء الازلى) ، مياه العالم السفلى التى تمثل معينا لا ينضب، ومن ثم فقد آمن القوم بأن أوزير هو ماء النيل أو المصدر الذى يستمد منه النيل ماءه فيهب الحياة للكائنات والنبات ، وقيل كذلك أن حعبى هو الذى يخلق مياه النيل ،وأنأوزير هو قوة الخصب فيها ، واعتبرت المياه فى العقيدة الاوزيرية عرق يدى أوزير ، وأن دموع ايزه هى سبب الفيضان السنوى ، وأن حعبى قد ساعد فى بعث أوزير بارضاعه من صدره .

ومن عجب أن القـــوم رغم أنهم كانوا على يقـــين ، منذ الاسرة الخامسة والعشرين ، من أن أمطار السودان لها دخل فى فيضان النيل، فقد ظلوا على عقيدتهم من أنه ينبع من وراء الشلال الاول (من جزيرة

بيجه) ، وان كانت عقيدة التوحيد على أيام مؤسسها اخناتون انما نادت بان الفيضان انما يرجع الى أسباب طبيعية يسيطر عليها الاله آتون ، وهو الذى خلق كذلك نيلا آخر فى السماء (أى المطر) لغير مصر من الاوطان[٦١] ، على أن القوم اعتقدوا بأن النيل هو مصدر الحياة فى مصر وقوتها ، لم يشيدوا للاله حعبى المعابد والمحاريب،وان أقاموا الاحتفالات والاعياد التى كانت للاله أوزير أكثر منها للاله حعبى الذى كانوا يرون فيه ذلك الذى يقدم خيراته للبشر والالهة سواء بسواء ، بل رأوا فيه «أبا الالهة» و «خالق الكائنات الحية» ، ولعل لقب« المحيى» (مخصب البرارى) مناسب له بصفة خاصة ، هذا وقد كان من مظاهر حعبى كذلك أنه كان يعتبر من صور أوزير ، مما يجعل ايزه(ايسه) بالتالى امرأته وشريكته ، وربما كان من المحتمل عند تقديم القرابين أنها كانت تقدم لاوزير،اعنى «أوزير — أبيس» أو«سيرابيس» فى العصور المتأخرة ، عندما كان قدس الاقداس لهذا الاله المزدوج يسمى «سرابيوم» •

وهناك من النصوص المتاخرة ما يشير الى أن هناك عيدا سنويا كان يقام فى كل أرجاء البلاد بصورة مهيبة وعظيمة جدا ، احتفالا بفيضان النيل ، كانت تحمل فيه تماثيل اله النيل عالية فى كل المدن والقرى ، وعندما يكون الفيضان وفيرا ، فان السعادة انما تملأ قلوب القوم جميعا ، وتؤدى الصلوات للاله العظيم فى مهابة واجلال ، وفى ١٧ يونية من كل عام يحتفل القوم بما كان يسمى «ليلة النقطة» ، حيث كانوا يعتقدون أنه فى هذه الليلة تسقط نقطة معجزة من السماء فى النيل تسبب ارتفاع مياهه •

هذا وقد كان القوم ، كما ذكر آنفا ، وقد وحدوا حعبى بأوزير ، ومن ثم فان ايزة تصبح صنوا لانثى حعبى ، وان كان هناك بعض

---

(٦١) انظر :
W. Macquitty, Island of Isis, Philae, The Temple of The Nile, London, 1976.

الشك فى أن آلهات أخرى قد أصبحن فى عصور الاسرات المبكر كزو وأخوات لحعبى ، وهكذا كانت نخبت القرينة النسائية لحعبى الحـس بالجنوب ، ولكنها سرعان ما تحولت فى عصور الاسرات الى صورة من ايزة ، وفى الشمال أصبحت وادجيت الصورة المقابلة للالهة نخبت فى الجنوب ، هذا وقد اعتبر حعبى كذلك صورة من الاله نون ، التـل الازلى العظيم ، الذى انحدرت منه كل الكائنات ، وكانت «نوت» ، أو احدى صورها العديدة ، شريكته ، وتظهر أقدم صورة لهذه الالهة على أنها موت التى ذكرت فى نصوص الملك وناس ، وتبين هذه النصوص أن الملك المتوفى انما كان يعتبر صورة من حعبى اله النيـل ، ومن ثم يصبح سيدا لآلهات النيل فى الجنوب والشمال[٦٢] .

١٢ ـ خونســـو

كان الاله خونسو أو خونس يمثل فى ثالوث طيبة دور الابن لكل من آمون وموت ، وقد ظهر ارتباطه ، كاله للقمر فى طيبة ، متأخرا ، كان قد ارتبط بالفعل قبل ذلك مع اله القمر تحوت ، هذا وقد اشتق اسمه من فعل «خنس» بمعنى «يعبر» اشارة الى عبور القمـر الى السماء ، ويبدو أن خونس كان يمثل أصلا المشيمة الملكية ، ولما كان الملك من أصل مقدس ، فان كل ما يتصل بمولده فهو مقدس كذلك ، وبما أن الملك كان يوحد مع الشمس ، فان ما بعد المولد انما كان يوحد بالقمر ، وكانت المشيمة الملكية تحمل على علم كجزء من الرموز الملكية فى المناسبات الرسمية .

---

62) F. Daumas, Le Civilization De L'Egypt Pharaonique, Paris, 1965, P. 326.

Veronica Lons, Op. Cit., P. 109. وكذا

E.A.W. Budge. The Gods of The Egyptians, II, 1969, P. 46-48.

R. Pool, The Cities of Egypt, London, 1882, P. 8. وكذا

G. Maspero, Histoire des Peuples des L'Orient Classique, Paris, 1897, P. 16-19.

وانظر : الموسوعة المصرية ١ / ٢١٥ ـ ٢١٦ .

وكان يطلق على خونسو كثير من الصفات والالقاب ، فكان سيد الزمن وحاسب المواقيت والطفل وسيد السرور ومعطى النبوءات ، كما أطلق عليه كذلك سيد الصدق وصانع القدر ، وقد نال كثيرا من التكريم والتبجيل كتعويذة تحطم الارواح الشريرة ، ومن ثم فقد نسبت اليه الاساطير طرد هذه الارواح الشريرة ، وأخيرا فانه ، شأنه فى ذلك شأن والديه آمون وموت ، كان مصدر للخصب والنماء ، ومانحا التنفس للحياة ، هذا وقد وحد القوم بين خونسو - كاله للقمر ، وبين تحوت فى الاشمونين ، كما وحد فى طيبة مع شو ، كاله للسموات أو الطقس ، ومع تحوت كحاسب للزمن ، كما اندمج كذلك مع بعض الالهة الاخرى ، مثل رع وحور فى شكل «خونسو - رع» و « خونسو - حور» .

وكان يصور فى هيئة رجل تتدلى على جانب رأسه ضفيرة الشعر التى كان يرمز بها الى الطفولة ، ويلتف بعباءة ضيقة ، ويعلو رأسه الهلال وقرص القمر ، ويحمى جبينه ثعبان الكوبرا ، وكان يمكث دائما وحول عنقه عقد خاص ، وفى يديه عدد من الصولجانات الخاصة بالالهة والملوك ، وكان يصور أيضا فى هيئة رجل برأس صقر فى بعض الاحيان، وكان المركز الرئيسى لعبادته فى طيبة حيث كان له معبد فيها ، ويرجع تاريخ المعبد الحالى الى عصر رعمسيس الثالث ، ويطلق عليه «منزل خونسو فى طيبة» ، كما كانت له هياكل عدة فى أماكن مختلفة ، وبخاصة فى ادفو والاشمونين ، وفى العصر اليونانى كان يدعى «خون» أو «خنسيس» ، كما كان يقابل هرقل اليونانى[٦٣] .

١٣ - سوبك

كان سوبك يصور فى هيئة التمساح ، حيوانه المقدس ، أو فى هيئة

---

(٦٣) الموسوعة المصرية ١ / ٢٢٨ - ٢٢٩ ، جيمس بيكى : المرجع السابق ص ٣٨ - ٤٢ ، محمد عبد القادر : آثار الاقصر ص ١٦٣ - ١٧٢، وكذا Egyptian mythology, P. 103.

رجل له رأس تمساح ، وقد عبد فى مناطق متعددة حاملا نفس الاسم والشكل ، وليس من شك فى أن طبيعة نهر النيل ومجراه ، ثم تجارب رواد النهر وركابه هى التى أوحت الى المصريين تقديس هذا الحيوان، وحسبنا من ذلك الجزر المنتشرة فى مجراه ، وسرعة التيار فى بعض مناطقه ، والشواطىء الصخرية التى تعوق الملاحة ، بحيث تبدو خطرة على الملاحين ، ومنها منطقة كوم امبو وجبل السلسلة ، والجزر المنتشرة عند الجبلين وثنية النهر عند دندرة ، وجبل الطارف عند نجع حمادى وجبل أبو فودة عند أسيوط ، وهكذا أدرك أولئك الذين يعملون فى مجرى النهر من ملاحين وصيادين هول التمساح وبأسه ، والامر كذلك بالنسبة الى أولئك الذين يقفون كثيرا عند حافة النهر من نسوة يملأن جرارهن أو رعاة يسقون أنعامهم أو مزارعين يرفعون المياه بالشواديف من النهر العظيم ، أو من يغسلون ملابسهم ويغتسلون هم أنفسهم فى ماء النهر .

وكانت «ساو» (صاالحجر)[٦٤] فى الدلتا أهم مراكز عبادته هناك، حيث اعتبر فيها ابنا للالهة «نيت» ، وصور فى شكل التمساح وهى ترضعه ، كما أطلق عليه هناك فى سايس «معطى الحياة للنبات على الشاطىء» ، كما عبد كذلك فى أرض البحيرة فى الفيوم (كروكود يلوبوليس) طوال العصور الفرعونية هذا فضلا عن عبادته فى كوم أمبو، بجانب الاله حور الكبير، كزوج للالهة حتحور ، ولعله هنا فى كوم امبو[٦٥] انما يعتبر المعبود الاصلى للمدينة ، حتى أن المعبد القديم من عهد الاسرة الثامنة عشرة ، انما كان يسمى «بر ــ سوبك» (منزل سوبك) ، وان كان الالهان سوبك وحور ، قد عبدا جنبا الى جنب فى هذا المعبد ، وزود كل منهما ، حسب التقاليد المصرية ، باثنين آخرين من الالهة حتى يكون كل منهما الثالوث الخاص به ، ولقد ظفر سوبك

---

(٦٤) أنظر عن « ساو » (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ــ الجزء الثانى ص ١٧١) .

(٦٥) أنظر : (فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٣٦ــ٣٨ ، ٧٨ــ٨٢) . محيى الدين عبد اللطيف : كوم امبو ــ القاهرة ١٩٧٠ ص٢٧ ــ ٢٩ .

بنصيب الاسد ، فكان رفيقاه اثنين من أعظم آلهة القوم ، وهما حتحور وخونسو ، الذى ظهر فى صورة «خونسو — حور» ولعل السبب فى اختيار هذين المعبودين بالذات الى جانب سوبك انما هو التقليل من تأثيره السيء فى أذهان القوم هناك بسبب شهرة حتحور وخونسو الطيبة .

وأيا ما كان الامر ، فلقد أدمج سوبك فى الاله رع ، فأصبح «سوبك رع» ، شأنه فى ذلك شأن غيره من الالهة المصرية ، هذا وقد عبد سوبك كذلك فى «الجبلين» (١٨ كيلا شمالى اسنا) بصفته المعبود الاصلى كذلك ، وفى «سمن» (سمنو = كروكود يلونبوليس) وتقع فى مكان قرية الرزيقات الحالية ، على مبعدة ١٠ كيلا جنوب غرب أرمنت، وفى جبل السلسلة ودندرة والمابدة وطهطا والحيبة[٦٦] .

١٤ — حرشف

يبدو أن عبادة الاله حرشف (حرشاف) ويعنى « الذى فوق بحيرته» انما قد بدأت منذ الاسرة الاولى ، بل انها بدأت منذ عصور ما قبل التاريخ فى اهناسية المدينة ، ويقع معبده عند المدخل الموصل الى بحيرة الفيوم ، وكان يمثل فى هيئة الكبش ، وقد قرنه الاغريق بمعبودهم البطل هيرقل ، ومن هنا أخذت المدينة اسمها الذى عرفوها به «هيراقليوبوليس» ، وفى العصر الاهناسى عندما أصبحت اهناسية عاصمة للبلاد ، ربط القوم بين حرشف ورع ، ثم بينه وبين أوزير فى عهد الدولة الوسطى والحديثة ، ثم بينه وبين آمون فيما بعد ، وفى العصر اليونانى سمى «حرسافيس» ، وزعم «بلوتارك» أنه ابن الاله اليونانى «زيوس» والالهة المصرية ايزة ، وأما معبده فقد كان فى مدينته الاصلية اهناسية المدينة ، كما أقيمت له هياكل صغيرة فى غيرها من المدن[٦٧] .

---

66) S. A. mercer, The Religion of Ancient Egypt, 1949, P. 154 F.
A. Gardiner, Omon, II, P. 20 F;

67) W. B. Emery, Op. Cit., P. 123-124.
M. G. Mokhtar, Ihnasya El-Madinah, Cairo; 1957, P. 128.

١٥ ـ وب واوات

كان الاله «وب واوات» معبود أسيوط فى نظر البعض ذئبا ، وفى نظر آخرين كلبا وحشيا ، وهو أسود اللون ، يقف على أقدامه الاربعة، وكان يشبه الاله نوبيس ، وان كان يختلف عنه فى أن القوم انما كانوا يمثلونه وهو يسعى فوق أرجله ، ولم يمثلوه مطلقا قابعا كأنوبيس ، ورابضا ككثير من المعبـودات المصرية الاخـرى ، وكان اسمه يعنى «فاتح الطريق» ، مما يشير الى تصور القوم لما كان لهذا المعبود من صفات ومزايا ، فهو «المحارب» الذى يتقدم الجيوش ويمهد لها طرق النصر ، وقد استبشر به الملوك المحاربون فكانوا يصحبون معهم تمثاله مرفوعا على قائم من خشب،أثناء خروجهم للحرب،فضلا عن الاحتفالات الدينية والاعياد ، وأخيرا فقد كان «وب واوات» من بين الالهـة التى صورت على رؤوس الصولجانات واللوحات التى ترجع الى عصر ماقبيل الاسرات ، الى جانب ظهوره على كثير من طبقات الاختام التى ترجع الى عصر الاسرة الاولى[٦٨] .

١٦ ـ أنوبيس

رمز المصريون للاله أنوبيس (انبو) بكلب يربض عادة على قاعدة مرتفعة ، مائلة الجوانب الى أعلى ، أو يصورونه على هيئة آدامية لها رأس كلب أو ككلب يصحب ايزه ، واعتبروه حاميا للجبانة وربا للموتى، ومن ألقابه المعروفة «القابع على جبله» ، وسيد الارض المقدسة وسيد سقارة (راستاو = جبانة منف) ، والذى يرأس بهو الاله (مكان تحنيط جثة فرعون) ، ومن ثم فقد وصف بالمحنط ، وأنه هو الذى حنط جثة أوزير ، وكان القوم على أيام الدولة القديمة يبتهلون اليه بأن يسمح للقرابين بأن تصل الى جثته ، ونظروا اليه فى الدولة الحديثة على أنه

---

68) I.E.S. Edwards, CAH, I, Part, 2, 1971, P. 53; W.M.F. Petrie, The Royal Tombs, II, Pl. XVII, 135.

وانظر : فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٦٣ ـ ٦٤ .

ابن لأوزير ، ثم جعلوه ، مع تحوت ، مشرفا على تقديم الموتى الى محكمة العدل ، والتى كانت تحكم — تحت رياسة أوزير — على الميت بأنه من أهل الجنة أو من أصحاب السعير ، بعد وزن أعماله من حسنات وسيئات •

وفى العصور المتأخرة ، وبسبب الشبه بينه وبين الاله «وب واوات» غدا فى نظر القوم المحارب الذى يقف الى جانب فرعون ويحميه ، كما نراه فى هيكله بمعبد حتشبسوت بالدير البحرى يشترك مع خنوم فى منح الملكة الفرعون قدسية الحكم وطول البقاء ، كما نراه كذلك ممسكا بيده ما يشبه الغـربال الذى مايزال يستعمل حتى الان فى قرانا فى الاحتفال بمرور أسبوع على ولادة الطفل ، هذا وقد صور أنوبيس ، مع الاله ست ، على رؤوس الصولجانات واللوحات التى ترجع الى عصر ما قبيل الاسرات ، كما ظهر على كثير من طبعات الاختام التى ترجع الى عصر الاسرة الاولى ، كما سجل حجر بالرمو الاحتفال بعيد مولده فى عصر الاسرة الاولى كذلك •

وأما مركز عبادة أنوبيس الرئيسى فكان فى مدينة «القيس» (٥ كيلا جنوبى بنى مزار بمحـافظة المنيا) ، وقد أطـلق الاغريق عليها اسم «كينوبوليس» بمعنى مدينة الكلب، وهى «كاسا» (ساكا — ساكو) المصرية، عاصمة الاقليم السابع عشر من أقاليم الصعيد، كما عبد كذلك «ثنى»[٦٩] على مقربة من أبيدوس، ثم سرعان ماانتشرت عادته منذ العصور المبكرة فى معظم أنحاء البلاد ، وأقيمت له فيها المحاريب ، ومن أجملها ماكان بالدير البحرى ، هذا وقد ربط القوم بين أنوبيس حيوان الصحراء ، وبين الصحراء الغربية ، بيت الموتى ، ومن ثم أخذ اللقب الجنـازى للاله «خنتى امنتيو» أول الغربيين ، الذى أخذه فيما بعـد أوزير ،

---

(٦٩) انظر عن «ثنى» والاراء التى درات حـول موقعها (محمد بيومى مهران : مصر — الجزء الثانى ص ٧٤ — ٧٨ ، وكذا
A. H. Gardiner, Onom, II, P. 38, JEA, 27, 1941, P. 48.
H. Kess, Ancient Egypt, 1961, P. 231, W.B. Emery, Op. Cit., P. 54.

ويبدو أن انبو كان ، بادىء ذى بدء ، الها للموتى للفرعون فحسب ، ذلك لان القوم كانوا فى العصور السحيقة يقتلون الملك بحية سامة عند نهاية العام الثانى والعشرين للحكم ، وعندما كانت تأتى النهاية المحتومة، فان أنوبيس (وربما كاهنه) يظهر للفرعون ومعه الحية ، ورغم أن القوم قد كفوا عن هذه العادة السيئة منذ العصور المبكرة ، فقد ظل أنوبيس الاله المنذر بقدوم الموت ، وقد مثل كمحارب يحمل خنجرا أو حيـة سامة أو كوبرا •

هذا ونظرا لقدرة أنوبيس على التنبؤ بقدوم الموت فقـد ارتبط بالسحر ، وقد صور وهو يقود الالهة الاخرى التى قدمت لتكشف عن أسرار المستقبل ، وعندما وحد أنوبيس مع العقيدة الاوزيرية فى العالم الاخـر ، قيل أنه ابن تفنيس من أوزير ، وأن ايزه هى التى قـامت بتربيته ، ومن ثم يعد حارسا لها ، وعندما أستعادت ايزة جسد أوزير قدم لها أنوبيس الادوية النادرة التى ساعدت على تحنيطه ، ثم قام بأداء الطقوس الجنازية لاوزير ، والتى أصبحت فيما بعـد نموذجا يحتذى لكل طقوس الدفن ، ومع ذلك ، وطبقا لروايات آخرى ، فان جب هو الذى كان شديد الارتباط بأنوبيس وتحوت ، هذا وقـد كان لانوبيس فى العقائد المتأخرة وظائف ثلاثة هامة فقد كان مراقبا للتحنيط السليم ، وكان يستقبل المومياء عند وصولها الى المقبرة وكان يقـوم بطقس فتح الفم ، ثم هو بعد ذلك يقود الروح الى حقل السماء وهو يضع يده على المومياء ليحميها ، ثم هو الذى يقود الميت الى الميزان، بل ويتولى بنفسه ضبط هذا الميزان[٧٠] •

---

(٧٠) الموسوعة المصرية ١ / ١٢٦ ــ ١٢٧ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٧٤ ــ ٧٧ •

V. Lons, Egyptian mythology, P. 83-85; J. H. Breaseed, Op. Cit., P. 91, 10.

١٧ ـ سـوكر

كان سوكر الها لجبانة منف فى سقارة ، وقد سجلت حوليات حجر بالرمو الاحتفال بعيده فى عهد الاسرتين الاولى والثانية وقد أطلق عليه فى العصر المتأخر «ابن حور» فقد كان يصور فى شكل صقر محنط أو فى هيئة رجل له رأس صقر ، وقد وحد فى أبيدوس بأوزير ، وفى منف ببتاح ، ثم مزج بين ثلاثتهم فكان الاله «بتاح ـ سوكر ـ أوزير» ، وقد جاء اسمه فى متون الاهرام كاسم آخر لاوزير ، الذى حل محله فى العصر البطلمى ، وبخاصة فى ادفو ودندرة ، كما حل مكانه فى منف أوزير وسيرابيس،هذا وقد ارتبط سوكر فى الدولة الحديثة بالاله رع فى مدينته أون ، وعلى أى حال فلقد انتشرت عبادة سوكر أو سـكر فى مناطق كثيرة فعبد فى منف ، حيث أقيم له معبد هناك تقام فيه احتفالات خاصة به كما عبد فى أبيدوس وغيرها[٧١] .

١٨ ـ بس

يذهب بعض الباحثين الى أن الاله بس انما كان أصـله من بلاد العرب ، فلقد عثر على قطعة برنزية من الاثار السبائية محفـوظة فى متحف فيينا نشرها «أدولف جرومان» تمثل الاله بس جالسا بين تيسين وفوق رأسه طائر باسط جناحيه ، وسواء أكان ظهور هذا الاله فى مصر يرجع الى أيام الاسرة الثـانية عشرة أو الثامنة عشرة ، أو حتى الى عصر متأخر عن هذه الفترة ، فان صورة الاله بس فى اليمن من ناحية، ونسبة المصريين القدامى هـذا الاله الى بونت والى أرض الاله من ناحية أخرى ، جعل كثيرا من الباحثين يذهبون الى أن أصل هذا الاله من بلاد العرب .

---

(٧١) فرانسـوا دومـا : المرجع السـابق ص ٨٨ ، محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثانى ص ٨١ ، وكذا أدولف ارمان : المرجع السابق ص ٣٠ ، وكذا

I. E. S. Edwards, Op. Cit., P. 53.

V. Lons, Op. Cit., P. 116.

وانظر : عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها ص ٢٨٥ .

على أن هناك وجها آخر للنظر يذهب الى أن الاله بس انما قـــد جاء الى مصر فى عصر الاسرة الثانية عشرة من السودان ، وربما كان فى الاصل الها أسدا ، فقد حافظ على بعض صفات الاسد ، ولكنه مثل فى مصر عادة على هيئة قزم قبيح ، سيقانه مقوسه يرتدى جلد الاسد، وكثيرا ما صورت أذناه على هيئة أذنى الاسد وله عرفه ، ويمتد لسانه خارج فمه ، ويوحى منظره العام بالجنون ، ويبعث على الضحك ، وقد كان فى أول الامر حاميا للبيت المالك ، وكان واحدا من المعبودات التى اعتمد عليها فى ولادة حتشبسوت ، ثم سرعان ما انتشرت عبادته بين عامة القوم ، وأصبح واحدا من المعبودات الشعبية ، فقد كان جـالبا للسرور فى منازل طبقات القوم المختلفة ، وكان حاميا للاسرة،ومتصدرا لطقوس الزواج وزينة المرأة ، وصديقا حميمـا للمرأة يساعدها أثناء الولادة ويحمى الطفل الوليد ، وقد صور كثيرا وهو يرقص حول المرأة عندما تضع حملها لاول مرة •

هذا وكان بس حاميا لعبدته من حيوانات الصحراء ، وبخـاصة الثعابين ، ومن ثم فهو يظهر غالبا وهو يلتهم الثعابين ، ورغم أنه صور أحيانا فى ملابس حربية كقاتل لاعداء عبدته ، فقد كان فى الاصل الها للخير والسرور ، ولهذا نراه يرقص ويضرب على القيثارة ، رغبة فى تسلية الالهة ، ومن هنا كان للرقص والموسقى دور هام فى عبادته،هذا وقد مثل بس فى هيئة قزم له أذرع طويلة ، وساقاه قصيرتان مقوستان وله ذيل ، ويحمل وجهه ذو الانف العريض الافطس لحية كثة ، وعيناه الضخمتان كانتا نصف مغلقتين بحواجب ضخمة ، وكان له لسان طويل يمتد خارج فمه ، وأذنان بارزتان ، وأحيانا كان له قـرنان صغيران يخرجان من جبينه،وأحيانا يلبس تاجا من ريش طويل يشبه تاج ساتيس هذا وقد صور بس كثيرا على وسادة الرأس ، وبصفة خاصة تلك التى فى فراش الزوجية ، وعلى مقبض مرآة وأدوات العطور ، كما صـور كذلك على التمائم المصنوعة من عاج التماسيح ، والتى كان الغرض منها الحماية ضد حيوانات الصحراء والثعابين ، وأخيرا فقـد أصبح بس الحامى وجالب السلام للميت ، ومن ثم فقد صور على الوسادة التى

تحت رأس المومياء ، هذا وقد كانت الصورة الانثى للاله بس هى «بست» الحية قاذفة اللهب ، وان اعتقد القوم بصفة عامة أن بس قد تزوج من «تاأورت»[٧٢] .

١٩ ـ نفـــر توم

كان نفر توم الها قديما فى مصر السفلى ، وقــد اعتبر منذ عصر مبكر كابن لبتاح وسخمت فى ثالوث منف ، ويعنى اسمه «اللوتس» ، ومن ثم فقد صوره القوم على هيئة زهرة اللوتس ، ترتفع من وسطها ريشتان عاليتان ، واعتبره القوم بمثابة الزهرة التى نبتت وانبعث فوق جسد اله الحقول،كما اعتبروه بمثابة الزهرة التى يمسك بها الاله رع، ويقربها من أنفه ، كالعــادة المشهورة التى طالما مثلهـا المصريون فى مناظرها وأبرزوا فيها النبلاء والعظماء وهم يقــومون بشم الزهور ، ولعل هذا هو السبب فى أن نفرتوم عرف كاله للعطور ، هذا وقد نسب الى نفرتوم دور هام فى أساطير الخلق ، وأطلق عليه «نفر توم أتوم» أو «رع الاصغر» ، ذلك لانه فى نظرية هرموبوليس الطفل الذى يشرق من زهرة اللوتس فى بحر السكاكين المقدس ، ومن دموعه جاء الجنس البشرى[٧٣] .

٢٠ ـ خنتى امنتى

كان الاله خنتى امنتى أو خنتى امنتيو،بمعنى أول أهل الغرب ، أى الموتى ، الاله المحلى،كما كان اله الجبانة فى اقليم «تا ـــ ور»(أبيدوس وثنى) ، وطبقا لقائمة سنوسرت الاول[٧٤] فقد كان خنتى امنتيو أول

(٧٢) ادولف جرومان : التاريخ العربى القديم ص ١٦٩ .
تشرنى : الديانة المصرية القديمة ص ٩٩ ـ ١٠١ .
A. E. Budge, Op. Cit., II, P. 285; S. A. mercer, Op. Cit., P. 189.
A. Fakhry, an Archeological journey to Yemen, I, 1955, P. 135; Bahria Oasis, I, P. 166, Egyptian mythology, P. 111.

73) Ibid., P. 106.

74) P. Lacau and Chevrier, Une Chapelle de Sesostris, Ier, Le Caire, 1956.

معبود فى أبيدوس ، التى اكتسبت نصيبا من القداسة لوجود معبد هذا الاله هناك على حافة الاراضى الزراعية المؤدية اليها ، وعلى حافة الطرق المؤدية الى مقابر الملوك فيها وقد عثر «بترى» على أحجار من هذا المعبد هناك فى أبيدوس ، هذا وقد كان القوم يرمزون للاله خنتى امنتيو بحيوان ابن آوى مثل أنوبيس ، ولعل أقدم ما عرف لنا من صوره انما وجد على كسر من أوان حجرية ترجع الى عصر التأسيس، ويذهب البعض الى أن الاله أوزير قد أتى من الدلتا الى أبيدوس فى عصر الدولة القديمة ، وسرعان ما استقرت عبادته هناك بجوار خنتى امنتيو ، ثم ما لبث أن اختلط به ووحد الاثنان معا تحت اسم «أوزير — خنتى امنتى»[٧٥] .

٢١ ـ اكــــر

عبد الاله اكر منذ الاسرة الاولى ، كما تشير الى ذلك طبيعة ختم ظهر عليها هذا الاله فى مقبرة بسقارة تنسب للملك «جت» ، وقد صور أكر على هيئة مقدمتى أسد ملتصقتين كل منهما على عكس اتجاه الاخرى، ولقد افترض أن الاله «اكر» يحرس الافقين ، وكانت السماء تدخل فى فم أحد الاسدين فى المساء وتخرج من فم الاسد الاخر فى الفجر ، هذا وقد صور اكر فى الادب الدينى المتأخر على هيئة أسدين كاملين جالسين ، وقد ولى كل منهما ظهره للاخر ، وقد وضعا على أنهما يمثلان اليوم والغد[٧٦] .

٢٢ ـ انحــور

عبد الاله انحور (أنوريس عند الاغريق) فى أبيدوس فى عهد الدولة الحديثة ، وغالبا ما كان اسم أنوريس يدخل فى اعلام الجهة المجاورة، وهى نجع الدير (٤١ كيلا جنوب أخميم شرق النهر) ونجــع المشايخ

75) W. B. Emery, Op. Cit., P. 124-125.

76) W. B. Emery, Great Tmobs, II, fig. 169; W. F. Petrie The Royal Tombs, II, Pl. XVII.

(٤ كيلا جنوبى نجع الدير) ، وقد صور القوم الههم انحور على هيئة رجل تعلو رأسه اربع ريشات ويقبض على حربه ، وأما اسمه انحور (أينحرت) فمعناه «الذى يحضر البعيد» ، وربما أمكن تفسيره بانه يرمز الى الصياد الذى يجلب الصيد من بعيد ، ربما اشارة الى الاجداد الذين استقروا فى هذا الاقليم قبل العصر الحجرى الحديث ، وقامت حياتهم على الصـــيد ، وأيا ما كان الامر فرغم أن أهميه أنوريس قد قلت فى الدولة القديمة والوسطى ، فقد فز بشهرة كبـــيرة فى الدولة الحديثة رفعت من شانه وأدمجته مع الآلهة العظمى ٠

٢٣ ـ آحى

يمثل المعبود آحى ابن المعبودة حتحور ، ربة دندرة ، التى أنجبته من «حور» رب ادفو ، ويصور عادة على هيئة طفل يافع يقبض على شخشيخة يهزها ، مشتركا كموسيقى فى الطقوس الدينيه التى تؤدى لأمه ، وأما مركز عبادته الرئيسى فهو مدينة دندرة ، حيث ماتزال باقية أطلال معبده الذى شيده الملك نختنبو الاول ، من الاسرة الثلاثين ، وهو معبد المولد «ماميسى» حيث اعتاد القوم تمثيل مولد الابن المقدس وتربيته على يد مجموعة من المعبودات حتى يشب عن الطوق ٠

٢٤ ـ بوخيس

رمز المصريون لهذا المعبود بالثور ، وقد عبد فى أرمنت حيث أدمج بمعبودها الرئيسى «مونتو»وقد قام بوخيس (باخ) بدور كبير فى العصور المتأخرة عندما جمع القوم بينـه وبين «منفيس» ، ثور هليوبوليس المقدس ، ومن ثم فقد ارتبط بروابط وثيقة بعبادة رع ، هذا وقد كشف عن جبانة كبيرة غربى أرمنت خصصت لدفن الثور المقدس فى توابيت حجرية ضخمة ، وضع كل منهما فى حجرة خـاصة ، منقورة فى باطن الارض ، وقد أطلق على هذا المدفن اسم «بوخيوم» ٠

٢٥ ـ ســويد

كان سوبد ، أحد أشكال الاله حور ، اله الحدود الشرقية للدلتا ،

وكذا الارض الحمراء ، وهى الصحراوات التى تقع فيما بين النيــل والبحر الاحمر ، شمال وادى الحمامات ، وهو على أية حــال ، اله أسيوى وفــد الى مصر من الشرق ، واستقر فى شرق الدلتا كمعبود للاقليم العشرين (المقاطعة العربية) • وأما مركز عبادته الرئيسى فكان فى مدينة «بر ــ سوبد» ، وهى صفط الحنة الحالية ، الى الشرق قليلا من مدينة الزقازيق ، ثم انتشرت عبادته فى سيناء وفى الصحراء الشرقية وعلى ساحل البحر الاحمر حتى القصير جنوبا ، وقد اعتبره القوم من آلهة الحرب وحامى حدود مصر الشرقية ، ومن ثم فقد أطلق عليه لقب محطم الغزاة وسيد البلاد الاجنبية ، هذا وقد ارتبط سبد أو سوبد باسم الاله حور ، وعرف باسم «حور ــ سوبد» وكان فى هذه الصورة يمثل الشمس فى شروقها ، وقد صور فى هيئة صقر جاثم ، تعلو رأسه ريشتان عاليتان ، وكان يظهر فى هذه الصورة كرمز للاقليم ، كما كان يصور كذلك فى هيئة رجل ، له شعر ولحية أسيوية ، وتعلو رأسه نفس الريشتين ، غير أن هذا الشكل الاسيوى انما قد اختفى منــذ الاسرة العشرين[٧٧] •

(٧٧) فرانسوا دوما: آلهة مصر ص ٥٨ ، ١٠٦ ـ ١٠٧ ، محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٣٣٤ ـ ٣٣٦ الموسوعة المصرية ٨٣/١ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٦٢ ، ٢٧٨ ، وكذا جيمس بيكى : المرجع السابق ١٠/٤–١١ وكذا
H. Gauthier, Op. Cit., II, P. 51, 127,.
J. De Rouge, Op. - cit., P. 134.

المعبـــــودات المصريات

١ ـ حتحـور

لا ريب فى أن القوم قد عبدوا الالهة «حتحور» (حوت حور بمعنى مكان أو بيت حور) منذ عصر التأسيس ، حيث مثلت على قمة لوحـة الملك نعرمر الاردوازية ، وكذا حزام الملك المصـور فى نفس اللوحة ، حيث مثلت برأس انسان وأذنى بقرة ، وفى الواقع فلقد حازت حتحور شهرة واسعة منذ عصور ماقبـل الاسرات وفى عصر التأسيس كالهة للسماء ، كما كانت وقت ذاك تمثل الصورة النسائية لحور ، لاسيما وأن اسمها ، كما قلنا ، انما يعنى «بيت حور» ، هـذا وقد صورت حتحور فى الفن المصرى القديم بأشـكال تكاد لا تحصر ، ولكنها غالبا ما كانت تصور كبقرة ، أو بشكل امرأة يزين رأسها قرص الشمس بين قرنى البقرة وفى كثير من الاحـايين كانت تمثل كامرأة لها رأس بقرة تحمل قرص الشمس والقرنين.

وقد اختلطت الفكرتان الخاصتان برأس المرأة ورأس البقرة تدريجيا، حتى انتهى الامر الى أن تمثل برأس امرأة وأذنى بقرة ، وهو مظهر كانت تصور به حتحور باستمرار ، فنراه مثلا كحلية ليد المرآة اليدوية وكعنصر معمارى لتاج عمود ، وبهذا الشكل الاخير نرى هذه المعبودة ممثلة فى صالة أعمدة معبد دندرة هذا وكانت حاتحور فى عقيدة القوم مرضعة حور بن ايزة ، ثم ربة الحب والحنان والموسيقى ، فهى الهة فرحة جذلانة ، ومن ثم فهى ربة البهجة وسيد الرقص ، وربة الموسيقى وسيدة الغناء ، وربة الوثب وسيدة التيجان ، ثم صارت بعد ذلك ربة الجبانة ، ترعى الموتى وترأمهم ، وكانت صاحبة ألقاب ونعوت كثيرة ، منها الذهبية أو ربة الذهب ، وصاحبة القلادة البراقة كالسماء بنجومها، كما كانت لها تماثيل مموجة بالذهب ، حفظت بالمتحف المصرى بالقاهرة

هذا وقد اعتقد القوم أن الموطن الاصلى لمعبودتهم ، انما كان فى

الصعيد ، وانها قد عبدت فى مواطن كثيرة هناك ، مثل دندرة (٥ كيلا شمال غربى قنا عبر النهر) حيث معبدها الكبير[١] ، والذى يعد الآن من أحسن المعابد المحفوظة وأكثرها تاثيرا حيث سميت هناك «حتحور العظيمة ، سيدة دندرة وعين الشمس وسيدة السماء ، وسيدة الالهة قاطبة ، ابنة رع ، التى لا شبيه لها» ، كما عبدت حتحور فى كوم أمبو والجبلين ، وفى طيبة ، وبخاصة فى منطقة الدير البحرى ، حيث اهتم بها ملوك الأسرة الحادية عشر كثيرا ، حتى لقب «منتو حتب الثالث» بانه «محبوب حتحور ، سيدة دندرة» ، والامر كذلك بالنسبة الى ملوك الاسرة الثانية عشرة ، حتى لقب «امنمحات الثانى» بأنه «محبوب الالهة حتحور» ، كما عبدت فى «هو» (٥ كيـلا جنوبى نجـع حمادى) وفى القوصية ، وفى أطفيح (مركز الصف) حيث سميت هناك «الاولى بين البقرات» نظرا للدور الذى كانت تلعبه فى شكلها الحيوانى ، وفى منف، والى الجنوب من معبد بتاح ، عبدت حتحور ولقبت « سيدة الجميزة القبلية» ، وكان لها معبد جنوبى المدينة ، وربما معبد آخر داخل المدينة، شرقى معبد بتاح على كوم الكالة الحالية ، كما عبدت كذلك فى بونت وفى جبيل ، هذا فضلا عن عبادتها فى بلاد النوبة ، حيث شيدت لهـا الملكة حتشبسوت معبدا فى فرس (باخورس القديمة على مبعـدة ٢٥ ميلا شمال الجندل الثانى) لم يبق منه الا أساساته وبعض قطـع من حجارة مبعثرة .

هذا وقد وجد اتصال فى سيناء منذ أقدم عصور التاريخ بين حتحور (وكانت الصفة القمرية من بين صفاتها العديدة) وبين الالهة القمرية السامية التى كانت تعبد فى الكهف المقدس فى معبد سرابيط الخادم فى سيناء قبـل مجىء المصريين والتى حلت حتحـور مكانها ، ولعل عبادة حتحور فى سيناء انما كانت سببا فى اختلاف المحدثين حول العجل الذى عبده بنو اسرائيل أثناء غيـاب موسى ، عليه السـلام ، عنهم ليتلقى

---

(١) أنظر : جيمس بيكى : المرجع السابق ــ الجزء الثانى ص ١٨٩ ــ ٢٠٧ . وكذا
W. M. F. Petrie, Dendereh, London, 1900.

الوحى من ربه ، ففريق ينسبه الى عبادة الالهة حتحور ، وفريق ينسبه الى عبادة العجل أبيس ، ذلك أن «سير ليونارد وولى» انما يذهب الى أن الاسرائيليين عندما دخلوا منطقة جنوب سيناء ، حيث أقام المصريون المشتغلون بالتعدين معبداً للالهة حتحور ، ارتدوا عن الوحدانية الى العقائد التى اكتسبوها فى مصر ، وصاغوا العجل الذهبى ، تمجيـداً للالهة البقــرة ، حتحور ، والتى اصطلح على أنهـا كانت سيدة تلك البلاد •

هذا ويفترض «أوسترلى» ، طبقا لما جاء فى سفرى الخروج والملوك الاول من التوراة ، أن هذا العجل انما كان معبوداً مصريا ، وأنه الالهة حتحور ، وأن هناك تمثالا بمتحف القاهرة لهذه الالهة البقرة من عهد أمنحتب الثانى ، وقد غطى الرأس والعنق والقرنان فى الاصل بالذهب، وأن العجل الذهبى قد وصف فى مكان آخر ، وكأنه الالهة ذات القلادة المضيئة ، مثل السماء بنجومها ، وتدعى الواحدة الذهبية أو ذهب الالهة، مما يفسر لنا تسمية العجل «بالذهبى» ، وقد وجدت صورة هذه الالهة فى بيسان وجازر وأريحـا ، وأن الالهة «عشتار» تمثل أحيانا بلباس الرأس الخاص بحتحور ، ولهذا كله نستطيع أن نوحد العجل الذهبى بالالهة المصرية حتحور ، هذا فضلا عن أن من صفات حتحور أنها كانت تدعى ربة الحب والالهة المرحة والطروب ، ومن ثم فقد كانوا يسمونها «الذهبية» وقد دعاها اليونان «افروديت» ، ومن ثم فقد كانت النسوة يخدمنها ويحتفلن بها ، باقامة حفــلات الرقص والغناء واللعب على الصاجات والشخشيخة بقلائدهن وضرب الدفوف •

على أن فريقا آخر يذهب الى أن العجل الذهبى انما كان ذكراً ، وليس أنثى ، ومن هنا فان هذا الفريق يشك كثيرا فى أن الاسرائيليين قد صاغوا العجل الذهبى تمجيدا لحتحور •

وانطلاقا من هذا فان الرأى عندى أن عجل الذهب الذى عبده بنو اسرائيل انما كان تقليداً لعبادة العجل المقدس فى مصر ، وليس تقليدا

لعبادة حتحور ، صحيح أن بعض العلماء نادى بأن المعبود انما كان بقرة ، ولكن الذى يلزمنا هنا كلام الله عز وجل فى الذكر الحكيم وليس مادرج الباحثون أن يقدموا ، فانما هو اجتهاد وفوق كل ذى علم عليم، وصدق الله العظيم ، حيث يقـول «ولقد جـاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون» ، ويقول «فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار ، فقال هذا الهكم واله موسى» •

هذا وقد صور المصريون حتحور كذلك ، على أنها الهة حرب،وربما بسبب تسميتها عين الشمس التى تحارب أعداء رع[٢] ، هذا فضلا عن أنها كالهة مقربة الى قلوب النساء كان لزاما عليها أن تصبح أما ذات طفل ، فأعطوها ولدا هو «أيحى» أو «آحى» الذى يجلس فى حجرها ، ولعل ذلك تشبها بحور الطفل ابن ايزه ، ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن ايحى لم يتمتع مطلقا بتلك الشهـرة الشعبية التى تمتع بها حور الطفل ، ومع ذلك فقد مكنت حتحور (حاتحور) من أن تعوض هـذا النقص عند القوم بأن أصبح لها منذ الدولة الحديثة عدة أبناء انتشرت شهرتهم بين طبقـات الشعب فى العصور المتأخـرة ، وأعنى بذلك «الحتحورات السبع» اللاتى كن مثل ايحى يدخلن السرور على قلب حتحور الكبيرة بالموسيقى والرقص واللاتى كن يحمين الانسان ويتنبأن بمستقبل كل مولود جديد ، فضلا عن رعاية كل أم أثناء حملها وعندما تضع هذا الحمل ، وهناك ما يشير الى أن هناك عبادة هامة كانت تقام فى دندرة لحتحور ، وتذهب أثناءها فى مواكب فخمة على صفحة النيل لزيارة زوجها الاله حور فى ادفو وكانت كلما مرت بمعبد من المعابد فيما بين دندرة وادفو،خرجت مواكب الالهة فى سفن لتحيتها عند مرورها •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى اختلاف القوم فى وضع

---

(٢) انظر : أسطورة هلاك البشرية (محمد بيومى مهران : الاداب والعلوم ص ٤٣ ـ ٤٩ ـ الاسكندرية ١٩٨٩ م ، وكذا
J. Wilson, ANET, P. 10-11, A. Erman, LAE, P. 47-49, M. Lichtheim, Op. Cit., P. 197-199.

حتحور هذه ، فهى مرة أما للاله حور ، وأخرى زوجة له أو لغيره من الالهة ، ففى كوم امبو مثلا انما كانت زوجة للاله سوبك ، وفى دندرة زوجا للاله حور الكبير ، وأما للاله ايحى ، وهى فى ادفو زوجا لحور ادفو (أحد أشكال حور الكبير) ، وكان يحتفل بزواجها المقدس سنويا، ذلك عندما يحمل تمثالها من دندرة الى مقصورة حور فى ادفو ، وكان ثمرة زواجهما هو حور الكبير .

هذا ويظن أن حتحور قد أرضعت الفرعــون ، كما أرضعت امام ملوك مصر حور ، ومن ثم فقد وحدت الملكة مع حتحــور ، ثم غدت رمزا السماء التى تظل الطبيعة برحمتهــا ، وهى لا ترحم أهل الدنيا فحسب ، وانما ترحم الصائرين منهم الى عالم الاخرة تأخذ بيدهم عند أبواب الغيب فتهديهم فيه ، وتصب ماء الرحمة لمن يظمأ منهم اليه ، وعندما انتشرت العقائد الاوزيرية تغير دورها نوعا ما ، ونظرا لشيوع شعبيتها فقد تحولت الى عقائد جديدة ، ومن ثم فقد مثلت كســيدة لشجرة الجميز ، وقد بزغ قرنيها من الشجرة التى تنمو على شاطىء النهر ، وربما كانت الجميزة هذه تنتمى الى التقليد الذى يقول أن جسد أوزير عندما وصل الى شاطىء بيبلوس فى فينيقيا ، أحاطت به شجرة جميز ونمت حوله ، ومثلت حتحور كذلك كبقرة ترضع الفرعون الميت، وكذا أرواح الموتى الاخرين ، اما فى هيئة امرأة أو بقرة ، ومن ثم فقد ساعدتهم أثناء تحنيطهم وفى الوصول الى عالم أوزير ، وفى العصور المتأخرة عندما أصبح يطــلق على المتوفى ، أوزير ، أصبح يطلق على النساء الموتى حتحور[٣] .

---

(٣) فرانسو دوما : آلهة مصر ص ٥٣ ــ ٥٨ .

محمد بيومى مهران : اسرائيل ــ الكتاب الاول ــ التاريخ ص ٤٦٤ ــ ٤٧٧ .

Veronica Lons, Op. Cit., P. 78-83; L. Woolley, The Biginnings of Civilization, P. 514; H. Frankfort, kingship and The Gods, P. 10; A. Gardiner, A, Peet and J. Cerny, The Incriptions of sina, II, 1955, P. 41 Urk. I, 247.

H. Kees, Das alte Agypten, P. 88.

W. Emery, Op. Cit., P. 124.

٢ ـ نيت

ترجع عبادة نيت ، الهة الصعيد القـديمة ، فى «ساو» الى عصر ماقبل الاسرات،وتشير رموزها التى تتكون من ترس ورمحين متقاطعين الى أنها انما كانت تشبه آلهة الحرب ، كمـا أن ارتداءها تاج الدلتا الاحمر ، ربما يشير الى أنها كانت تحالف مصر السفلى ، هـذا وقد اتخذت نيت منذ العصور المبكرة لقب الالهة الكبيرة وأم الالهة ، ومن ثم فقد دعيت أحيانا ابنة رع ، وان قيل احيانا أخرى أنها ولدت رع، ولهذا أطلق عليها «أم رع» ، ومن ثم فهى أحيـانا تمثل الام البقرة العظيمة التى تلد رع يوميا ، واعتبرت فى العصور المتأخرة أما للالهة، سوبك وايزة وحور ، وكذا أوزير الذى زعموا أنه دفن فى سايس .

وفى الاسرة الثلاثين ادعى «نختنبو الثانى» أنها أمه ، وقد عثر على نقش مكتوب فى عناية ودقة فى مدينة نقراطيس يسجل فرض ضريبة ١٠٪ على الواردات الى هذه المدينة ، وعلى البضائع التى تصنع فيها، على أن يخصص ايراد هذه الضريبة للالهة نيت فى سايس ، ومجمل القول أن القوم وقت ذاك قد اعتبروا نيت كأم للكون وحامية للبشر والالهة ، كما أنها كانت ، كالهـة خالقة ، زوجـة للاله خنوم معبود اليفانتين ، ومن عجب أنهـا فى العصور المتأخرة عبـدت من النساء كحتحور ، فقمن على خدمتها وسمين بأسمائها .

هذا وقد عبدت نيت فى منف ، وكان لها هناك معبد شمال الجدار، فى مقابل معبد بتاح جنوب الجدار ، منذ أيام الدولة القديمة على الاقل ومن ثم فقد لقبت «الكائنة شمالى جداره» ، غـير أن مركز عبادتها الرئيسى انما كان فى «ساو» (سايس = صا الحجر ، على مبعدة ٧ كيلا شمالى غرب بسيون) ، حيث يوجـد معبدها الذى عرف باسم «بيت النحلة» ، وكان يرمز اليها ، كما أشرنا آنفـا ، تيرس وسهام متقاطعة ، ولعل ذلك انما يشير الى طبيعتها كالهة صيد وحرب ، ومن ثم فقد حملت لقب «التى تمهد الطريق» مما يشير الى أنها كانت تتقدم

الملوك فى المعارك الحربية ، كما كانت كذلك الهة الفيضان التى تسكن شواطىء النيل ، حين ترقد التماسيح على شواطئه الغرينية ، وكانت عبادتها من العبادات الرئيسية فى مصر السفلى عند نهاية عصر ما قبل الاسرات ، كما ورد اسمها على فخار من نقادة من نفس العصر .

هذا وقد نظر ملوك الاسرة الاولى اليها نظرة احترام وتبجيل ، ومن ثم فقد اتخذوا تاجها رمزا للدلتا ، كما اتخذوا كذلك لقب «الذى ينتمى الى النحلة» ، هذا فضلا عن وجود اسمها كجزء من أسماء بعض الملكات اللاتى وصلتنا أسماءهن واللاتى اتخذ منهن ملوك الاسرة الاولى زوجات لهم ، وأولى هؤلاء الملكات «نيت حتب» زوج الملك نعرمر ، وصاحبة المقبرة المشهورة فى نقادة ، وربما كانت الاميرة الشمالية الممثلة فى مواجهة الملك نعرمر فى نقوش رأس مقمعته ، ولعل هذا هو السبب الذى دعاه الى تشييد معبد للالهة نيت ، وهو أقدم معبد لدينا عنه معلومات مباشرة من بطاقة من أبيدوس تنسب لهذا الملك (حور عحا)، وأما الملكتان الاخريان فهما «حرنيت» زوج الملك جر ، و «مريت نيت» (محبوبة نيت) المشهورة ، ذات المقبرتين ، الواحدة فى أبيدوس ، والاخرى فى سقارة ، مما دعا البعض الى الزعم بأنها خليفة جر ، وثالثة ملوك الاسرة الاولى .

وكما أشرنا من قبل ، فلقد اعتبرت نيت منذ الدولة القديمة ابنة للاله رع ، وان أطلق عليها فيما بعد «أم رع» ، وقامت بدور هام فى المعتقدات الجنازية منذ متون الاهرام ، وأما فى عصر الدولة الحديثة فقد كانت نيت تقوم ، بالتعاون مع ايزة ونفتيس وسرقت ، بحراسة الميت وأحشائه وان بلغت ذروة قوتها فى العصر الصاوى ، حيث شيد لها ملوك الاسرة السادسة والعشرين المعابد الضخمة فى سايس ، فضلا تلك القاصير التى أقيمت من أجل معبودة سايس العظيمة[٤] .

---

(٤) فرانسو دوما : آلهة مصر ص ٩٥ ــ ٩٩ .

J. H. Breasted, ARE, I, 97, 118, 123; I.E.S. Edwards, Op. Cit., P. 53; W. B. Emery, Op. Cit., P. 125; V. Lons, Op. Cit., P. 103-105. L. D, II, 46.

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 375.

٣ ـ ايـــزة

يذهب بعض الباحثين الى أن ايزة (ايسة أو است) ، بمعنى كرسى العرش ، انما كان أصلها فى الدلتا ، وربما ظهرت فى أول الامر كمعبودة محلية بمدينة «بر ــ حبت» (بيت الاعياد) ، والتى أطلق عليها الاغريق ايسيتوم (ايزيوم) عاصمة الاقليم الثانى عشر ، وهى بهبيت الحجـر الحالية (٩ كيلا شمال غرب سمنود) ، ويبدو أنها كانت الهة سماوية، ثم فقدت طابعها هذا منذ أن ورد ذكرها فى قصة أوزير ، واحتفظت بصفتها كزوجة لأوزير ، وأما لحور ، ثم سرعان ما اشتهرت بصفاتها المتعددة التى ترمز للاخلاص العظيم للزوج والرعاية الكاملة للابن ، ومن ثم فقد أصبحت فى نظر القوم المثل الاعلى للام الحنون،والزوجة الوفية ، ونظرا لالتجائها الى السحر للعثور على جثة زوجها الشهيد ، واعادة الحياة اليه ، فضلا عن الدفاع عن ابنها ، والاصرار على توليته عرش مصر ، كوريث لابيه أوزير ، فقد اشتهرت بلقبها «العظيمة فى أعمال السحر» ، هذا وتشير الاساطير الى أنها ولدت فى أيام النسىء ــ شأنها فى ذلك شأن أوزير وست ونفتيس وحور ــ وقد أنجبت حور اما عندما كانا مايزالان فى الرحم ، واما بعد موت أوزير[٥] .

وهناك ما يشير الى وجودهما منذ عصور ما قبل الاسرات ، وقد عثر على اسمها من عصر التأسيس على ختم من أبيدوس ، كما عثر فى حلوان على قطعة عاجية تمثل رمز الالهة ايزة على هيئـة يد ملعقة ، فضلا عن قطعة أخرى عاجية ربما كانت غطاء لصندوق صغير ، وقد حلى الغطاء برسمين بارزين لرمز ايزة وتحتها العلامة «حتب» ، وقد زادت أهمية ايزة فى العصور المتأخرة ، ثم سرعان ما بدأ القوم ، فيما قبيل العصر الاغريقى ، يخلطون بين الالهة المصرية وبين بعضها الاخر،

---

(٥) انظر : محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية ـ الاداب والعلوم ص ٢٢ ــ ٢٤ ، ٢٩ ــ ٣٣ ، وكذا

J. Vandier, Op. Cit., P. 45-47.
H. Frankfort, Op. Cit., P. 38-41.
A. H. Gardiner, LES, P. 37-60.

ومن ثم فقد خلطوا بين ايزه وبين حتحور وغيرها من الالهات ، ومن ثم فقد أصبحت ايزة شخصية مبهمة ، حتى يمكن أن يقال أنها غـدت الالهة بصفة عامة ، وقد سميت فعلا فى احدى المرات «الجوهر الجميل للالهة جميعا» ، وفى نشيد من العصر الرومانى أصبحت تعرف بصفة عامة الهة كل مدينة ، أو أصبح على كل من الالهات نيتوباستت وبوتو وغيرهن أن تقنع بأن تصير ايزة ، هذا وقد ظهرت فى العصور الفرعونية المتاخرة من قبل روايات تذهب الى أن احد أجزاء جسم أوزير قد دفن فى جزيرة «بيجة» ، على مقربة من فيلة ، ثم سرعان ما أخذت عقيدة ايزة تظهر فى المنطقة على أنها الالهة الشافية لكثـير من الامراض ، وذات القدرة العجيبة فى السحر ، ومن ثم فقد بنى لها الملك «نختنبو» من الاسرة الثلاثين مقصورة فى الجزيرة •

هذا وقد استمرت عبادة ايزة طـوال معظم العصور الفرعونية ، وخاصة فى جزيرة فيلة ، حيث ظلت تعبد هناك حتى القـرن السادس الميلادى ، وقد تغيرت هيئتها ، كما حدث لاوزير ، كما استمرت موقرة مثله فى شكلها الجديد ، ومن ثم فقد أصبحت كذلك الهة للخصب،بينما كان أوزير يمثل فيضان النيل ، ورمزت ايزة الى الثراء فى أرض مصر التى قامت بحمايتها من ست (الصحراء) وبصفتها الالهة الام ، فقـد اكتسبت صفات حتحور ونوت ، ومع ذلك فقد كان يشار اليها ، بصفة أساسية ، على أنها الزوجة المخلصة والنائحة ، ومثلت غالبا فى هـذا الدور على هيئة حدأة تصحبها نفتيس ، وكحداة واثنين معها يلاحظان الاوانى الكانوبية أو على هيئة حدأة جاثمة على نهايتى التابوت ، وفى عصور أخرى شوهدت كحامية للمتوفى (أوزير ، أو غـيره قد اندمج معه) بأجنحة ذات ريش طويل ، ومثلت غالبا فى هيئة امرأة على رأسها كرسى العرش ، وهى العـلامة الهيروغليفية التى تعنى اسمها ، وفى أحيان أخرى كان غطاء رأسها قرص الشمس الذى يحيط به قـرنى البقرة ، وقد أتى ذلك من توحيدها مع حتحور ، وشوهدت أحيانا برأس بقرة ، وهى الرأس التى أعطاها اياها تحوت ، عندما ضرب حور رأسها عقابا لها على اعتراضها على انتقامه من ست ، هذا وقد شوهدت ايزة

فى بعض الاحايين كامرأة على رأسها هــلال القمر ، أو لها قرنان من زهور اللوتس وأذنى بقرة ، أو تحمل نباتا قرنيا ، هذا وقد أشير اليها، فى تماثيلها التى تظهر فيها وهى ترضع الطفل حور ، على أنها حامية الطفل ، وخاصة من المرض ، وكان رمزها المميز هو الحزام أو عقــدة ايزة ، التى اعتقد القوم أنها تمثل قوة الخلق •

هذا وقد تمتعت ايزة فى عصر البطالمة بمكانة فاقت ما كان لآلهات مصر الاخرى ونستدل على ذلك من كثرة الاشارة اليها فى النصوص الهيروغليفية ، ومن انتشار معابدها فى جميع أنحاء البلاد ، ومن تقديم كافة الطبقات القرابين والهبات لها ، هذا وقد كان الاغريق يشبهون ايزة بديمتر ، وفى عهد البطالمة شبهت ايزة بالالهات افروديت وهيرا وأثينا ، ومن ثم فان الملكة «ارسنيوى الثانية» ، زوج بطليموس الثانى، التى شبهت بافروديت ، قد تشبهت كذلك بايزة ، كما أن الكثيرات من ملكات وأميرات البطالمة قد تشبهن بايزة (ايزيس) ، وصورن فى شكلها بطراز اغريقى ، الامر الذى ساعد على انتشار عبادة ايزة بين الاغريق حتى اذا ما كنا فى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ، كانت ايزة قد احتلت مكانة بارزة بين الاغريق •

وأما مركز عبادة ايزة الرئيسى فى عهد البطالمة فهو جزيرة فيلة[6] (أنس الوجود ، جنوبى أسوان) ، حيث شيد لها وللالهة المتصــلة بها معبدا عظيما ، هذا الى جانب عدة معابد فى الاسكندرية ومجاوراتها ، فضلا عن فيلادلفيا ، ثم سرعان ما انتشرت عبادة ايزة فى حــوض البحر المتوسط ، حتى شبهها الاغريق بكل الهة أخــرى ، وبكل سيدة رفعت الى مصاف الالهة ، واعتبروها «سيدة الجميــع ، البصيرة ، القهارة ، ملكة العالم المأهول ، نجم البحر وتاج الحياة ، مانحة القانون، المنقذة ، منبع الرشاقة والجمال مصدر الحظ والثراء ، رمز الصدق

6) W. Macquitty, Island of Isis, Philae Temple of The Nile, London, 1976.

والحب» ، لانها وهبت العالم فنون الحضارة ، ووضعتها تحت رعايتها.

هذا وقد كانت ايزة ، بوصفها الهة ثغر الاسكندرية ، قد أصبحت حامية الملاحة ، ومن ثم فقد أصبحت تمثل ومعها الدفة ، وبوق الوفرة وعليها رداء يكاد يشبه طراز أردية النساء من الدولة الحديثة ، ذو طيات كثيرة ، وعقدة على الصدر ، ثم سرعان ما انتشرت عبادتها فى أوربا حتى وصلت الى انجلترا ، عندما اعتبرت كذلك حامية للبحارة ، فعملوا على نشر عبادتها فى كل مكان وصلوا اليه[٧] .

٤ ـ نخبت

كانت الالهة نخبت (نخابة) واحدة من الالهات التى كان لها دور كبير قبل عصر التأسيس ، واستمرت كذلك بعد توحيد القطرين ، ولما امتد سلطان «نخن» (البصيلية مركز ادفو) على الصعيد كله ، أصبحت الالهة الحارسة لمصر العليا كلها ، ولقبت «بيضاء نخن» ، ثم اعتبرها ملوك التوحيد راعيتهم وحاميتهم ، ثم سرعان ما أسهمت مع الكوبر (ادجو) من بوتو فى الدلتا فى شرف منح الملك لقبه المعـروف ، لقب السيدتين أو الربتين ، وهو واحد من ألقاب الملك الفرعون الخمسة ، وكانت نخبت فى عصر التأسيس (الاسرة الاولى والثانية) تصور دائما ببساطة فى شكل رخمة ، وفى العصور التالية غالبا ما صورت فى شكل امرأة برأس رخمة ، هذا وقد اعتبرت نخبت فى الاساطير ابنة للاله رع وزوجة للاله خنتى امنتيو ، وفى العصر اليونانى اعتبرها اليونان آلهتهم «اليثيا» وأطلقوا على بلدة «نخب» ــ وتقع على الضفة الشرقية للنيل، وعلى مبعدة ١٩ كيلا شمال ادفو ، فى مقابل نخن عبر النهر ــ الاسم

7) F. Petrie, the Royal Tomps, II, P. 53; Z. Saad, Royal Excavations at Saqqara and Helwan, 1947, P. 27; E. A. Budge, Op. Cit., P. 202-240; W. Macquitty, Island of Isis, London, 1976; Veronica Lons. Op. Cit., P. 58-63.

وكذا

R. E. Witt, Isis in The Graeco-Roman World, London, 1971.

اليونانى «اليثياسبوليس»[8] •

٥ ـ وادجيت

عبدت الالهة وادجيت فى الاقليم السادس من أقاليم الدلتا ، حيث كانت مدينة «دب» (بوتو) ، على مبعدة ١٢ كيلا من دسوق مركزا رئيسيا لعبادتها ، وقد رمز القوم لها بثعبان الكوبرا ، وكانت وادجيت (ادجو ـ واجه) بمعنى الخضراء تقوم بحماية الملك بصفته مسيطرا على الدلتا ، كما كانت نخبت تقوم بنفس الدور فى الصعيد ، وقد انتسب الملوك الى هاتين الالهتين ، وظهر ذلك فى الاسم النبتى الذى اتخذه الملوك فى عصر التأسيس •

٦ ـ سشات

كانت سشات عند القوم الهة الكتابة وربة دور الكتب والوثائق ، والهة العمارة ، وكانت تقوم بوظائف زوجها الاله تحوت وكان من وظائفها تسجيل سنى حكم الملك وأعماله ، فضلا عن تسجيل اسمه على الشجرة المقدسة (شجرة السماء) فى أون ، وكذا أعمال البشر والالهة، ومن ثم فقد سميت «سيدة الكتب» ، كما كانت سشات تساعد الملك فى تحديد مساحات المعابد عند انشائها ، وكانت سشات بصفة رئيسية معبودة ملكية تنسب الى الفرعون وحده ، ومن هنا فقد كانت وحدها هى التى تقوم ، مع الفرعون ، بمد الحبل لتحديد أبعاد المعبد الخارجية عند انشائه ، هذا وقد كان الاسم سشات من ألقاب الالهة نفتيس ، الا أنه قد انفصل عنها ليصبح شخصية قائمة بذاتها ، وقد صور القوم سشات بشكل عام كامرأة ترتدى زهرة أو رمز النجم على رأسها مع الحية التى تربطها بالملكية ، وهى تلبس جلد نمر ، وتمسك باحدى يديها

---

8) W. B. Emery, Op. Cit., P. 125 A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 402.
وانظر : (محمد بيومى مهران : مصر ٢/٧٢ ـ الاسكندرية ١٩٨٨ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٣٩ ـ ٤٠) •

قلما ، وبالاخرى محبرة أو جريدة نخيل ، لتسجل عليها عدد السنين، وكان من ألقابها «ذات القرون السبعة» (سفخت — عبو) الذى أصبح من أسمائها التى تطلق عليها[9] •

٧ ـ سخمت

كانت سخمت أشهر الالهات اللاتى صورن على هيئة سيدات لهن رؤوس لبوات ، وكانت فى منف زوجة للاله بتاح وأما للاله نفرتوم ، وكان مركز عبادتها الرئيسى فى منف ، الى جانب مركز آخر فى «أوسيم» (١٣ كيلا شمال غرب القاهرة) عاصمة الاقليم الثانى من أقاليم الدلتا، وفى الواقع ، فلقد جاء اقترانها ببتاح ، الاله الخالق ، بسبب القرب الجغرافى لمركز عبادتها ، أكثر من أنها قد شاركت زوجها وظائفه ، وكان دورها ينلخص فى الدفاع عن الاوامر الملكية والحفــاظ عليها ، وليس خلقها وتربط الاساطير الدينية بينها وبين أبيها رع أكثر من الربط بينها وبين زوجها بتاح •

هذا وقد لقبت سخمت بالمقتدرة أو القادرة ، وكانت الهة حــرب شرسة ، تصب الدماء على أعداء رع ، وقد اعتبرت عين رع ، وتمثل الحرارة والقوة المؤثرة للشمس ، وكما نعرف فان حتحور قد اتخذت شكل سخمت فى أسطورة هلاك الجنس البشرى[10] ، ولم تتحكم فى

---

(٩) الموسوعة المصرية ١ / ٢٧١ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٣٩ ـ ٤٠ ، ٩٥ •

V. Lons, Egyptian mythology, P. 87;
W. B. Emery, Op. Cit., P. 126-127.

(١٠) أنظر :

M. Lichtheim, Op. Cit., P. 197-199.
A. Erman, Op. Cit., P. 47-9.
Ch. Maystre, BIFAO, 40, 1941, P. 58-73.
G. Roeder, Op. Cit., P. 141-143.
J. Wilson, ANET, P. 10-11.
A. Pinkoff, Op. Cit., P. 27-29.

غضبها حتى كادت أن تهلك الجنس البشرى ، وقد خلد القوم ذلك فى طقوس الشراب التى كانت تقام لها ، هذا وقد كانت سخمت ، شأنها فى ذلك شأن الحية ، توضع على جبين رع ، حيث كانت تحمى رأس اله الشمس وتقذف أعداءه باللهب •

هـذا ولم تقم سخمت بدور فى اللاهوت المصرى ، الا بعـد أن ارتبطت بالاله بتاح ، ولعل اسمها فى اشتقاقه اللغوى من كلمة «سخم» بمعنى «قوى» و «شديد البأس» انما يدل على مجموعة صفاتها،فكانت الهة حرب فى الدرجة الاولى ، تصاحب الملك فى غزواته ، فتنشر الرعب فى قلوب أعدائه ، كما كانت تحمى ايزة ، وهى التى فتكت باعوان ست فى الصراع بين حور وست ، وهى التى تتغلب على الثعبان أبو فيس، هذا وقورن بين ست وبين عدد من الالهات مثل باستت وبوتو (وادجيت) وحتحور ، كما أنها شاركت ايزة فى لقبها «عظيمة السحر» •

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن القوم كثيرا ما كانوا يخلطون بين الالهة سخمت والالهة باستت ، وذلك لان الفن المصرى القـديم لم يكن يميز بوضوح بين رأس القطـة ورأس الاسـد ، رغم أن صفات باستت انما تختلف كثيرا عن صفات سخمت ، فقد كان القوم يتحدثون عن باستت كشخص ودود ، بينما يتحدثون عن سخمت كشخص مخيف، ومن ثم فقد كانت باستت أقرب الالهة الى حتحور ، اذ اعتبرت الهة المرح ، تقوم احتفالاتها على الرقص والموسيقى ، ويصورونها على شكل آدمى برأس قطة ، تحمل بين يديها سستروم الراقصات ، وفى اليد الاخرى صورة رأس الاسد الخاص بالالهة سخمت ، وتتدلى من ذراعيها سلة صغيرة ، وهناك فى منف معبد للالهة سخمت التى وصفت بأنها «الكائنة فى الوادى الصحراوى» ، أى فى الحافة الصحراوية بين منف (انب حج) وبين جبانتها فى سقارة ، هذا وكانت سخمت تصور عادة كامرأة لها رأس لبؤة ، وترتدى قرص الشمس والحيـة ، وان صورت فى أحايين أخرى برأس على هيئة التمساح أو عين رع ، وأحيانا

كانت سخمت تظهر مثل الأله مين بيدها المرفوعه تلوح بسكين[١١] .

٨ ـ مـــوت

يذهب بعض الباحثين الى أن أصل الالهة موت انما كان من بلاد النوبة وربما من بلاد بونت ، وكانت موت (الام) الهة محلية فى طيبة منذ أقدم العصور ، حيث اعتبرت سيدة أشـــيرو Asheru فى طيبة ، والالهة الام العظيمة القادرة ، وكان اسمها فى عصور ما قبل التاريخ يعنى ببساطة «الرخمة» ، كما كانت فى الاصل الالهة انثى النسر فى طيبة ، واختلطت مع نخبت كالهة حامية لمصر العليا وفى عصر الاسرة الثامنة عشرة ، عندما ارتفع شأن آمون وذاعت شهرته ، زوجت له ، ووحدت مع زوجته القديمة أمونيت ، ثم سرعان ما مثلت على شكل ملكة تزين بالتاج الذى كان يلبسه حــكام طيبة ، وأصبحت أما للاله خونسو .

وكان الاحتفال بزواج موت من آمون واحدا من أهم الاحتفالات السنوية فى عصر الدولة الحديثة ، فكان يخرج أمون من معبده فى الكرنك ثم يبحر موكبه العظيم ليزور موت فى معبدها فى الاقصر ، وقد اتخذ هذا الاحتفال كمناسبة لاعلان قرارات وحى آمون ، هذا ورغم أن موت قد اعتبرت قرينة آمون ، فقد قيل أنها كانت ثنائية الجنس،وربما كان ذلك تبريرا لوضعها كأم لكل المخلوقات الحية ، وقد وحدت مع الالهات الاخرى ، مثل نخبت وحتحــور ، ولقبت بألقـــاب كثيرة منها «حامية الكرنك ، وســيدة الاقواس ، والساحـــرة العظيمة ، وسيدة السماء ، وعين رع ، وملكة كل الالهة» .

وكانت موت تصور فى هيئة سيدة تلبس التاج المزدوج ، كما كانت تصور فى هيئة الرخمة (أنثى النسر) ، وقد لقبت فى النصوص التى

---

(١١) محمد بيومى مهران : مصر ــ الكتاب الاول ــ التاريخ ص ٣٣١ ــ ٣٣٢ ، الموسوعة المصرية ٢٦٨/١ ، وكذا

V. Lons, Op. Cit., P. 106; Urk., I, 247.

ترجع الى عصور متأخرة بلقب أم الشمس التى تشرق منها ، أما الدور العادى الذى كانت تلعبه موت ، فقد كان مماثلا لدور «سخمت» الهة الحرب ، ومن هنـــا أصبحت موت ترسم براس الأســـد ، وأما مركز عبادتها فقد كان فى طيبة (حيث كونت ، بصفتها الالهة الام ، وأمون الاب ، وخونسو الابن ، ثالوث طيبة المشهور) ، وان عبدت كذلك فى ديوسبوليس بارفا (هو = على مبعدة ٥ كيلا جنوب نجع حمادى) ، وفى نباتا بالنوبة[١٢] .

٩ ـ ماعت

كانت ماعت أو معات الهة الصدق والعدل والمثالية ، وتمثل التوازن بين التناقض فى الحياة المصرية ، بين مصر العليا ومصر السفلى (الصعيد والدلتا) وبين الوادى الخصب والصحراء ، وكذا بين الخير والشر،ومن ثم فهى أساس الحضارة والقوة المصرية ، وفى الواقع فان «معات» أو «ماعت» انما هى كلمة مصرية تترجم أحيانا بكلمة الحق ، وأحيانا بكلمة العدل ، وأحيانا النظم وأحيانا الاستقامة ، وربما صلحت كل واحدة من هذه الترجمات فى سياق الحديث فى نص معين ، ولكن لا توجـــد كلمة واحدة منها تصلح فى كل مناسبة لتؤدى دائما المعنى المقصود ، فقد كانت كلمة ماعت صالحة للحكم الصالح أو الادارة الصالحـــة ، ولكن لايمكن ترجمتها بكلمة حكم أو ادارة أو قانون ، فان ماعت كانت الصفة اللائقة لتلك الاشياء ، عند تطبيقها ، وكان لهـــذه الكلمة نفس المرونة التى لكلمة حق أو عدل أو صدق أو شىء منتظم .

وكانت القوة الكونية للانسجام والنظام والاستقرار قد نزلت منذ خلق العالم كالصفة المنظمة للظواهر التى تم خلقها ، وكان من الضرورى أن يعاد تثبيتها عندما يتولى عرش مصر أى «ملك اله» ففى المنـــاظر المنقوشة على جدران المعابد نرى الملك يقـــدم «ماعت» كل يوم الى

12) E.A.W. Budge, Op. Cit., P. 28-32; V. Lons, Op. Cit., P. 99-103.

الالهة الاخرى ، كبرهان ملموس على أنه قائم بوظيفته الالهية بالنيابة عنهم ، كأنما كان هناك شىء لا يتغير ، أبدى عالمى ، يحيط بماعت •

هذا وقد اعتقد القوم أن ماعت قد تأسست عندما تم توحيد القطرين ، وأصبح الناس فى سلام ، وقنعوا بنصيبهم من الحياة ، وقاموا بواجباتهم على أساس أنها ذات أمر الهى ، وبدون معات فان المخلوقات لا تعيش وبالتالى تتعطل الارادة أو الرغبة الالهية ، وكان الفرعون هو المشرف على تنفيذ ماعتوتأييدها ، ومن ثم فانه عندما ينجح ، فانه يكون قد نجح فى حكم مصر ، وقدم للالهة أثمن ما يمكن تقديمه ، وهكذا فانه أحيانا يقدمها بدلا من الطعام ، حتى أن الالهة نفسها انما قد عاشت عن طريق ماعت ، هذا وقد اعتقد القوم أنها ابنة رع ، وزوج تحوت ، وأنها قد لحقت بهم فى القارب الشمسى عندما أبحروا من نون فى الزمن الاول وقبل أن يخلق ، كما أنها كانت الضوء الذى أحضره رع الى العالم ، فقد خلق العالم بوضعها فى مكان مادة الكون قبل تكوينه ، ومن ثم فقد مثلت كواحد من طاقم القارب الشمسى •

ولم تكن ماعت كائنا من لحم ودم ، وانما هى ذلك الشىء المجرد، هى الحق والحقيقة ، ومن ثم فهى من مظاهر الحضارة المصرية التى تبعث على الاهتمام ، وكان رجال القضاء يلقبون بكهنة ماعت ، وكانوا يمثلونها فى هيئة امرأة جلسة أو واقفة على رأسها ريشة نعام ، وكان كبير القضاة يضع حول عنقه تمثالا صغيرا لهذه الالهة يرمز به الى وظيفته ، غير أن تقديس القوم للالهة ماعت لم يصل بهم الى درجة تشييد معبد لها تقام فيه الطقوس وتقدم القرابين ولكنها حظيت بتقدير كبير فى أوساط المتعلمين ولا غرابة فى ذلك ، فالحقيقة هى استمرار أهم دعامة للكمال الخلقى فى عالم تسوده الفضيلة ، ومن ثم فقد قال عنها أحد الفراعين «هى خبزى ، وانى أشرب من نداها» •

هذا وقد ادعى عامة القوم أنهم فى حاجة الى سند ماعت ومعاونتها

أكثر من حاجتهم الى بقية الالهة الاخرى ، ذلك لانهـم لم ينتظروا ديمقراطية العقائد حول الحيـاة بعد الموت ليتأثروا بهـا عن طريق الفرعون والكهنة والقوانين الموجودة على الارض ، فقد دعى كل القضاة كهنتها ، ثم سرعان ما أصبحت أكثر أهمية للعامة عنـد الوقوف أمام محكمة أوزير ، فقد كانت ترشد المتوفى فى صالة المحاكمة ، كما كانت توضع هيئتها بعد ذلك فى أحد كفتى الميزان ، بينما يوضع قلب الميت فى الكفة الاخرى ، فاذا تساوت الكفتان يصبح قلب المرء عادلا ، أى «صادق الصوت» ، أو بعبارة أخرى ، فانه يوضع فى مكانه المنـاسب للامر الالهى ، وقد صورت معات فى هيئة امرأة فى القارب الشمسى أو تجلس على العرش فى صالة المحاكمة الاوزيرية ، وترتدى ريشة نعام طويلة على رأسها ، وكانت تمثل بالتنـاوب بواسـطة الريشة وحدها ، وبخاصة أثناء طقوس المحاكمة ، عندما توزن أمام قلب الميت(١٣) .

١٠ ـ باسـت

عبدت باست أو باستت فى تل بسطة «برباست = معبد باستت» فى مجاورات مدينة الزقازيق الحـالية ، على هيئة القطة منـذ أقدم العصور «ربما منذ الاسرة الثانية» ، وقد عبدت فى منف منذ الاسرة الثامنة عشرة ، بعد أن اندمجت فى معبودتها «سخمت» التى مثلها القوم على هيئة اللبؤة ، هذا وقد تحدث هيرودوت عن الاحتفالات الكبـيرة التى كانت تقام فى عيدها ، اذ كان الرجال والنساء يبحرون معها الى بوبستة «أو أرتميس ، كما دعاها الاغريق» ، ويحمل كل قارب عددا كبـيرا من الجنسين ، وكانت بعض النساء تدق على الطبـول ، بينما يرقص بعض الرجال ، على طول الطريق ، أما البقية فيغنون ويرقصون، وعندما يصل القـوم الى بوباستة فانهم يحتفـلون بالعيد ، ويقدمون أضحيات كثـيرة ، ويستهلكون من النبيذ فى هـذا العيد ، أكثر مما

---

13) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 48; V. Lons, Op. Cit., P. 116-117; E. A. Budge; Op. Cit., P. 416-420.

يستهلكون فى بقية العام ، وتزدحم المدينة بالمحتفلين،حتى ليبلغ عددهم قرابة سبعمائة ألف من الرجال والنساء ، عدا الصبية •

هذا وكانت باست تمثل فى هيئة بشرية لها رأس قطة ، أو فى هيئة قطة ، كما كانت تماثيلها تصنع من البرونز ، أما شكلها المبكر فكان قطة من النوع البرى المستأنس ، وقد أعجب القوم بها بسبب سرعة حركتها وشجاعتها ، ومع ذلك فقد ظلت باستت الهة محلية ، ولكنها اندمجت مع رع وأصبحت ابنتـه وزوجته ، كما ادمجت كـذلك مع المعبودات الاوزيرية وقد روت الاساطير أنها دافعت عن رع ضد الحية أبيب ، هذا وقد صور ولدها «ماحس» الذى انجبتـه من رع فى هيئة رجل برأس أسد ، مرتديا تاج «أتف» الخاص بأوزير ، أو على هيئة أسد يفترس أسيرا ، وقد وحد أحيانا مع «نفرتوم» ابن سخمت ، والتى حاول كهنتها ادماجها مع باستت فى عهد الاسرة الثانية والعشرين،التى اتخذت من «تل بسطة» عاصمة لها ، ومن الالهة باستت معبودة ، ومن ثم فقد بنوا لها معبدا مثلث فى جميع أرجائه •

وقد وصف هيرودوت هذا المعبد بأنه كان يقوم على جزيرة ، حيث ينساب النيل فى مجريان لا يختلط الواحد منهما بالاخر ، حتى مدخل المعبد ، وكان عرض كل منهما مائة قدم ، وارتفاع المدخل مائة أخرى، وقد زخرف بأشكال ترتفـع الى تسع أقدام ، ويقـع المعبد فى وسط المدينة ، ويراه الطائف حوله من جميع الجهات ، اذ بينما ارتفعت المدينة بفعل أكوام الطمى ، بقى المعبد كما شيد منذ البداية ، ومن ثم أمكن رؤيته ، ويحيط المعبد سور حفرت عليه أشكال ، وبداخل السور فناء به أشجار باسقة حول المحراب الكبير الذى به تمثال الالهة ، ويبلغ طول المعبد وعرضه ستاد من جميع الجهات ، وقبالة المدخل يمتد طريق مرصوف بالحجارة لمسافة ثلاثة استاد تقريبا ، وهـو يخترق السوق متجها نحو الشرق ، وعرضه أربعة بليثرون وعلى جانبى هذا الطريق تنمو أشجار ترتفع الى عنان السماء ، وهو يؤدى الى معبد هرمس ،

(تحوت) ، وبجانب هذا المعبد فقد قام القوم بتوسيع المعابد الموجودة فضلا عن مقصورة كبيرة لها من طيبة •

وقد احتلت باست فى تل بسطة مكانة حور فى ادفو ، وحتحور فى دندرة ، كما كانت فى العصور المتأخرة ، كالهة مقاطعة ، تمثل القوى الخيرة فى الشمس وتحمى الارضين ، وأحيانا كانت تمثل القمر كذلك، ومن ناحية أخرى ، فقد كانت سخمت تمثل القوى المدمرة فى الشمس، وقد ميزت العقيدة الاوزيرية بين الالهتين سخمت وباستت بوضوح ، كما أخذت باستت كذلك صفات حتحور ، ومن ثم فقد عرفت كالهة للمرح والموسيقى والرقص ، وصورت فى هيئة امرأة لها رأس قطة وتحمل شخشيخة وصندوقا وسلة ورأس لبؤة تحيط بها رقاب تلتف حول بعضها ، وأخيرا فلعل من الجديير بالاشارة الى أن القطط قد عوملت كشىء مقدس تبجيلا للالهة باست ، كما أن مقبرة القطط المحنطة فى بوباستة كانت مشهورة فى العالم القديم[١٤] •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هناك الهة أخرى تدعى «باخت» تمثل مظهرا آخر من مظاهر «باست» وقد أقيم لها معبد صخرى فى بنى حسن «جبانة اقليم الوعل» ، وهو الاقليم السادس عشر ، وكانت عاصمة «حبنو» (فى مكان الكوم الاحمر فى مجاورات زاوية الميتين ، على مبعدة ٨ أميال شمال المنيا عبر النهر) وقد كانت تمثل برأس القطة ، وشبهها اليونان لسبب غير معروف بآلهتهم أرتميس، ومن ثم فقد سموا معبدها فى بنى حسن بكهف أرتميس والمعروف الان باسطبل عنتر ، ربما نسبة الى عنتر بن شداد ، وكما قلنا آنفا ، فقد كانت الالهة «باخت» والتى كرس لها هذا الكهف ، مظهرا آخر من مظاهر الالهة القطة باست •

وكانت أيضا قريبة الصلة من «سخمت» ذات رأس اللبؤة التى

---

(١٤) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٥٩ ــ ١٦٢ ، ٢٦٧ ــ ٢٦٨ •
V. Lons, Op. Cit., P. 193;
وانظر : جيمس بيكى : المرجع السابق ٥٣/١ ــ ٥٧ •

كانت تمثل الحرارة المدمرة للشمس ، بينما كانت باخت تمثل التأثير الاكبر هدوءا لحرارة الشمس ، ففي النص الطويل الذي تركته الملكة حتشبسوت بأعلى واجهة المعبد ، تصف فيــه باخت ، بأنها « باخت العظيمة التي تخترق الوديان القائمة في وسط الارض الشرقية ذات الطرق التي اجتاحتها العواصف» هذا وفي مجاورات المعبد جبانة للقطط البرية ، حيوان الالهة «باخت» لمقدس[١٥] .

١١ ـ رننــوت

كانت رننوت (رننوتت) الالهة المربية التي أشرفت على الرضاعة، كما كانت تساعد وتحمي كل طفل عند مولده ، ومن ثم فقــد أصبحت شديدة الارتباط بفكرة القضاء والقــدر ، ومع الاحساس بالمستقبل الطيب ، فضلا عن الغنى ، وطبقا لهذا فقد اختلطت منذ وقت مبكر مع أرنوتت ، والذي كان في الاصل يمثل الحصــاد الوفــير ، واتحد مع الكوبرا التي كانت تختبيء في أكوام القمح ، ولعل هذا هو السبب في أن «رننوتت» اشتهرت بأنها ربة الحصاد الزراعي ، ولقبت « سيدة الحقول التي تمد الناس بالغذاء الطيب وتغمرهم بالمؤن» وكذا «سيدة الشون» .

وقــد ارتبطت رننوت مع مسخنت ومعات وسوبك ، وقد صورها القوم في هيئة حية كبيرة ، أو هيئة امرأة لها رأس الكوبرا ، التي عادة تشكل الحية الملكية ، وترتدي غطاء رأس يتكون من ريشتين أو قرص الشمس ، ومعه زوج من قرون البقرة ، كما مثلت كذلك وهي ترضع الفرعون ، وأحيانا وهي ترضع أرواح الموتى ، بل انها كثيرا ما صورت، وهي ترضع المعبود «نبري» الذي كان يرمز لسنابل القمح ، وكان أهم أعيادها يقع في غرة الشهر الثامن (برمودة) ، وهو الشهر الذي سمي باسمها ، وفيه يتم قياس الارض المزروعة تمهيدا لحصادها ، هذا الى

---

(١٥) محمد بيومي مهران : مصر ـ الجزء الثالث ص ٦٩ ، وكذا جيمس بيكي : المرجع السابق ٥٨/٢ ـ ٦٠

A. H. Gardiner, JEA, 32, 1946, P. 43-48.

جانب «عيد وزن القمح» فى السابع والعشرين من برمودة ، وأخيرا فى غرة الشهر التاسع (بشنس) حيث يحتفل القوم بها كمعبودة[١٦] .

١٢ ـ حقت

كانت حقت أو «حقات» الهة الماء ، وقد ظهرت على هيئة ضفدعة ، وارتبطت فى الاشمونين بالمعبودات الضفادع الاربع الذين عاشوا فى نون قبل الخلق ، وقد ولدت فى أبيدوس من رع فى وقت واحد مع «سو» وأصبحت زوجته ، وكرمز للاخصاب والبعث فان حقت قد ساعدت أوزير ليحيا بعد موته ، وأشرفت على مولد الملوك والملكات ، وكانت تدعى عادة زوجة خنوم ، ومن ثم فقد أصبحت تساعد الامهات فى الولادة ، وكثيرا ما نراها فى نقوش المعابد فى مناظر خروج الاطفال الى الحياة ، ومنذ عهد الدولة الوسطى أصبحت تذكر الى جانب خنوم بين الهة التاسوع ، كما أصبحت الهة ميلاد كل مخلوقاته ، وقد أعطت الحياة الى أجساد الحكام مثل حتشبسوت ، فضلا عن الرجال والنساء الذين شكلهم خنوم على عجلة الفخار ، وقد أخذت حقت أحيانا شكل حتحور ، ومن ثم فقد أطلق عليها أم حور الكبير ، هذا وقد أطلق عليها كذلك «سيدة حر — ور» ، وهى بلدة الشيخ عبادة ، والتى عرفت فى العصر الرومانى باسم «أنطنيو بوليس» وفى العصر القبطى «أنطنوه»، وتقع على الضفة الشرقية للنيل فيما بين ملوى وأبو قرقاص ، وكان من أهم ألقابها : أم الاله (اشارة الى ولدها حور — ور = حور الكبير) و «عين ور» و «سيدة السماء» ، وكثيرا ما نراها مرسومة على التوابيت لحماية من بداخلها من الموتى[١٧] .

١٣ ـ عنقت

عبدت الالهة عنقت (أنوكيس) فى منطقة الشلال الأول ، وقد

---

16) V. Lons, Op. Cit, P. 113.

(١٧) الموسوعة المصرية ٢١٦/١ تشرنى : المرجع السابق ص ٢٣٩ .
V. Lons, Op. Cit, P. 109.

ظهرت فى العصور المبكرة كالهة لبعض جزر المنطقة ، كجزيرتى اليفانتين وسهيل ، وفى نقش المجاعة من عهد الملك زوسر ، نراهـا خلف خنوم وساتت بصفتها سيدة جزيرة سهيل والمشرفة على بلاد النوبة ، وقـد ارتدت فوق رأسها تاج من الريش ، اشارة الى أصلها البدائى ، وان كانت فى أحوال أخرى تظهر ، كما لو كانت قد رفعت شعرها الغزير ذا الصلابة المعروفة عن شعر النوبيين الى أعلا ، وجمعته فى أسفله بمنديل أحكمت ربطه حـول رأسها ، وفى مناظر أخرى نراهـا تمسك بيديها الصولجان وعلامة الحياة عنخ .

هذا وقد دمجت عنقت فى عصر الاسرات مع خنوم وساتت لتكون معهما الثالوث المقدس لمنطقة الشـلال الاو ل، وأخـيرا أصبح مركز عبادتها فى جزيرة سهيل ، وقد بنى لها معبدا هناك فى عهد الاسرة الثامنة عشرة ، ولقبت بلقب «سيدة جزيرة سهيل» ، و «سيدة كل الالهة» ، كما بنى لها محراب فى فيله ، هذا وقد اعتبر القوم الغزالة من حيوانات «عنقت المقدسة» فقدسوها ، وأقيم لها معبد فى «كوم مرة» (كومير ، على مبعدة ١١ كيلا جنوب اسنا) ، لاتزال بعض أطـلاله باقية حتى الان،حيث توجد على مقربة منه جبانة خصصت لدفن جثث الغزلان[١٨] .

١٤ ـ سـاتت

كانت سـاتت (سباتى = ساتيس) بمعنى «ناثرة البـذور» الهة الخصب والحب ، كما كانت الهة للحياة والرطوبة ، فضلا عن الفيضان والنيل ، وقد تركزت عبادتها ــ شأنها فى ذلك شأن عنقت ــ فى جزيرة

---

(١٨) فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٢٣ ـ ٣٤ . وكـذا جيمس بيكى : المرجع السابق ٤/٩٩ .

F. A. W. Budge, Op. Cit., 57-58.

وعن نقش المجاعة : أنظر :

P. Barguet, La Stele de la Famine a Sahel Cairo, 1953.

J. Vandier, la Famine dans L'Egypte Ancienne, Cairo, 1963, P. 132-139.

J. A. Wilson, ANET, P. 31-32.

سهيل (٣ كيلا جنوبى أسوان) كما عبدت فى اليفانتين ، حيث كونت مع خنوم وعنقت ثالوث هذه المنطقة وذلك بعد أن اغتصبت مركز عنقت كزوجة لخنوم وأصبحت العضو الثالث فى ثالوث اليفانتين ، كما كانت الالهة التى تعطى الفيضان ، وكان يطلق عليها عادة «ابنة رع» وسيدة مصر وأميرة الصعيد العظيمة سيدة اليفانتين وسيدة النوبة ، وأصبحت منذ الدولة الحديثة «ملكة الالهة» هذا وقد اعتقد القوم منذ الازمنة المبكرة أنها تقف على مدخل العالم السفلى ، وكانت تستخدم مياه أربعة أوانى لتطهير الفرعون عند دخوله مملكة الموتى •

وكانت ساتت تصور على هيئة سيدة ترتدى غطـاء رأس النسر ، وتاج الصعيد الابيض ، تحيط به قرون ظبى ، وتحمل سهما ورمحا ، ومن ثم تصبح المقابل الجنوبى للالهة نيت ، كما صورت أحيانا ، وهى تصب ماء النيل وتسكبها فوق الارض ، وكثيرا ما وحد القوم بينهـا وبين الالهة الطيبية أمونيت ، كما وحدوا بينهما وبين ايزة فى العصر المتأخر ، وبينها وبين «ايزة حتحور» فى العصر اليونانى الرومانى[19]•

١٥ ــ مسخنت

كانت «مسخنت» الهة الولادة واحدى آلهات الحظ والقدر ، كما كانت واحدة من آلهات حجرة الولادة الاربعة ، ومن ثم فقد تلازمت مع «حقت» التى كانت من آلهات الولادة كذلك ، كما كانت تشخيصـا لكرسى الولادة وقالبى اللبن اللذين كانت تجـلس عليهما المرأة أثناء الولادة ، ومن ثم فقد صورت أحيانا فى هيئة قالب من اللبن تبرز من جانبه رأس سيدة ، كما مثلت فى هيئة امرأة ترتدى على رأسها ريشتين طويلتين ملفوفتين عند القمة مأخوذتين من براعم النخيل أو كنبات مائى طويل ، هذا وكانت مسخنت تظهر مع غيرها من معبودات الولادة لحظة

---

(١٩) الموسوعة المصرية ٢٦٢/١ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٣٢ ــ ٣٣ ، وكذا

E. A. W. Budge, Op. Cit., P. 109.

خروج الجنين الى الحيـاة ، وذلك فى هيئة فتيات راقصات على أنغام الموسيقى وقد تنبأت بالمستقبل العظيم ، فضـلا عن الثروة والقوة ، للملكة حتشبسوت ، عندما أشرفت على ولادتها ، هـذا وقد تزوجت مسخنت من الاله «شاى» Shai كما ارتبطت ، كغيرها من آلهـات الولادة أو الحياة بعد الموت،وساعدت ايزة نفتيس فى الطقوس الجنزية، كما تدلى بشهادتها ، على هيئة المتوفى ، أمام محكمة أوزير[٢٠] .

١٦ ـ محيت

كانت الالهة محيت أو ماتيت الهة مدينة ثنى ونخن ، وقد مثلت فى كثير من الاختام التى ترجع الى الاسرة الاولى على شكل لبؤة جاثية يبرز من ظهرهـا ثلاثة أو أربعة قضبان منثنيية ، أمام مقصورة مصر العليا ، كما يبدو واضحا من طبعات أختام طينية فى مقبرة الملك «جت» فى سقارة ، فضلا عن المقبرة المنسوبة للملكة «مريت — نيت» ، كما تبدو بنفس الصورة أمام مقصورتها من الاغصان المضفورة التى كانت مخصصة للبيت الكبير أو قصر الملك فى العصور التالية[٢١] .

١٧ ـ مفـــدت

وهناك من الادلة ما يشير الى أن عبادة الالهة مفدت انما ترجع الى عهد الاسرة الاولى ، ومن ذلك طبعة ختم عليه الاسم الحورى للملك «دن» وأمامه علم الالهة مفدت Mefdet ، كما عثر على آنية اسطوانية طويلة مصنوعة من الالبستر عليها نقش بارز بشكل كبير يمثل اسم الملك دن ، وأمامه الالهة مفدت ، هذا وقد سجل حجر بالرمو الاحتفال بمولدها فى حوليات الاسرة الاولى ، وقد صورت مفدت على شكل قطة،

---

20) Ibid., P. 113.

وعن أسطورة مولد حتشبسوت انظر :

J. H. Breasted, ARE, II, 1907, P. 78-89.

E. Naville, The Temple of Deir El-Bahari, II, 1896, P. 46-56.

21) W. B. Emery, Great Tombs, figs, 186-190, 228-230, Archaic Egypt. P. 125.

وان صورت فى عصور تالية فى هيئة امرأة ترتدى جلد القطة ، وكانت تعتبر الواقية من عض الثعبان[٢٢] .

١٨ ـ امنتت

اعتبر القوم الالهة امنتت حامية للمناطق التى تقع على الشاطىء الغربى للنيل بما فيها من بشر وزرع ، وقد صورت على هيئة امرأة تحمل فوق رأسها العلامة الهيروغليفيه التى تعنى «الغرب» ، ولما كانت الجبانات تقع فى الغرب ، فقد أصبحت هذه الكلمة تعنى أيضا مكان الدفن ، ومن ثم فقد أصبحت امنتت حامية الموتى فى مقابرهم ، وكانت تقدم لها القرابين من أهل الموتى فى الجبانات ، وان لم تبلغ من الاهمية قدرا يتطلب اقامة معابد خاصة بها ، ولكنها كحامية للموتى أصبحت من أتباع أوزير ، رب العالم الثانى ، كما ارتبطت بحتحور ، «ربة الغرب الجميل» مقر الموتى .

١٩ ـ مرت ـ سجر

كانت «مرت ــ سجر» (بمعنى محبة السكون) احدى المعبودات المصرية التى صورت فى هيئة الناشر (ثعبان الكوبرا) ، فكانت تصور فى هذه الصورة برأس امرأة ، كما كانت تصور أحيانا فى هيئة أسد رابض له رأس ثعبان الكوبرا ، وكانت «مرت ــ سجــر» هى الالهة الحارسة لجبانة طيبة فى البر الغربى ، حيث كان هناك مركز عبادتها ، كما كان من ألقابها «سيدة الغرب» .

٢٠ ـ سـرقت

صور القوم آلهتهم سرقت فى هيئة سيدة فوق رأسها عقرب،وكانت زوجة للاله «نخب ــ كاوو» وقد قامت بأدوار مختلفة فى المعتقدات المصرية ، وخاصة الجنزية ، فكانت ، بالتعاون مع ايزة ونفتيس،تقوم

---

22) W. B. Emery, Op. Cit., P. 125, J. H. Breasted, Op. Cit., P. 115.

على حراسة جثة المتوفى المحنطة ، وحماية الاوانى الكانوبية ، كما كانت تشترك مع «قبح ــ سنو اف» فى حماية الكبد ، هذا وقد صورت منذ عصر الدولة الحــديثة على أركان التوابيت وصناديق حفــظ أوانى الاحشاء[٢٣] .

٢١ ـ تا أورت

كانت «تا أورت» أو «أبت» معبودة أنثى فرس النهر منذ ما قبل الاسرات وقد قدسها القوم تحت اسم «البيضـــاء» أو «أبت» بمعنى الحريم ، أو «تا أورت» بمعنى العظيمة ، واعتقــدوا أنهــا تساعد فى المولد اليومى للشمس ، وسموها عين رع وأم ايزة وأوزير ، وأصبحت تاأورت بالتدريج معبودة أقل أهمية فى الديانة الرسمية ، وان كانت مخيفة ، كما كانت موقرة كمعبودة منزلية ، وفى كل العصور ، وعند كل الطبقات ، كانت تاأورت هى الالهة الحامية للمرأة الحامل ، فضلا عن الطفل الوليد ، ومن ثم فقد كانت تظهر غالبا على أيام الاسرة الثامنة عشرة ، مع الاله بس ، وهو يرقص حولها فى حجرة الولادة ، كما أنها ساعدت حتشبسوت عند مولدها ، وكانت توضع تمائمها ، مثل بس ، فى المقابر ، ومن ثم فقد اعتقد القوم أنها تحمى اعادة مولد (بعث) المتوفى خلال مملكة الموتى ، كما اعتبرت أحيانا زوجا للاله ست ، ومن ثم فقد اكتسبت سمعة سيئة .

هذا وقد صورت تاأورت فى هيئة أنثى فرس النهر الحامل منتصبة على قدميها الخلفيتين ، ومرتكزة باحدى قدميها الاماميتين على علامة هيروغليفية تعنى الحماية ، وقد تدلت أطراف بطنهــا الضخمة وثدييها الكبيرتين ، وكانت تاأورت ترمز الى الاخصاب ، كما كانت تحمى الحوامل سواء كن من أمهات الالهة أو الملوك أو من عامة القوم وخاصتهم ، من

---

(٢٣) الموسوعة المصرية ١١٩/١ ، ٢٧٠ ــ ٢٧١ ، ٣٦٥ ، فرانسوا دوما : آلهة مصر ص ٥١ .

الوضع العسر ، وكانت لها معابد فى طيبة وفى الدير البحرى ، كما كان القوم يمثلونها على جدران المعابد وفى تماثيل مختلفة وفى تمائم صغيرة تظهرها فى عقود كانت تحلى بها أعناقهم[٢٤] .

---

(٢٤) الموسوعة المصرية ١/٧٦ ـ ٧٧ ، وكذا V. Lons, Op. Cit., 111-113.

الفصل الثالث

تطور الديانة المصرية حتى عصر اخناتون

أخذت الديانة المصرية القديمة ، حين نشأتها وفى مراحل طويلة من تاريخها كما رأينا آنفا ، بتعدد المعبودات ، شأنها فى ذلك شأن مثيلاتها من الديانات الوضعية القديمة ، ولكنها ظلت أغنى من غيرها فى وفرة نصوصها ، ووضوح قضاياها ، وثباتها على مبادئها ، وفى تطورها ، التى انتقلت فيها من عقائد التعدد الى صور مختلفة من أفكار التوحيد [١] ، وفى الواقع فلقد كان الدين المصرى ، — كما ظل طوال الف وخمسمائة عام — ثمرة تداخل عدد كبير من العبادات القبلية الاصلية وكان لكل مدينة معبودها الخاص [٢] •

ثم سرعان ما ربط القوم بين تصوراتهم العقائدية الذهنية ، وبين علامات كثيرة من عالم الواقع والمحسوسات ، فرمزوا الى كل قوة عليا ، وعله خفية تخيلوها ، برمز حسى يعبر عن سر من أسرارها . ويحمل صفة من صفاتها ، والتمسوا أغلب رموزهم هذه فيما عمر بيئتهم من حيوانات وطيور وزواحف •

ثم لاحظوا أنه يتأتى عن بعضها كثير من الخير ، ويتأتى عن بعضها الاخر كثير من الشر ، ويظهر أثر البعض منها فى جهات بعينها ، وفى ظروف بعينها ، أكثر مما يظهر أثر بعضها الاخر ، الامر الذى لم يكن يخلو من اعجاز فى نطاق تصوراتهم التى كانت فى عصورها الاولى لا تزال قليلة التجارب ، محدودة الافاق ، وبوحى هذه التصورات

---

(١) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم ـ الجزء الاول ص ٢٩٧

2) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 214.

رمزوا بحيوية الكبش الطلوق الى الاخصاب الطبيعى والنوعى ، ورمزوا بقوة الفحل الى شىء من ذلك ، والى قوة البأس من مجملها ، ورمزوا بنفع البقرة ووداعتها بحنو السماء وأمومتها ، وورمزوا بقوة السباع واللبوات الى ارباب الحرب ورباتها ، ورمزوا بفراسة القرد واتزان طائر أبى منجل الى اله الحكمة ، ورمــزوا بالحيات والضفادع الى أرباب الازل ، ورمزوا بخصائص الصقر الى رب الضياء وحامى الملكية، وهلم جرا •

وهكذا كان معبود كل مدينة يظهر أحيانا على صورة رمز مقدس مادى ، ولكن فى أغلب الاحيان فى صورة حيوانية ، وهكذا كانت الالهة القطة باست فى بوباسته ، والالهة الصل ادجــو فى بوتو ، والايبيس تحوت فى الاشمونين ، والاله وب واوات فى أسيوط ، وعندما تجمع الالهة معا زودت هذه المعبودات الحيوانية بأجساد وأعضاء الادميين العاديين ، ونسبت اليهم بعض الصفات وألوان النشاط الادمية ، ومن ثم فقد صور الاله أمون فى هيئة آدمية برأس كبش ، وصورت الالهة حتحور برأس أدمية ، ولها قرون بقرة [٣] •

هذا وقد مهدت طبيعة الالهة المزدوجة هذه الى اتجاهين متضادين ، فمن ناحية الحفاظ الغريزى على التقاليد المصرية تقوى منه الرابطة الوطنية القوية المحلية ، مما حال دون الغاء الفروق الفردية ، فبقيت رؤوس الحيوانات ، ولم يتوقف النظام العام للتعدد ، ومن ناحية أخرى كان هناك حافز قوى نحو التفرد والتوحيد فلم يعلن اله المدينة بوصفه الوحيد القوى فحسب ، بل ضغط على مطابقته لالهة مدن معينة بالعديد من الوسائل المختلفة ، وهكذا كان سوبد (سوبدو) من المقاطعة العربية (كما سماها الكتاب اليونان ، وهى الاقليم العشرون فى الدلتا) ، وكان

---

(٣) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم ـ الجــزء الاول ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ •

خمن من اسفينيس ، وكان عانتى من أنتيوبوليس (قاوالكبير) ، كانوا جميعا صورا من «حور» لانهم شاركوه فى نفس صـورة الباشق ، وأحيانا كان الاسم هو المظهر العام ، بينما يختلف التجسيد ، فهناك مثلا «البقـرة الالهية حتحور» فى دندرة ، لم تكن فى الواقـع سوى «حتحور» التى تقوم عبادتها فى منف فى شجرة الجميز (٤) .

وكان تغيير الصورة يبدو مع بعض المعبودات عجيبا . فمثلا تحوت، ذلك المعبود الذى نسب اليه القوم أصول الحكمة والحســاب ورعاية الكتابة والفصل فى القضاء ، واعتبروه كاتبا أعلى ووزيرا ، ونائبا عن معبودهم الاكبر رع ، ورمزوا اليه بثلاث كائنات حسية ، ومن ثم فقد رمزوا اليه بالطائر آبيس (أبو منجل) أو رأس آبيس على جسد آدمى ، ولكنه كان من الممكن أن يكون كذلك قردا ، أو أن يبرز نفسه كقمر .

هذا وقد كانت الشمس بين القوى العظمى التى باشرت نفوذها على الحياة الارضية ، ومن ثم فقد ظهرت على وجه التاكيد أكثر استقرارا ودواما ، كما كانت أقلها حاجة الى صور متغيرة ، ومع ذلك فان القوم انما كانوا يتخيلونها «حر أختى أو حور أختى» (حور الافق أو حور المشرق برأس الباشق) ، أو هى ملك آدمى يحمل لقب «أتوم» أو ربما هى «الجعـل» يدحرج كرت الروث أمامه «خوبرى أو خبرى» ، ولم يكن هذا هو كل شىء ، بل انهم ادركوا أن أهمية الاله المحلى قد ترتفع اذا أردفت اليه كلمة «رع» ، أكثر القاب اله الشمس شيوعا ، كنعت له ، ومن هنا نلتقى بالاله التمساح «سوبك» فى أناشيده بلقب «سوبك رع» ، وفوق هذا كله كان آمون العظيم فى طيبة منذ الدولة الوسطى يذكر فى كل مكان دائما كأنما هو «آمون — رع» (٥) .

ولعل من الجدير بالاشارة هنا أن هناك من الالهة من كان القوم

4) A. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 214.

(٥) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٠٣ .
A. Gardiner, Op. Cit., P. 216; BIFAO, XL, 1941, P. 93 F. Urk. IV, P. 53;

ينظرون اليه وكأنــه حاكم لطوائف معينة من الناس ، اعتمــادا على الخصائص التى تميزوا بها عن غيرهم ، فضلا عن شهرتهم فى نواحى معينة ، وهكذا كان الاله «تحوت» بمثابة الحامى لطائفة الكتاب بسبب شهرته فى العلم والحكمة ، وكان «بتاح» بمثابة حامى الفنانين ، وكانت سخمت راعية للاطباء ، وفى العصور المتــأخرة عندما أله القــوم ايمحوتب ، وزير الملك زوسر ، ثانى ملوك الاسرة الثالثة ، اعتبروه الها للاطباء ، وكانت ماعت راعية للوزراء والقضاء وهكذا اتخذت كل طائفة مهنية راعيا لها من الالهة ، كما كان العامة من القوم يتخذون ، فى أغلب الاحايين ، معبودهم المحلى راعيا لهم ، ولعل هذا ربما كان سببا فى أن بعض وظائف الكهنوت انما كانت وقفا على شاغليها بحكم وظائفهم فى الدولة ، فالقضاة كانوا عادة كهنة لالهة العدالة ماعت ، والاطباء كانوا كهنة لسخمت ، والمشرفون على الفنانين كانوا كهنة لبتاح [٦] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هناك من النصوص الادبية التى تركها لنا القوم ما يشير الى أن هناك طائفة منهم انما قد آمنت برب واحد خالق ، مسيطر على الكون ، ومن ثم فاننا نقرأ فى نصوصهم ، «أن ما يحدث انما هو أمر الاله أو اللــه» و «أن صائدى الطيور قد يسعى ويكافح ولكن الله (الاله) قد لا يجعل النجاح من نصيبه و «أن ما يزرع فى الحقل وما ينبت فيه انما هو منحة من اللــه» و «أن من أحبه الله وجبت عليه طاعته» و «أن الله لا يعرف أهل السوء» و «اذا جاءتكم السعادة حق عليكم شكر الله» [٧] .

---

(٦) ادولف ارمان : ديانة مصر القديمة ص ٦٧ ــ ٦٩ ادولف ارمان وهرمان رانكه : مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ض ٣١٢ ، محمد أبو المحاسن عصفور : معالم حضارة الشرق الادنى القديم ص ٦٩ ، محمد بيومى مهران : ايمحوبت : مصر ــ الجزء الثانى ص ١١٨ ــ ١٢٢ ، وكذا K. Sethe, Imhotep der Asklepios der Aegypter, 1902, J. Hurry, Imhotep Oxford, 1928.

7) A. Erman, Die Literatur der Aegypter, 1923, P. 9, 89, 97, 100, 104, 112.

وأياما كان المراد من لفظ الجلالة هنا (الله أو الاله) فالذى لا ريب فيه أن القوم قد ساورتهم فكرة ، حتى وان كانت غامضة ، عن «الله» جل جلاله ، وعن قدرته وجبروته ، وأنه خالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، وان الذين يحبهم الله أولى الناس بطاعته ، وان أولئك الذين منحهم الله هناء الدنيــا حق عليهم شــكره •

وانطلاقا من هذا كله ، فان هؤلاء القوم الذين كان هذا شعورهم وتلك أحاديثهم ، لم يكونوا بمنأى عن العقيدة الحقة ، ومن ثم فقد كان من المنتظر أن يتطور ذلك كله الى التوحيد ، وذلك عن طريق ضم مظاهر الالوهية ، التى رأينا من قبل بعض مظاهرها ، وتطورها فى قوة عظمى هى «الله» سبحانه وتعالى ، غير أن ذلك لم يحدث ، وانما بقى القوم قريبين من التوحيد ، ينسبون كل شىء فى هذه الدنيا الى قوة خارقة يذكرونها فى نصوصهم على أنها «الاله» ، الا اذا كانوا يعنون بها الذات العلية ، وهذا ما لا نستطيع القول به دون أن يخالجنا ريب فى أن مانقوله هو الحق الصراح •

وعلى أى حال ، فاننا نقــرأ فى نصوص الادبــاء «اذا لم تتحقق نبوءات الناس ، فتلك ارادة الله» و «لا تكن بخيلا بما تملك من ثروات ، فانما أنت تمتلكها بهبة من الاله (الله) ، ونقرأ فى نصائح الحكيم بتاح حتب «لا تتسبب فى تأنيب والدتك ، ولا تجعلهــا ترفــع يديهــا تستنجد بالاله (الله) فانه سوف يجيب دعاءها» ، ونقرأ فى نصائح الحكيم آنى (من القرن السادس عشر قبل الميلاد) «ان مكيالا من الحب يعطيه لك الاله (الله) لهو أفضل من خمســة الاف تأتيك بطريق غير شريف • ، و «محبوب الاله (الله) من يحترم الفقير أكثر مما يمجد الغنى» •

وهكذا كان القوم الذين يعتقدون فى تعــدد الالهة انما كانوا فى نفس الوقت يؤمنون بالتوحيد ، بطريقة خاصــة فى التفكير لا ندركها

نحن اليوم ولا نستسيغها ، ومن هنا فاننا نلاحظ أن كلمة «الاله» التى جاءت فى أدب الحكمة والنصائح ، وفى عديد من النصوص والسير الذاتية المنقوشة على اللوحات وعلى جدران المقابر ، وفى عديد من الاعمال الادبية ، انما يظهر فيها «الاله» ، دونما لبس أو غموض ، بمفهوم التوحيد ، وربما كان هذا شيئا طبيعيا للغاية ، ما دامت هذه النصائح قد خرجت من نفس الاوسط المثقفة ، التى خرجت منها النصائح الآنفة الذكر (٨) .

على أننا نقرأ فى نفس الوقت ، وعلى نفس المنشآت التى جاءت فيها هذه الحكم ، أسماء كثيرة أو قليلة لبعض الالهة المختلفة ، ولم يضايق هذا التقارب المتضارب مؤلفى هذه النصوص ، لان معظمهم كان يتقبل وجود اله واحد ، يهب بعض ما يملك من قوة خارقة الى بعض المخلوقات الالهية الاخرى ، وهكذا كان القوم يؤمنون بالتوحيد ، وبتعدد الالهة فى نفس الوقت ، بطريقتهم الخاصة فى التفكير ، وانطلاقا من هذا ، وتخريجا منه ، فلقد رأينا أهل الفكر منذ الدولة القديمة ، على الرغم من تطلعهم الى معبود مطلق يرجونه للدنيا والاخرة ، ربما لم يشعر أحدهم بما يدعوه الى تغيير عقائد قومه .

وقد فوت على أهل الفكر احساسهم بضرورة التغيير والتوحيد أسباب عدة ، منها (أولا) أنه كان من الميسور أن يلتمسوا دفعا مقبولا للتغيير والتوحيد ، لو تباينت عقائد قومهم ، ودعا بعضهم الى سبيل المعروف ، وأجاز بعضهم سبل المنكر ، ولو تأتى هذا التباين عنها ، لتنكر بعض المؤمنين لبعض ، وضاقوا بتضارب العقائد وأربابها ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، وظلت عقائد المصريين متشابهة فى جملتها ،

---

(٨) محمد بيومى مهران : اخناتون : عصره ودعوته ، الاسكندرية ١٩٧٩ ص ٢٩٥ ـ ٣٠٠ .

F. Daumas, La Civilisation De L'Egypte Pharaonique, 1965, P. 313-314.
E. Devaud, Les Maximes de Ptahhotep, Fribourg, 1916.
M. Lichthein, Op. Cit, P. 135-146, J. Wilson, ANET, P. 420-421.

تستحث العدالة «ماعت» بمعناها الواسـع ، وتدع تحديدها للعرف وقوانين الفرعون ، وتدعو الى الايمان بالحياة الاخرة ، وتدع تصويرها للكهان وأخيلة المؤمنين .

ومنها (ثانيـا) أنه كان من الميسور أن يتوفر حافز آخـر لدعوة التوحيد لو أسرفت طوائف المصريين فى التعصب لأربابها ، وأسرفت فى عداتها لمن عاداهم من الارباب ، لو حدث هذا لاضطر أهل الفكر الى الدعوة الى معبود واحد ، لا يتأتى عن عبادته فرقة أو نزاع ، ولكن المصريين استطاعوا أن يتناسوا تعدد أربابهم وتباين أشكالهم بسبل أربعة ، فافترضوا حالات أسرية بين أرباب الحـواضر المتقـاربة ، وافترضوا قرابة وثيقة بين الارباب فى مجموعهم ،بين الفرعون الحاكم ، وبينهم وبين جدهم الاكبر خالق الوجود ، وأنزلوا بعض أربابهم منزلة الاولياء والقديسين واتخذوهم وسيلة للزلفى الى آلهة الدولة الكبار ، وتصادف أن روى المصريون أخبار خصومة عنيفة بين ثلاثة من أربابهم الكبار أوزير وحور فى جانب ، وست فى جانب آخر ، ولكنهم تعمدوا فى الوقت نفسه أن يخدعوا أنفسهم عن هـذه الخصومة بأنها حدثت وأنتهت فى زمـن بعيد ، وأن رب الوجود استنكرها ، وأورث بـأس الارباب الثلاثة للفراعين منذ أمد طويل [٩] .

ومنها (ثالثا) أنه لو اقتصر مسعى رجال الدين على الكهنوت وحده ، أو اقتصرت صفوفهم على طائفة بعينها ، ولو تم ذلك لتضخمت نقائصهم وعيوب عقائدهم ، وخاض المتحررون فى أمرهم ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، وظل الكهنة المصريون يعملون لشئون الدين والدنيا معا ، واستمروا فى حياتهم الخاصة بما يأخذ به كل الناس ، واتسعت صفوفهم لكل من توفر له خط من النفوذ والمعرفة ، ولم تأب جمـاعة منهم أن يسهم الامراء ورجال الحكم فى الاشراف عليها ، أو يسهم أحد أفرادها

---

(٩) عبد العزيز صالح : الواحدانية فى مصر القديمة ص ١١ ـ ١٢ وكذا

F. Daumas, Op. Cit., P. 214;

فى خدمة معبود غير معبودها ليستفيد من موارد معبده ، وترتب على ذلك كله ، أن غدا معظم الكهان والمثقفين وأصحاب السلطان المصريين ضالعين جميعا فى الابقاء على كثرة المعبودات ، مشتركين جميعا فى النفع منهـــا ٠

ومنها (رابعا) أن الفكر المصرى القديم لو تزمت وأبى أن يتقبل ما كان يحدده أهله من حين الى حين من المذاهب المستحدثة المقبولة ، ولو تأتى ذلك لقابل المجددون صلابة المتزمتين بمثلها ، وتكرر الصدام بينهم حتى يقضى الى التغير المنشود ، ولكن حدث على الضد من ذلك أن نجحت عهود الدولـــة القديمة فى التخلص من التزمت الشـــديد وعواقبه ، واتصف الفكر خلاله بمرونه نسبيه تقبل معها بضعة مذاهب جديدة ، واستطاع أن يساير أصحابها فى أناة أطفأت حماستهم وقللت اندفاعهم نحو ضرورة التغيير[١٠] ٠

وهكذا ظل المصريون يؤمنون بالتعدد وبالوحدانية فى آن واحد ، ولعل فكرة الخلق فى مصر القديمة انما تعطينا صورة لذلك ، فالتراث الشعبى يقدم لنا ما يفيد أن الاله الخالق انما هو «آمون» وهو «بتاح» وهو «رع» ، وهو «خنوم» ، ومن عجب أن هذا يرد فى نص واحد ، وليس فى مجموعة من نصوص مختلفة ، مما يؤيد وجهة النظر القائلة أن الفكرة الشعبية عن «الاله» انما كانت الواحدانية ، وان أســماء الالهة ليست الا تعبيرا عن اله واحد فى مظاهر مختلفة لهــذا الاله ، ولكنها لم تكن تعبيرا عن آلهة متعددة ٠

وبدهى أن هذا لا يعنى أن القوم تصوروا الاله الخالق ، على أنه اله واحــد لا شريك له ، بمفهوم الواحدانية المعروفة فى الديانـــات السماوية ، والتى تظهر أوضح ما تظهر ، دونمــا لبس أو غموض فى الاسلام ــ دين التوحيد المطلق ــ وانما تعنى أن المصرين القدامى

(١٠) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٢ ٠

انما قد آمنوا بوحدانية الاله الخالق ، مع اعترافهم بوجود آلهة أخرى ، لعل مهمتها الاولى أن تبرز صفـات هذا الاله الخالق ، ومن ثم فقد نظروا اليه على أنه آمون فى خفائه وهوائه ، وأنه رع فى ضيائه ، وأنه بتاح فى صناعته ، وأنه خنوم فى تشكيله للبشر ، وفى اعطائهم صورهم على عجلة فخاره ولعلنا نستطيع أن نسمى هذا التوحيد المصرى — بحذر شديد — نوعا مما يمكن أن يطلق عليه وحدانية تغليب رب من الارباب على بقية الارباب ، وليس ، بالتأكيد ، توحيد تفكير أو توحيد مطلق •

وأياما كان الامر ، فلقد بدأ القوم منذ أخريات الدولة القديمة ، وعلى أيام الثـورة الاجتماعية الاولى ، وحتى أوائل عهـد الدولة الوسطى ، يتجهون الى الشمس باعتبارها الها خالقا ، والها أكبر فى آن واحد ، ثم اتجهوا اليه بأربابهم القدامى ، ووصلوا بينهم وبينه ، وجعلوا اسمه قاسما مشتركا مع أسمـائهم ، ولكن دون أن يحاولوا افناءهم فيه ، فأطلقوا عليه أسماء «سـوبك رع» و «أمـون رع» و «تحوت رع» و «بتاح رع» وهلم جرا ، وأوهم القوم أنفسهم أن من أجازوا عبادتهم من الاربـاب الكثيرين ليسوا فى غالب أمرهم غير أوجه عدة من جوهر واحد ، وصور مختلفة من كبيرهم «رع» ، وأنه ليس مما يؤثر فى فردية الجوهر أو المعبود أن تختلف صوره وتتعدد وجوهه ، ثم تعودوا الربط بين الـه الشمس وبين بقية الارباب الى الربط بين كل رب وآخر من هؤلاء الاربـاب ، فأصبح أصحاب الاله بتاح لا يأنفون من تسميته «بتاح سوبك» أو «بتاح خونسو» وأصبح أتباع الاله «مين» لا يأنفون من سميته «مين أمون»[11] وهكذا •

ونقرأ فى متون التوابيت من عصر الثورة الاجتماعية الاولى نصا يعبر فيه الاله الخالق عن أغـراض الخليقة ، وقد جاءت فيه عبارات كانت سببا فى أن يوضـع هذا العصر فى مرتبة أرفع من روح العصر

---

(١١) عبد العزيز صالح : الوحدانية فى مصر القديمة ص ١٣

السابق أو اللاحق له ، حيث يذكر الاله الخالق أنه خلق جميع الناس متساويين ، وأنه اذا اعتدى أحد على هذه المساواة ، فليس ذلك من عمل الاله الخالق ، وانما هو من عمل الانســـان ، كما أنه خلق أربعة أشياء وساوى بينهم فيها ، «لقد صنعت الرياح الاربعة لكى يتنفس منها كل انسان مثل زميله ابان حياته ، وذلك أول الافعال ، لقد صنعت مياه الفيضان العظيمة ، لكى يكون فيها للفقير مـــا للعظيم من حق ، وذلك ثانى الافعال ، لقد خلقت كل انسان مثل زميله ، ولم آمرهم بفعل الشر ، الا أن قلوبهم انتهكت حرمة ما فعلت ، وذلك ثالث الافعال ، لقد خلقت الاقاليم ، وذلك رابع الافعال ، وانى وان أوجـــدت الارباب الاربعة من رشحى ، فالناس أوجدتهم من دموع عينى»[١٢] .

والنص واضح فى أن القوم كانوا يؤمنون بالله واحد خالق ، مع اعترافهم بوجود آلهة أخرى ، وهذا يعنى أنهم لم ينسوا ما ورثوه عن التعدد والتشبيه ، فظلوا يبيحونهما معـــا ، ولم يقدموا ما يبررون به تناقض أحوالهم ، فقال قائلهم على لسان الملك «خيتى» ملك اهناسيا ، وهو يبين لولده حكمة ما يراه لالهه من تماثيل وهيئات «اخفى الرب ذاته بذاته ، ولكنه يعلم طباع البشر ، ويدرك أن ذا الايدى لايقـــاوم اذا كان محسوسا فيما يراه البشر ، فاعبد الرب على هيئته التى ارتضاها ، سواء صنعت من حجر أو شكلت من معدن ، واذكر انه اذا كان الجدول الصغير يطمسه الطمى ، فالنهر الكبير يأبى أن يحده حد ، وأن الرب كالنهر قادر على أن يتحرر مما يستره ويحتويه» [١٣] .

واستمر القوم فى اتجاههم نحو وحدة الربوبية على أيـــام الدولة الوسطى ، وأستطاعوا أن يطرقوا معان جديدة للتعبير عن سعة ملكوت

---

12) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, P. 221-222;
J. Wilson, ANET, P. 7-8. وكذا
وأنظر : محمد بيومى مهـــران : الثورة الاجتماعيـــة الاولى فى مصر الفراعنة ص ١٦٦ ــ ١٦٨ .

(١٣) عبد العزيز صالح : الشرق الاردنى القديم ص ٣٠٥ .
A. H. Gardiner, JEA, I, P. 20 F; ANET, P. 414.

ربهم ومطلق عدالته فأشادوا برعايته لشئون الخلق أجمعين ، بغض النظر عن اختلاف لهجاتهم وألوانهم ، وقالوا يسبحونه باسم آتوم (آى التام المكتمل) ، وقد غدا صورة لاله الشمس ، قالوا «أتوم خلقت البشر جميعا ، ونوعت هيآتهم ، ووهبت الحياة لهم جميعا ، وفرقت بين ألوانهم ، يا سميعا لرجاء الاسير ، يا لطيفا بمن دعاه»[14] ، وفى أخريات القرن السادس عشر قبل الميلاد ، ومع بداية الدولة الحديثة تهيأت للوحدة آفاق جديدة ، تحت قيادة آمون اله الدولة ، وقبل ذلك اله الاسرة التى حققت لمصر تحت لوائه ، بعد حرب ضروس ، تحرير التراب المصرى من دنس الهكسوس ، ثم تمكنت تحت لواء آمون من تكوين امبراطوريتها الواسعة ، وصد غارات المغيرين عليها من الشرق والغرب ، ومن ثم فقد بدأ القوم ينسبون اليه ربوبية النشأة الاولى والاخيرة واعتبروه ربا للوجود ، ثم سرعان ما نسبوا اليه صفات مونتو ، ونعوت تحوت ، وأسرفوا فى ذلك الى حد كبير .

هذا وقد ترتب على اسراف أنصار آمون فى تمجيده أن ظهرت له طائفتان من التسابيح ، طائفة غلب الخلط عليها ، وبعد بها عن مظان التوحيد وأخرى وضح القصد فيها ، ودنت من دائرة التوحيد الى حد كبير ، وحاول أصحاب هذه الطائفة الاخيرة أن يصوروا جوهر ربهم ، وابتغوا به جوهر رب الخليقة والوجود ، أياما أحاط به من أسماء ونعوت ، ولما تبينوا أن عقائد عصرهم جمعت الى آمون الخفى ، ربوبية الهواء والماء والخلق والاخصاب والشمس والدولة على الاطلاق ، ارتضوه ذلك منها وفسروه بما يشبه عقائد الحلول ، فصوروا ربهم على أنه فرد مطلق خفى ، ولكنه حفاظ كل شىء ، حال فى كل شىء ، موجود فى كل شىء ، ثم وصفوه بقولهم أنه «أبر من فى السماء ، وأسن من فى الارض ، رب الكائنات ، حفاظ كل شىء ، وباق فى كل شىء»[15] .

---

(١٤) عبد العزيز صالح : الوحدانية فى مصر القديمة ص ١٣ ، الشرق الادنى القديم ص ٣٠٥ .

(١٥) نفس المرجع السابق ص ١٤ .

وهناك أنشودة من عصر «أمنحتب الثالث» ، وهـو العصر الذى يسبق عصر الثورة الدينية الكبرى مباشرة ، نعرف منه كيف تغيرت عبادة «أمون رع» تدريجيا الى عقيدة خالصة فى اله الشمس ، وكيف اكتسبت صفة العالمية فى شكل آمون المعبر عن الصفة الشمسية ، ذلك لان الشمس انما تضىء فى كل مكان فى هذا العالم ، ومن هنا فان هذه الانشودة التى كتبها شقيقان هما «سوتى» و «حور» وكانا يعمــلان مهندسين معماريين فى طيبة ، الواحد فى طيبة الشرقية ، والاخر فى طيبة الغربية ، ويتعبدان فيها للاله أمون ، انمـــا تشير الى صفة عالمية فى تعبيراتها ، وقد جاء فيها :

«لك الحمد يا شمس كل نهـــار ، يا من تشرق فى غير فتور فى كل صباح ، أنت «خبرى» الذى يجهد نفســـه فى العمل ، يفوق جمـــال أشعتك بريق الذهب الوهاج ، أنت بتاح صانع مصور لنفسك بنفسك ، أنت من تفرد بذاته وصفاته ، مخترق الابدية ، ومرشد الملايين الى سواء السبيل ، يراك الخلق عندما تذرع السماء ، ولا يدركون كيف مسيرك ، انك تذرع الكون بغير قيد ، ونهار الناس من تحتك ، فاذا ما استويت فى غرب الدنيا دانت لك ساعات الليل ، واذا ما طويتها استقبل الكون نورك ، وسعى الخلق فى الدنيا بأمرك» .

«لك المجد يا أتون النهار ، يا خالق الخلق ، ورازقهم ، أنت أيها الصقر الكبير ، ذو الريش المختلف الالوان ، أنت ولدت لتنشىء نفسك ، وجئت من نفسك بنفسك دون أن تولد ، أى حور المسن فى وسط آلهة السماء ، ذلك الذى تصعد نحوه أصوات البهجة فى شروقه وغروبه معا ، أى خالق ما تنتجه الارض ، أنت خنوم وأمـــون البشر ، الذى تملك القطرين من أكبر الاشياء الى أصغرها» .

«أنت أم نافعة للالهـــة والبشر ، أنت الخالق الطيب الذى يتعب نفسه من أجل مخلوقاته ، راع شجاع يسوق ماشيته وهو ملاذها ومدبر حياتها ، الرب الاوحد الذى يصل الى أطراف الكون فى كل يوم ، يرعى

كل ما فيه من دابه ، أنت يا من تشرق فى السماء،يا مـن ينير العالمين بكوكبه ، مبدع الفصول والأهلة ، فالحرارة عندما تريد ، والبرد عندما تشاء ، أنت يا من يطوى الاعضاء ويحتضنها ، كل بلد يتوسل اليه عند طلوعه ، ليسبح بحمده» [١٦] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن الاخوين ، سوتى وحور ، انما يصفان اله الشمس بصفات ذات علاقة بعصر الثورة الاجتماعية الأولى مثل قولهما «راع شجاع يسوق ماشيته ، وهو ملاذها ومدير حياتها» ، وهو وصف يذكرنا بما جاء فى نصائح اختوى لولده «مرى كارع» عندما وصف الناس بأنهم «رعايا الاله» (قطعان الاله) ، كما يذكرنا بما جاء فى تحذيرات «أيبو — ور» من نفس العصر بأن الاله «راع للناس كافة» ، والامر كذلك بالنسبة الى ذلك النعت الخطير ، والذى يوصف فيه اله الشمس بأنه «أم نافعـة للالهة والبشر» ذلك لانه يحمل بين ثناياه فكرة مشابهة تشعرنا بالاهتمام ببنى البشر ، أى النواحى الانسانية فى سلطان اله الشمس التى اشترك فى ايجادها بوجه خاص رجال الفكر فى عصر الثورة الاجتماعية لم تختف بين العوامل السياسية القوية لذلك التسلط العالمى الجديد [١٧] .

على أن الاخوين ، سوتى وحور ، رغم انهما وصفـا اله الشمس بأنه «الرب الأوحد» ، فان هذا لا يعنى استبعاد ولائهما لآلهة أخرى ، ففى المناظر والنقوش التى تحيط بالنقش الرئيسى يذكر الاخوان فى صلواتهما : أوزير وأنوبيس وآمون رع وموت وخونسو وحتحور ، على هيئتين ، ورع — حر أختى ، وسوكر وايـزه ، والملكة المؤلهة احمس نفرتارى ، فان تركيز اهتمامهما فى «اله واحد» لا يعنى أبدا انكار الالهة الاخرى ، هذا فضلا عن أن الاخوين لم يكتفيا باسم واحد لالههم ، ولم

---

16) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 211; J. H. Breasted Op. Cit., P. 275-276 A. Varille, BIFAO, XLI, 1942, P. 25 F; F. Daumas, Op. Cit., P.315.

17) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 167; JEA. I, 1914. P. 34. ANET, P. 417.

ينزهوه تماما عن التشبيه ، ولم ينكروا تعدد المعبودات الى جانبه ، فوصفوه فــردا وكبيرا لجماعة الارباب فى آن واحد ، ونزهــوه عن المادية ، وتخيلوا له صورا كثيرة فى آن واحد •

وهكذا يبدو واضحا أن القوم فى عصر الدولة الحديثة ، رغم أنهم قد اعتبروا «آمــون» اله طيبة ، و «حــور الافق» و «خنوم» اله الفنتين ، و «أتوم» اله عين شمس ، الها واحدا ، ورغم أن أناشيدهم تشير الى أنهم قد اتجهوا هذا الاتجاه فى توسلاتهم الى الخلط الالهى المكون من امون ورع حر أختى وأتوم ، باعتباره «الها واحــدا» كما اندمج فى الدولة الوسطى أحيانا بتاح وسوكر وأوزير ، فصاروا الها واحدا ، فان وجود المعابد المختلفة يثبت أن هــذه لم تكن الا أقوالا شعرية جوفاء ، فطالما كان أمون ورع وحور ، ما زالت لهم معابدهم الخاصة الغنيــة ، وكهانتهم الخاصة بهم ، فان ادماج هــذه الالهة فى وحدة واحدة حقيقة ، لا يمكن أن يكون تاما ، بالرغم من هذه العبارات الرمزية الطنانة[١٨] •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن كهنة أمون قــد قاوموا بطبيعة الحال هذه النظريات التوحيدية المضادة لتعدد الالهة فى عصر الدولة الحديثة ، ذلك لانهم كانوا على درجة كبيرة من الثراء ، بحيث تطيح هذه النظريات بثرائهم ، وليس من قبيل الصدفة أن تكون المحاولة الوحيدة العملية التى نعرفها فى هذا الامر ، قد اتجهت فى انتصــار مؤقت الى ثورة غضب جامحة ضد آمون ، كما لو كانت قوبلت بأشد مقاومة من أنصار وكهان هذا الاله ، وقد قام بهذه المحاولة اخناتون بن امنحتب الثالث ، الذى نادى باله واحد ، هو «آتون» •

ولعل السبب فى مقاومة النظريات التوحيدية انما يرجع الى صعوبة التخلص من القديم الموروث ، والى سماحه المتعبدين ، والى تشابه

---

18) J. A. Wilson, Op. Cit, P. 211-212; A. Varille, Op. Cit., P. 25 F; J. S. Garnot, JEA, 35, 1949, P. 63 F.

سبل الدعوة الى المعروف عند اتباع معبود ، والى افتراض القرابة الوثيقة بين الارباب المختلفين ، والى منطقية التبرير بأن الاله الاكبر ، هو الذى خلقهم بأمره ومن نفسه أو مـــن رشحه ، وأمر برعايتهم ، والى مرونة الفكر الدينى التى لم تأب أن تتقبل الجديد ، وتضمه جنبا الى جنب مع القديم ، والى استغلال الفراعين لكل هذه العوامل لكى يحولوا بها دون تركيز التفكير الدينى ف أيدى كهنوت معبود واحد ، ولكى يوهموا أتبـــاع كل معبود أنهم معهم ولا يأبـــون عليهم حرية عقيدتهم[١٩] ٠

---

(١٩) محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٣١١ ـ ٣١٥ ، عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم ص ٣٠٧ ، ادولف ارمـــان وهرمان رانكـــه : المرجع السابق ص ٢٨٠ ٠

الفصل الرابع

دعــوة التوحيــد

(١) أتون قبل اخناتون :

رغم أن كثيرا من العــلماء انما كانوا ، الى عهد قريب ، يعارضون الرأى القائل بأن عبادة آتون ذات جذور تاريخية ترجــع الى ما قبل أيام اخناتون[١] ، فان هناك ما يشير الى أن كلمة «أتــون» كان لها مضمون تاريخى يرجع الى عهد الدولة الوسطى على الاقل[٢] ، اذ أن هناك من يرجعها الى عهد الدولة القديمة ، وانها قد ذكرت ، لأول مرة، فى متون الاهرام ، وعلى أى حال ، فهناك عبارة مبهمه يكثر استعمالها منذ بداية الاسرة الثامنة عشرة ، وترجمتها «سيد كل مايحيط بالقرص»، وهى نعت يستخدم غالبا لــ «أتون الحى» ، والذى كان موضع ديانة اخناتون ، والكلمة التى تترجم الى قرص تشير بوضوح الى الجسم النورانى المرئى ، وقد تستخدم أحيــانا بمعنى «الاله» ، وليس بمعنى قرص الشمس .

وهناك لوحة من عهد أحمس الاول ، جاء فيها أنه «حكم ما يحيط به أتون» ، وان كان النص لم يستعمل المخصص المقدس ، هذا فضلا عن عبارة أخرى جاءت على نفس الاثر ، تقول «ان الملك يرى وكأنه رع ، عندما يشرق مثل أتون ، ومثل خبرى فى عيونه ، وأن أشعته تشبه

---

(١) انظــر : (محمد بيومى مهران : اخناتــون : عمره ودعوته ـ القاهرة ١٩٧٩ ص ٣١٥ ـ ٣٣٦ .

(٢) انظــر :

A. Erman and H. Grapow, Worterbuch, I, P. 145.

Marianne and Doresse, JA, 23, 1941-1942, P. 131 F.

وجوه أتوم فى غرب السموات» ، والاشـــارة هنا الى أتون انما تعنى «الاله» ، رغم عدم وجود المخصص المقدس ، ومن ثم فهى فى نظـــر بعض الباحثين لا تعنى الشمس الطبيعية ، وانما تعنى اسم الاله ذاته ، ولعل مما يؤيد هذا الاستنتاج أن هذه الفقرة القصيرة جاءت وسط جزء أكبر يتناول الملك والوهيته ، وهناك عبارة تشير الى موت أمنحتب الاول جاء فيها «صعد الاله عاليا الى السماء واتحد مع اتون» ، وبدهى أن أتون هنا لا يعنى القرين الطبيعى للشمس[3] •

وهناك اشارات الى أتون فى نقش يرجع الى عهد تحوتمس الاول جاء فيه «أنه رئيس البلدين ، وأنه يحكم ما يحيط به أتون» ، وفى هذا النقش لا مجال للمناقشة حول معنى كلمة «أتون» كما فى معبد الكرنك ، وفى نقش بعثة بلاد بونت على معبـــد الدير البحرى ، والامـــر كذلك بالنسبة الى عهد الفاتح العظيم تحوتمس الثالث وولده أمنحتب الثانى ، غير أن الاشارات الى «أتون» انما ترد بكثرة منذ أيام تحوتمس الرابع، حتى ذهب البعض الى القول بأن تأليه آتون حقيقة انما يرجع الى عهد هذا الفرعون الذى صدر فى عهده «جعران» تذكارى كبير الحجم سجل عليه نص جاء فى آخره»•••أنه «أى تحوتمس الرابع» اذ حرض نفسه على القتال ، وآتـــون أمامه ، فانه ينسف الجبال ، ويدمـــر الاراضى الجبلية ، ويدرس نهرين وكاروى ، لكى يخضع سكان الاقاليم الجبلية، كما أخضع الناس (أى المصريين) حتى يعبدوا آتون الى أبد الآبدين» •

وهناك قطعة حجرية من العمارنة يشاهد فيها تحوتمس الرابع وهو يقدم قربانا لآتون ، هذا فضلا عن أن فنون هذا العصر انما تشبه الى حد ما فنون العمارنة كما أن آثاره تشبه تلك التى من عصر اخناتون فى كونها لم ينقش عليها الا اسم الفرعون وقد خلت من كل نقش سحرى ،

---

3) F. J. Giles, Ikhanton, Legendand History, 1970, P. 111-115; J.A. Wilson, Op. Cit., P. 209-210; G. Foucart, BIFAO, XIV, 1924, P. 131; Urk., IV, P. 16, 19, 34; A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 271.

الامر الذى لم يتكرر الا مع تحوتمس الرابع واخناتون ، وهناك لوحة عثر عليها فى «ســد منت» (أمام مدينة اهناسية عبر بحـر يوسف) ترجع الى عهد تحوتمس الرابع ، وربما الى فترة مبكرة من عهد ولده أمنحتب الثالث جاء فيها «انك ترى أتون فى مسيرته اليــومية ، وان وجهك يرى أمون عندما يشرق» ، ولعل الجديد هنا أن لفظه أتون تحمل المخصص المقدس الذى لا تحمله لفظة أمون ، وان كان أتون ، وكذا أمون ، قد صورا هنا على أنه اله شمسى[٤] .

وانه لمن الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أن اسم «أتون» قد تسرب الى الجيش ، ومن ثم فقد رأينا بعض سراياه تدعى «سرية بهاء أتون» و «السرية اللألأة كآتون» ، ثم سرعان ما أرهص اتباع الشمس بالرمز الجديد لمبودهم وقدموه لفرعونهم ، وصوره على هيئة قرص مجنح ، تتدلى منــه يدان بشريتان تحيطان اسم الفرعــون ورسمه بالحماية والرعاية ، على أن الامر انما يزداد وضوحا منذ عهد أمنحتب الثالث مما يشير بوضوح الى ان الثورة انما كانت على الابواب ، فهناك كتلة حجرية ترجع الى عهد هذا الفرعون ، وقد رسم عليها ملك يتعبد لاتون الذى صور فى هيئة رجل له رأس صقر يعلوه قــرص الشمس ، وقد سمى الاله هنا «حور الافق ، السعيد فى أفقه ، فى اسمه شو ، الذى هو أتـــون» .

ولعل أهمية هذا الاثر فى أنه الشاهد الوحيد على أن هناك معبدا أقيم للاله أتون على أيام أمنحتب الثالث ، ولعل كل هذا انما يشير الى أن أتون انما كان يتلقى بالفعل عبادة فى طيبة فى معبد مدينة أمون ، قبل ثورة العمارنة ، أو ان الفرعون انما قد خصص معبــد مونتو فى

---

4) R. A. Parker, JNET, 16, 1957, P. 42; S. Hassan, ASAE, 38, 1938, P. 53-55; A. W. shorter, JEA, 17, 1931, P. 23 F; F. J. Giles, Op. Cit., P. 115-119; H. Kees, Ancient Egypt, 1961, P. 270; F. Petrie and G. Brunton, Sedment, II, Pl. lll; Urk. IV, P. 266, 332, 341, 575-582.

الكرنك لعبادة أتون ، وأن هذا الاله ، انما كان فيما يبــدو ، ذا صلة ووفاق مع الاله أمون •

وعلى أى حال ، فان الفحص الدقيق للنصوص من عهد أمنحتب الثالث انما يشير الى استخدام أوسع نطاقا للاصطلاح «أتون» أكثر من ذى قبل ، فهناك لقب «أتون يشع» الذى أطلق على قارب الملكة «تى» الذى كانت تتريض فيه فوق البحيرة التى حفرت تكريما لها ، كما نقرأ على نقش الجعل الكبير فى الكرنك «أنت سيد كل ما يضىء اتون» ، كما أن هناك تمثالا للالهة سخمت يحمل اسم «سخمت أتون» هذا فضلا عن ذكر أتون على كثير من آثار رجال ذلك العهد ، كما فى تمثــال الوزير «أمنحتب بن حابو» ، وفى مقبرة الوزير «رع موسى» ، وفى مقبــرة «خع أم حات» المشرف على الشونة المزدوجة ، وعلى جرافتى لموظف نوبى ، بل أن هناك مسلة مفقودة من سقارة بها اشارات عن كهنة لمعبد أتونى ، يرجع الى ما قبل أيام العمارنة ، رأى البعض أنه كان فى منف أو هليوبوليس ، وربما فى كل منهما (٥) •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى عدة نقاط ، منها (أولا) أن اخناتون لم يخترع قرص الشمس الذى يمد الناس بالحياة كرأى فلسفى ، بل أنه وجده جاهزا بين يديه ، وان كان هذا لا يعنى ــ بحال من الاحوال ــ الانتقاص من اقدام أمنحتب الرابع وجرأته ، فكل ما حدث قبله لم يخــرج عن نطاق الرغبات المترددة التى لم تقترن بأى اجراء جدى محدد الاهداف ، ومنها (ثانيا) انه ليست هناك ديانة ما تبدأ من فراغ ، ومن ثم فان ديانة أتون لابد وأن يكون لها جذور فى ديانات أخرى سبقت •

---

(٥) محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٣٣٦ •

F. Giles., Op. Cit., P. 119-123; J. H. Breasted, ZAS, 40, 1902, P. 112; G. Legrain, ASAE, III, 1903, P. 265, IV, 1904, P. 148; Urk., IV,P. 1737, 1754, 1819, 1833; S. R. Glanville,, JEA, 15, 1929, P. 6; A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 217.

ومنها (ثالثا) أن لفظه أتون قد تعنى أكثر من معنى ، وتستعمل فى أكثر من غرض ، كما ظهر ذلك فى نصوص مـن الدولة الوسطى ، وأخرى من الدولة الحـديثة ، ومرة استعملت اللفظـة مع المخصص المقدس ، ومرة بدونه ، ولعل ذلك كله انما يشير الى أن القوم بدأوا يرددون اسم «أتون» منذ عهد الدولة الوسطى ، على الاقل ، بمعنى الكوكب أو قرص الشمس ، ثم اتجهوا به وجهتين ، الواحـدة لفظية يدل فيها على كوكب الشمس والاخرى دينية ينم فيها عن الاله المتحكم فى كوكب الشمس ، فكانوا اذا عبروا عن اتساع سلطان فرعونهم ، قالوا : انه يسيطـر على ما يحيط به اتون ، واذا عبـروا عن لحاقه بالرفيق الاعلى قالوا : ألحق بآتون ، واذا بشروه بسعادة الاخرة ، دعوا له أن يرضى عنه الاله المستقر فى أتون •

ولما طال ترديد الادباء لاسم أتـون ، استحبه المؤمنون المجددون ، ورجحوا الصيغة اللاهوتية فيه على الصيغة الادبية ، ورأوه يكفى للتعبير عن اسم ربهم ورمزه ، وأقنعوا أنفسهم بأنه لا يقلل من جلال ربهم المطلق أن يرمزوا له بآية الشمس ، فما من ريب فى أن من يدبر أمر كوكب الشمس ويتحكم فيه وينظم مسيرته ، قادر على أن يدبر أمور المخلوقات كلها ، وأن من حصـن كوكب الشمس بآية النـور والنار والضخامة وقدرة الاخصاب ، دون سائر الكواكب ، قمين بأن يرتضى من عباده أن يتخذوا الشمس له رمزا وآية •

وعلى أى حال ، فان أتباع الشمس انمـا أوشكوا أن يتصـدروا دعوة التجديد على أيـام تحوتمس الرابـع ، الا أن ولده «أمنحتب الثالث» ، جريا على سنة أسلافه ، آثر الابقـاء على تعدد المذاهب ، خشية أن تتركز سلطة الدين كله فى جانب واحـد ، خاصة وأن كهان آمون ، انما قد تهيأ لهم من الثراء العريض وسلطان المناصب ، مـا أرهب الناس منهم وجعل التغاضى عن عقائدهم أمرا غير ميسور،ومن ثم فقد حاول أمنحتب الثالث أن يتخذ لنفسه منهجا وسطا بين آتون وآمون ، فساير دعوة أتون ، وسبح بحمده جهرة فى طيبـة ، وبشر باسمه فى

قصره ، ولكنه تعمد فى الوقت نفسه أن يحابى أمون وبطانته ، فأعلن أنه ولى العرش عن أمره وأغدق العطايا على معابده وكهنته •

وقد أدى ذلك الى نتيجتين متضادتين ، فحدث من ناحية أن رجحت كفة أولياء آمون فى صراعهم مع أتباع الشمس على توجيه دعوة آتون ، واستطاعوا أن ينترعوها لبعض الوقت ، ولكن على دخل ، وتعمدوا أن يفسدوا عليها انطلاقها وبساطتها ، وأن يخدعوا الناس عنها ، ويلبسوا عليها أهدافها ، فألحقوا اسـم أتون باسم ربهم أمون ، واعتبـروه مرادفا له ، وكأنه لم يأت على العقائد شىء جديد ، غير أنه حدث من ناحية أخـرى ، أن استغل المجددون هـذا التلبيس المتعمد وجهـروا بتسابيحهم لآتون ، دون خشية من خصومهم أولياء آمون ، بعد أن لبسوها بأسماء ربهم والقابه كما شاءوا ، عن تسليم تارة ، وعن تعمية وتضليل تارة سواها ، واستمر اللبس بين القديم والجديد ، وبين أمون وآتون ، خلال عهد أمنحتب الثالث ، واستقرت تسابيح الدين تقترب من التوحيد حتى تكاد تبلغه ، ثم تعود ثانية الى التعدد ، فتطيل فيه وتعيد ، حتى جاء اخناتون العظيم[٦] •

(٢) دعوة التوحيد فى مراحلها الأولى :

وهكذا كانت أمور الدين فى مصر عشية تولى أمنحتب الرابع عرش الفراعين فى عام ١٣٦٧ قبل الميلاد غير مستقرة ، ومن ثم فقد كانت فى حاجة الى أن تحسم فى صالح أحد الاتجاهين ـــ التوحيد أو التعدد ـــ ولم يكن هناك أحد فى مصر بقادر على القيام بتلك الخطوة الخطيرة غير الفرعون أو الكهان ، والا اذا تهيأت عوامل أخرى ، لها من القـوة ما يصلح أمور الدين فى مصر كله ، ومن عجب أن تجعل الاقدار ذلك كله من نصيب فتى لم يبلغ من الرجولة حـدا يجعله قادرا على أن يفعل ذلك ، بل ان هذا الفتى نفسه انما كان من الناحية الصحية على الاقل ،

---

(٦) عبد العزيز صالح : الوحدانية فى مصر القديمة ص ١٥ـ١٦ •

غير مهيأ لهذه المهمة الخطيرة ، بل انه فى غالب الظن انما كان فى السنين الاولى من حكمه على الاقل تحت وصاية أمه الملكة «تى» •

ومع ذلك فان أمنحتب الرابع قد اختار منذ اللحظة الاولى التى جلس فيها على عرش أجداده اسما للعرش يرتبط بعقيدة الشمس ، أكثر مما يرتبط بعقيدة أمون ، فأطلق على نفسه لقب «نفرو ، خبرو ، رع وع ان رع» ومعناه «صاحب الأشكال الجميلة ، انه وحيد رع» ، فضلا عن لقب جديد هو «الكاهن الاكبر لرع حار أختى ، الذى يبتهج فى الافق ، فى اسمه النور (شو) الموجود فى أتون» ، ورغم أن هذا اللقب لم يضايق كهان آمون الذين كانوا يرون فى لقب «المحبوب من أمون» الكفاية ، فانه قد ادخل السرور فى نفوس أولئك الذين كانوا يرنون الى تمجيد الشمس ، بل ربما رأوا فيه فجرا جديدا مؤذنا بيوم له ما وراءه بالنسبة الى ربهم أتون •

ولعل أمنحتب الرابع أراد أن يبدأ التبشير بمذهبه الجديد فى هوادة ولين وربما نهجا على سياسة أبية ، وربما بمشورة من أمه «تى» ، وأيا كان السبب فى هذا الاتجاه ، فان الفرعون بدأ يجامل انصار آمون ، ولا يبخل عليهم بعطاء ، ويناصر أصحاب أتون ولا يضن عليهم بتأييد ، ثم يعمل جاهدا على الاعلان عن الاله رع ، بجانب أمون ، فى صورته الجديدة أتون ، وأن يدخله كغيره من الآلهة المصرية الاخرى فى رحاب الكرنك ، فيعبد بجوار أمون ، ويرضى من كهانته نفسها ، وهكذا شيد أمنحتب الرابع معبدا لاتون فى رحاب الكرنك معقل أمون وحصنه القوى ، يطلق عليه اسم «معبد رع حر أختى» (معبد رع حور الافق) وان رأى البعض أن أباه هو الذى بدأ بناء المعبد ، وأن اخناتون انما وسعه وأضاف الى نقوشه ما يقرب رب هذا المعبد من مذهبه الجديد[٧] •

7) C. Alderd, Akhenaten, 1972, P. 162; A. Weigall, the Life and Times of Akhenton, 1934, P. 36 F; JEA, 9, P. 168, 17, P. 190; ASAE; III, P. 263; W. Hayes, the scepter of Egypt, II, P. 261; Gauthier, Le Livre des Rois d'Egypte, II, P. 347.

وأياما كان الامر ، فسرعان ما يعلن أمنحتب الرابع أن العبادة يجب أن تتجه الى «الوالد اتون الحى» ، وأن أتون ما هو الا «رع حر أختى» يتهلل فى افقه باعتباره النور الذى فى الكوكب أتون ، وقد استهدف من ذلك أمور ثلاثة هى : أن يحـــدد رأس عقيدته الدينية الجديدة ، وأن يفاجىء الناس بأسماء جديدة لم يألفوها ، وأن يوحـــى اليهم بأنه لا يطلب منهم غير العودة الى معبود الفطرة ، معبود أجدادهم الاولين «رع حر أختى» ، وهو نفسه آتون ذلك الذى رغب الناس فيه بتسميته باسم «الوالد» ، وربط بينــه وبين آية النور المعجزة المستحبــة فى كوكبه •

وعلى الرغم من بساطة هذا الاستهلال البارع الذى بدأ به دعوته ، فلقد أوجس كهنة آمون خيفة منه ، وقد رأوا أن يافعا مثله يستطيع أن يتزعم مذهبا فى الدين ويفتى بالرأى فيه ، خليق بأن يتأتى على يديه تغيير كبير ، فأضمروا له العداء وجافوه ، ولكنهم مـــع ذلك لم يعلنوا الثورة ضده ، على أساس أن الههم الاكبر هو «أمون رع» ، الممثل لرع رب هليوبوليس ، كما أنهم ادركوا أن مذهبهم راســـخ فى قلوب الناس ، وبخاصة أهل الصعيد ، كما أن الههم قد ذاع أمره فى كل مكان داخل مصر وخارجها ، وأنه لا غزو ولا نصر الا حول ساحته وعند اقدام عرشه ، وأن أتـــون لم يكن حتى ذلك الحـــين ، الا الها جديدا ، يبحث له عن اتباع ومتعبدين •

وهكذا أدخل أتون الى حرم الكرنك ، بجانب آمـــون اله الدولة الرسمى ، وسمح له ولاول مرة ، أن يأخذ مكانا رسميـــا بين الالهة المصرية ، وأن يعترف به أصحاب آمون ، وربما أراد الفرعون من ذلك مهادنة كهان أمون ، معلـــلا النفس باكتساب بعضهم لاعتنـــاق دينه الجديد ، بخاصة وأنه كا حتى ذلك الحين يحمل الالقاب الملكية الخمسة التقليدية المتوارثة منذ أقدم العصور ، هذا فضـــلا عن أن أمنحتب الرابع لم يكن فى بادىء الامر يظهر عـــداء للالهة المصرية وكهنتها ، على أمل أن البعض قد يفكر فى الدين الجديد ويعتنقه •

ومع ذلك فان العلاقة بين الملك وكهان أمون بدأت تتجه الى النفور أكثر منها الى الود ، فلقد أوجس الكهان خيفة من فرعون ، وكان فرعون بدوره حذرا منهم ، خشية القيام بمؤامرة قد تغرق سفينة طموحه وتقضي على معتقده الجديد ، وأبدت عين البغض بين الفريقين مساوئ خافية ، وأخرى كانت تتغاضى عنها عين المجاملة ، فاذا بالولاء للارباب العديدين الذى آثره الفراعين من قبل يبدو ضلالا مبينا ، واذا بكهان أمون يبدون للفرعون بثرائهم وسلطتهم كأنهم أرباب دولة داخل الدولة ، واذا بالكثرة العديدة من بقية الالهة تبدو للعرش وكأنها تمتص خيرات البلاد بغير طائل ، واذا بتصوير الرب على هيئة البشر ، والكناية عنه بهيئة الحيوان يعتبران ضربا من التمويه والبهتان ، واذا بالاساطير القديمة والتفاسير المأثورة التى تناقلها الناس جيلا بعد جيل تبدو للمجددين من لغو الحديث ، واذا بأوجه التشابه وأوجه الخلاف بين العبادات تبدو لأنصار فرعون دليلا على تشتت الفكر وغموض القصد ، واذا بدعوة المحافظة التى استمسك بها أتباع أمون وصبغوا عقائدهم بها ، تتضخم فى نظر دعاة الاصلاح فيجدونها تذمتا مقيتا ، يقيد حرية الناس فى أحاديثهم وآدابهم وفنونهم ، وليس فى دينهم وحده[8] .

وهكذا سرعان ما يبدأ الفرعون فى اتخاذ الخطوات الايجابية لاعلان دعوته فيطلق على حى المدينة الذى فيه المعبد اسم «لمعان أتوم العظيم» (نور أتون العظيم) ، وعلى العاصمة المصرية العتيدة «طيبة» اسم «مدينة التماع أتون» (مدينة نور أتون) ، هذا فضلا عن تسمية قدس المعبد باسم «جم أتون» ، وهو تعبير ، فيما يرى سرستد ، ما يزال غامضا ، ولعل عداء الكهنة السافر قد بدأ منذ هذه اللحظات ، وذلك حين أدركوا أن الامر قد أصبح أخطر من أن يتغاضوا عنه ، وأن أتون

---

(٨) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٧ ، سيد توفيق : اخناتون الملك الاله ، وأتون الاله الملك ص ١٢٨ ، عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم ص ٣٠٩ .

W. C. Hayes, Op. Cit., P. 319; G. Legrain, ASAE, III, P. 363.
J. H. Breasted, A History of Egypt, P. 361, ARE, II, P. 382-383.

ليس فى رأى الفرعون الها كباقى الالهة ، ومن ثم فان اتجاه أمنحتب الرابع انما كان فى نظرهم «هرطقة» (صبأ) ، رغم أن ظواهر الامور حتى ذلك الوقت كانت تشير الى أن الفرعون لم يكن يظن انه ارتكب اثما نحو اله أجداده ، حين أرجع من جديد اله الشمس نفسه .

وهكذا بدا الصراع بين الفرعون وكهانة أمون ، وخاصة عندما عرف الكهان أن الاله يختلف فى شكله وفى تعاليمه عن الالهة المصرية الاخرى ، فهو لم يجسد فى صورة بشرية ، الا فى حالات نادرة فى أول الامر ، ولا هو تجسد فى صورة حيوانية كأغلب آلهتهم ، بل هو الحرارة الكامنة فى قرص الشمس التى تهب الناس الحياة وتغمرهم بالسعادة ، فأخذوا يخافون على نفوذهم ومراكزهم التى حطمتها ألوهية الملك وقوة شخصيته ، وتفانيه فى دينه الجديد ، وخاصة عندما أطلق الملك على بناته اللاتى ولدن فى طيبة أسماء كان أتون جزءا مقدسا فيها ، فسماهن على التوالى «مريت أتون» و «مكت أتون» و «عنخ اس با اتون» .

ومن ثم فقد أصبحت نوايا الفرعون واضحة أمام الكهنة فأخذوا يحيكون له المؤامرات والدسائس للقضاء على دينه الجديد ، ولم يمنعه هذا من الاستمرار فى دعوته ، ثم سرعان ما أعلنها حربا لا هوادة فيها على أمون وكهنته ، وسجل على احدى لوحات العمارنة «أقسم بحياة أبى اتون ، أن الكهنة كانوا أشد اثما من كل الاشياء التى سمعتها حتى العام الرابع ، وأشد ضراوة من الاشياء التى وقعت حتى العام السادس»[9] .

(٣) اعلان التوحيد

لم تمنع مؤامرات الكهان أمنحتب الرابع من الاستمرار فى دعوته

---

9) J. H. Breasted, the Dawn of Consience, P. 273, F. Daumas, Op. Cit., P. 319; A. Weigall, Op. Cit., P. 86; N. de G. Davies, the Rock Tombs of El-Amarna, V. P. 30; Urk, IV, P. 1975.

وانما نراه يقبل التحدى ويراه وقتا مناسبا للجهر بالدعوة واعــلان التوحيد خالصا ، وهكذا نادى الداعية العظيم باله واحد لا شريك له ، ولا محل لتعدد الارباب والربات الى جانبه ، ليس هو أمون ، ولكنه أتون ، وليس هــو من تقوم عبادته خلف أسوار وأستار ، ولكنه اله واحد فرد صمد ، يشهد الناس آياته دون حجاب ، ولهم أن يعبدوه حيثما سقط من كوكبه على الارض شعاع ، ونزه فنانوه ربهم عن أن يرمز له بهيئة انسان ورأس حيوان ، وآثروا له رمز كوكب الشمس بكل ما فيه من قدرة ربانية مستترة ، وجسم ظاهر مضىء تصدر عنه أشعة عدة ، وبمعنى أصح أيد عدة بأكف مبسوطة تمتد الى الارض فتهبها الحياة وكل ما هو طيب ، وفى بعض الاحيان كان يثبت الطرف الاسفل للقرص شعاره القديم «الصل» تخرج من عنقه علامة الحياة «عنخ» ، ثم الاشعة التى تنتهى بأيد آدمية ، كأثر أخير للتصورات القديمة .

وكان هذا الرمز ، رمز قديم وجديد فى آن واحد ، قديم فى هيئة قرص الشمس ، جديد بصورة الايدى التى بدأ تصويرهــا منذ أيام تحوتمس الرابع ، ويبدو أن الفنانين لم يروا فى تصويــر أكف الاله المبسوطة انتقاصا من روحانيته ، واعتبروا تصويرها نوعا من التعبير الفنى يغنى عن الوصف والكتابة،وقد شابههم فى ذلك فنانوا عصر النهضة المسيحيون حين صوروا يد الله بين الغمائم ونحتوا له التماثيل[١٠] .

وكانت السنة االسادسة من حكم أمنحتب الرابع (حوالى عام ١٣٦١ ق.م) واحدة من السنــوات الحاسمة فى تاريخ الدعوة ، فقد ظــل الفرعون حتى عامه الخامس من الحكم يحتفظ باسمه أمنحتب ، بل انه حتى فى لوحة الحدود من العام السادس ظل يحتفظ باسم أمنحتب ، ولم يغيره الى «اخناتون» ، وان أضيفت أسماء ونعوت اخرى ، ولكنه

---

(١٠) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣١٠ .

C. Aldred, Op. Cit., P. 162; F. Daumas, Op. Cit., P. 320; A. Gardiner, Op. Cit., P. 218-219; A. Weigall, Histoire De L'Egypte Ancienne, 1968, P. 139.

فى نفس العام السادس تبرأ من لفظ «أمون» فى اسمه ، فسمى نفسه «اخناتون» (أخن أتون) ، وهو اسم لم يتضح معناه حتى الان ، فقد يكون بمعنى «المخلص لأتـون» أو «التابع لأتون» وقد يكـون بمعنى «ليرضى عنه آتون» أو «ليخدم آتون» أو «خادم آتون» أو «الصالح لخدمة آتون» وقد يكون بمعنى «المجد لآتون» أو «ليسعـد آتون» ،

ولعل من أسباب تغيير الفرعون لاسمه أن الاسـم الجديد الذى اتخذه لنفسه ، انما هو ترجمة للاسم القديم الى ما يماثله فى المعنى فى مذهب آتون •

وهكذا أصبح أمر انكار الاله القديم ، والايمان بالاله الجديد ، أمرا رسميا ، ذلك لان اسم الملك انما كان رمزا لسياسة الدولة ، وكان لتغيير الاسم من الاثر ما لاعلان الحرب ، ومن ثم فقد أغلقت معـابد الالهة فى كل أنحاء الامبراطورية المصرية ، وصودرت ممتلكاتها ، وعطلت شعائرها ، وضرب الحجز على خزائن الكنهوت ، وذهب اخنـاتون فى حماسة الى حد أنه أمر بفحص الاثار المصرية ، ومحو كلمة «الالهة» (نثرو) حيثما وجدت منقوشة عليها فى صيغة الجمع ، لان الاله واحد لا يجمع ، أو انه رأى أن الجمع مظنة لتعدد الآلهة فمحاه[11] •

وبدأ الكهنة يتكتلون بعد أن ألغيت سلطة أمون العظمى ، وأصبح النزاع على أشده ، ولم يعد اخناتون يتسامح مع الالهة ، وبخاصـة أمون ، وذهب أولياء الملك ممن امنوا بدعوته يطوفون بجميع المعابد لنزع اسم أمون واخفاء أية معالم له ، ورروجعت قراءة النقوش ، حتى فى أعلى المعابد وفى قمم المسلات ، حيث تم محو اسم امون وتدمير جميع تماثيله ، حتى أنه لم يصل الينا منها شيئا قبل أيام «تـوت عنخ أمون» ، ثم سرعـان ما انتقل الامر الى بقية الالهـة ، ومن ثم فقد شوهت فى معبد بتاح فى الكرنك اسماء بتاح وحتحور ، وفى بهو أعمدة

11) J. H. Breasted Op. Cit., P. 279-280; A. Weigall, Op. Cit., P. 135; C. Aldred, Op. Cit., P. 62-63; S. Towfik, Aton Studies, P. 16; H. Gauthier, Op. Cit., P. 346, N. de G. Davies, Op. Cit., Pls. 25-27.

تحوتمس الذلث بالكرنك لحق بهذا المصير جميع الالهة كأوزير وايزة وحور واتوم وجب وغيرهم ، وحتى العقاب نخبت ، المحلق فوق الملك لحمايته لم يغفل أمره ، ومحيى كذلك اسم الثور المقدس ، على أن آمون انما كان الفريسة الرئيسية لغضب الملك الذى استهدف تدمير الصور والتماثيل ، ومن ثم فقد تم محوا سم آمون من الاثار جميعا ، بل ان كلمة «(أم)» التى كانت تشبه الالهة «موت» زوج أمون قد أمر بالتخلى عن كتابتها عند الرسم الهيروغليفى للعقاب ، وان تكتب الحروف بعلامتى « م ت »[١٢] .

(٤) الهجـــرة :

أيقن اخناتون فى العـــام السادس من الحكم أن طيبـــة لم تعد تصلح لبذر تعاليمه الجديدة ، كما أن جوها الملبد بالمؤامرات والمسمم بالافكار التى ينشرها كهان أمون ، لا تساعد على نشر دعوته الجديدة ، فهاجر بأهله واتباعه من طيبة الى أرض وصفها بأنها ارض بكر طهور ، لم يدنسها شرك فى العبـــادة ، ولم يعبد فيها من قبل الـــه او آلهة ، تتوسط أرض الكنانة أو تكـــاد ، وتقوم على انقاضهـــا الان بلـــدة العمارنة[١٣] الحالية ، وسماها «اخيتاتون» بمعنى افق اتون أو مشرق اتون ، وبدهى أن الهجرة من طيبة الى العمارنة لم تكن وليدة عاطفة عابرة من ذلك الحاكم الثورى العنيد ، والبالغ الشجاعة كذلك ، بل هى

---

12) C. Aldred, Op. Cit., P. 62-63; F. Daumas, Op. Cit., P. 320-322; J. A. Wilson, Op. Cit., P. 221.

(١٣) العمارنة أو اخيتاتون ، ويمثلها فى الوقت الحاضر مجموعة قرى على الضفة الشرقية للنيل ، وهى بنى عمران والحاج قنديل والعمارنة والحوطه ، ثم الخرائب القليلة التى تقع على طول المدينة القديمة ومن ورائها ، وتقع العمارنة على مبعدة ٤ كيلا شمالى ديرمواس عبر النهر ، بمحافظة المنيا ، فى الاقليم الخامس عشر من أقاليم الصعيد ، وكانت عاصمته «خمنو» (الاشمونين) ، وطبقا للوحات الحدود (عددها أربع عشرة لوحة على الاقل منحوته على التلال الشرقية والغربية للنهر) فقد أسست المدينة فى العام الرابع للحكم ، واستكملت استعدادتها فى العام السادس (أنظر عن مدينة العمارنة : محمد بيومى مهران : اخناتون ص ١٨٦ ــ ٢٣٢) .

نتيجة تدبيرات الحكم وضعها ، كان الهدف منها اقامة حصن لاتون الذى أراد اخناتون أن يجعل منه الها عالميا •

وفى الواقع فلقد أقام الفرعون ثلاثة مراكز للدعوة ، وزعت على أجزاء الامبراطورية المصرية الثلاثة ــ مصر والنوبة وغربى آسيـا ، على ان يكون المركز الرئيسى فى مصر حيث يستقر الفرعون فى اخيتاتون (آخت آتون) ، وأن يكون المركز الثانى فى النوبة «جم آتون» (وجود اتون) و «كاوا» وراء الجندل الثالث ، مقابل بلدة «دلجو» الحالية، وربما كان اسم «جم اتون» هنا نسبة الى معبد اتون ـ طيبة ، واما ثالث المراكز فقد كان فى فلسطين ، ربما فى أورشلم (القدس) أو فى بيت شمس وعلى أى حال فرغم اننا لا نعرف مكانه على وجه التحديد حتى الان الا ان الامر الذى لا ريب فيه ان هذا المعبد الاسيوى لأتون ، لم يكن أقل منزله من معابد اجداد الفرعون التى شيدوهـا لامون فى غربى آسيا ، وهكذا اعطى الفرعون لكل مركز من مراكز الامبراطورية مركزا للعقيدة الاتونية هذا، فضلا عن الهياكل والمحاريب التى أقيمت لاتون فى انحاء مختلفة من أرض الكنانة ، فمن المؤكد مثلا أنه كان يوجد معبد لاتون فى منف ، وقد عثر على بقايا من نقوش اتونية مبعثرة فى طول البلاد وعرضها ، وان لم نجد ذلك الى الشمال من هليوبوليس فى الدلتـا[١٤] •

واستقر اخناتون فى اخيتاتون ينشر دعوته ، ويدعـو الناس الى اعتناق دينه الجديد ، وليس من شك فى ان اخناتون انمـا كان يعد نفسه حوارى المعتقد الجديد ، وان هناك الكثير من النقوش التى تؤكد استماع القوم الى مذهبه ، فهذا احد اتباعه يقول له «ما أكثـر من يستمع الى مذهبك فى الحياة ، ومن يملأ ناظريه بمشاهدتك ، ولا تتوقف

14) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 223-224; H. R. Hall, The Ancient History of the Near East, P. 169; T. Save-soderbergh, Op. Cit., P. 162.

عيناه عن النظر لاتون كل يوم» ونرى فى مقبرة الوزير «رع موسى» (وتحمل رقم ٥٥ بطيبة الغربية) منظرا يمثل اخناتون واقفا وموجها حديثه لوزيره حيث يقول «كلمات اتون القيتها عليك ، ان الرب قد علمنى اياها وكشف لى عن خباياها ، هذه الكلمات التى عرفها قلبى وانشرح لها صدرى» ، وأجابه الوزير «انك الوحيد الذى اختاره اتون ليلقى اليه تعاليمه ، والخوف منك يملأ قلوب الناس والجبال تستمع اليك كما يستمع الناس» ، وهكذا يشير النص الى أن الملك بدأ يتزعم الدعوة الجديدة حتى قبل ايام العمارنة[١٥] .

وعلى أى حال ، فلقد تزعم اخناتون الدعوة الى دينه الجديد ، وأعلن نفسه نبيا لهذه الدعوة والمصطفى لنشرها ، وسلك سبيله الى قلوب أتباعه بالمنطق والاسوة الحسنة ، والترغيب والترهيب فى آن واحد ، فاصطفى لنفسه حواريين يعلمهم كما يعلمه ربه أتون ، وسارع بنفسه وزوجه وبناته الى معابد العاصمة يؤم العبادة ويرتل الدعوات، وابتعد بنسه وآل بيته عن مظاهر التزمت الملكى القديم ، وخرج بهم على أهل العاصمة يرونه ويرونهم على ما هم عليه ، وفتح مغاليق حياته الخاصة للمثالين والرسامين ، فصوروه فى بشريته الخالصة ، وفى فرحه وحزنه ، وعبثه وجده ، وما ابتلى به من أعراض المرض وعيوب البدن، واستغل يديه جميعا فبطش باحداهما أمون وكبار كهنة بطشه شديدة ، ورفع بالاخرى أفرادا من أواسط الناس فجعلهم من الكبار الخواص ، وأغدق العطايا على من آزر دعوته ووقفوا الى جانبه ، وحاول اخناتون أن يجعل عاصمته «اخيتاتون» مدينة فاضلة تعمل للدين والدنيا معا ، تبشر بالايمان السمح المستبشر ، وتشيد بالعدل فى كل أمره ، وتردد تسابيح الشكر والصلوات لاتون فى معابدها ، كما تتردد الاغانى والأنغام وأهازيج حب الطبيعة والجمال فى مجالسها ، وبلغت الدعوة غايتها حين خرجت بدينها عن الاقليمية الى العالمية ، ونادت باله رحيم

---

(١٥) عبد المنعم ابو بكر ، اخناتون ص ٧٦ .
A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 224;

فى كل أمره ، محبوب فى كل أمره ، خلق الكون عن حب ورغبة ، واقتضت عدالته أن ينتفع القريب والبعيد بفضله،وتتبسط آلاؤه بانتشار أشعته فى أقطار الدنيا بأسرها ، دون تفرقة بين أبيض وأسود ا فلم لا يجتمع الناس اذن على عبادته ، كما اجتمعوا على النفع منه(١٦) .

(٥) اناشيد اخناتون :

امتلأت مقابر العمارنة بالنصوص المنقوشه ، والتى كثيرا ما تشير الى المذهب الجديد بفقـرات وجمل كانت شائعة وقـت ذاك ، وقد أصبحت فى نهاية الامر تكون مجمل مذهب اخناتون ، كما فهمه الكتاب والرسامون الذين قاموا بزخرفة تلك المقابر ، ومن ثم فعلينا ألا ننسى أبدا أن البقية الباقية من مذهب أتون التى وصلـت الينا من جبـانة العمارنة انما قد مرت بشكل آلى بأيدى فئة قليلة من الكهنة المهملين غير المدققين ذوى العقول الخاوية الفاترة ، ممن لم يخرجوا عن كونهم اذنابا لحركة عقلية دينية عظيمة ، وليس هناك من ريب فى أنه ، ماعدا الانشودة الكبرى ، التى وجدت فى مقبرة الملك «آى» فان الرسامين انما قنعوا غالبا بالقطع والنتف التى نقلت أحيانا من الانشودة الكبرى نفسها ، أو من قطع أخرى ، ويضعونها فى هيئة أنشودة صغرى أصبحت الان ذا قيمة علمية كبرى بسبب ضآلة معلوماتنا عن دعوة اخناتون(١٧) .

واما النشيد الكبير ، فقد عثر عليه فى عام ١٨٨٣ م فى مقبرة «آى» (الملك آى فيما بعد) والذى كان واحدا من رجالات الدين الجديد ، ومن أشد المتحمسين له على أيام اخناتون ، وقد لقى هذا النشييد الكبير اهتماما كبيرا من العلماء المحدثين ، لانه يمثل النص الكامل الذى أمكن العثور عليه حتى الان للانشودة التى كانت دون شك من عمل اخناتون نفسه ، ومن ثم فهو مصدر أساسى لذلك المعتقد الجديد ، ولعل هذا هو السبب فى أن علمـاء الايجتولوجى المصريين منهم والاجانب قاموا

---

(١٦) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣١١ .

(١٧) أنظر عن الانشودة الصغرى وترجمتها (محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٣٥٩ ــ ٣٦١) .

بترجمة من النص المصرى الاصلى الى اللغة العربية ، فضلا عن معظم اللغات الاوربية الحديثة ، وهناك ترجمة لهذا النشيد الكبير : ـ

«تجليك فى أفق السماء بديع ، أى أتون الحى ، يا أصل الحياة وبدئها ، انك حين تشرق من جبل النور الشرقى تملأ الارض بجمالك ومحبتك ، انك بوصفك رع تصل الى حدودهم ، وتخضعهم لابنك المحبوب ، انك أنت الاله الذى دان الجميع بحبه ، أنت عال جدا ، ومع ذلك فان أشعتك تشرق على الارض ، أنت فى وجوه البشر ، ومع ذلك فلا يستطيع الواحد منهم أن يتكهن بسر قدومك حين تغيب فى الافق الغربى ، وان الارض تكون فى ظلام كالموات ، الليل ينقضى فى غرف النوم ، والرؤوس مغطاة لا ترى أعين أصحابها ، تسرق أمتعتهم ، حتى وان كانت تحت رؤسهم ، فلا يدركون» •

««الاسود تخرج من أوجارها ، والثعابين تنساب لتلدغ ، والظلام هو الضوء الوحيد ، بينما الارض فى صمت ، لان صانعها يستريح فى الافق ، وتصبح الارض زاهية عندما تشرق فى الآفق ، وعندما تضىء فى النهار كآتون ، وأنت تقضى الظلمة الى بعيد ، وعندما ترسل أشعتك فان الارضين (مصر) تصبحان فى عيد ، يستيقظ الناس ، ويقفون على أقدامهم عند ايقاظك اياهم ، فينظفون أجسامهم ويرتدون ثيابهم ويرفعون أكفهم تعبدا لطلعتك البهية ، ثم ينتشرون فى الارض ليباشر كل منهم عمله ، الزهر نبت الارض ينفتح لمرآك ، وتتملكه النشوة لمحياك ، والانعام تتراقص على أقدامها ، والطيور فى أوكارها تطوى أجنحتها وتنشرها تسبيحا لاتون الحى خالقها ، والحملان تقفز على أقدامها ، وكل ما يطير أو يحط تهتز أعطافه لانك تشرق من أجله ، ومن ثم فالارض بأسرها عامرة بحبك ، السفن تبحر شمالا وجنوبا ، وتعج الطرق بالناس ، والعشب والشجر يتمايل عند ظهور محياك ، والاسماك فى النهر تتراقص لمرآك ، أشعتك تنفذ الى أعماق الاخضر العظيم (البحر المتوسط)» •

«أنت يا من تجعل سائل الذكر ينمو فى المرأة ، ومن يصنع الماء فى البشر ، أنت يا من يأتى بالحياة للوليد ، وهو فى بطن أمه ، انت يامن تسكته بتوقف دموعه انت يا من رعيته فى الجسد ، ثم تعطى الهواء ليتنفس كل من خلقت ، انه ينزل من الجسد فيتنفس فى يوم مولده ، أنت يا من تفتح فمه ، وتخلق له مقومات الحيـــاة ، أنت يا من جعل الكتكوت يشقشق فى قشرته ، أنت يا من منحته الحياة ليعيش فيها ، وقدرت له ميقاتا فى البيضة يخرج بعده ، وهو يصيح (يصوصو) بكل ما لديه من قوة ، ثم يسير على قدميه ابان خروجه من البيضة» .

«ما أكثر اعمالك ، انها على الناس خافية ، انت الاله الواحد الاحد الذى ليس معه سواه ، وليس له من نظير ، برأت الدنيا حسب رغبتك ، وكنت فردا ، خلقت البشر والانعام ، وكل ما يسعى على الارض بقدم ، ويحلق فى الفضـــاء بجناح ، خلقت بلاد خـــارو (سورية وفلسطين) وكوش (النوبة) وأرض مصر ، ووجهت كل فرد الى موطنه ، ودبرت للجميع شئونهم ، فأصبح لكل فرد رزقه ، وتعين لكل فرد أجله ، وان ظلت الالسنة بينهم فى النطق متباينة والالوان متمايزة ، لانك ميزت بين بلاد وبلاد ، أنت تصنع فيضان النيل فى العالم السفلى ، وتأتى به كرغبتك لتهب الحياة لاهل مصر ، أولئك الذين صنعتهم لذاتك ، انت مولاهم جميعا ، أولئك الذين تنهك مـــن أجلهم ، انت مولى كل أرض تشرق من أجلها» .

«آتون يا ضوء النهار ، يا عظيم المجد ، بلدانا نائية تهبها الحياة وترسل الغيث من أجلها ، لقد صنعت نيلا فى السماء (المطر) حيث يموج الغيث فوق الجبال كالاخضر العظيم ، ويسقى الحقول بين القرى ، ما أجمل تدبير رب الخلود ، فيضان فى السماء لاهل القفار وحيوان الفلا ، وما يدب على قدم ، وفيضان سواه لارض مصر ، يأتى اليها من دنيـــا العدم ، الاشعة تغذى كل امرىء ، وحـــين تشرق يحيون وينمون من أجلك ، أنت تجعل الفصول منتظمة لينجح كل ما صنعت ، جعلت هناك شتاء ليعرفوا بردك ، وصيفا ليتذوقوا حرارتك ، خلقت السماء بعيدة

لتضىء فيها ، ولترى كل مـا صنعت ، وأنت وحيد تضىء فى مختلف صورك ، كآتون الحى ، وتبدو لامعا ومشعا ، وأنت بعيد وقريب ، أنت تجعل من ذاتك وحدك ملايين الصور ، مدنا وقـرى ، حقولا وطرقا وانهارا ، كل العيون ترنو اليك لانك أنت أتون ، الذى يشرق فى النهار على الارض» •

«ليس هناك من يعرفك سوى ابنك «نفرو،خبرو،رع ـ وع ان رع»، فقد جعلته عليما بمقاصدك وقوتك ، انك انت الذى وهبتـه الحكمة ، أنت الذى صنعت الدنيا بيديك ، وخلقت الناس كما شئت ان تصورهم ، اذا ما أشرقت عاش الناس ، واذا ما غربت فانهم يموتون ، انك أنت الحياة ، ولا حياة للناس الا بك ومنك ، العيون تستمتع بجمالك حتى تغيب فاذا ما غربت فى الافق الغربى ترك الناس أعمالهم كلها ، ولكنك عندما تشرق ثانية يزدهر ثانية كل شىء من أجل الملك ، الحركة فى كل ساق منذ ان خلقت الارض ، أنت ترفعها من أجل ابنك الذى خرج من صلبك ، الذى يعيش على الحق ، سيد الارضين ، نفـرو ، خبرو ، رع ، وع ان رع ، ابن رع ، الذى يعيش على الحق ، سيد الظهور، البهى ، اخنـاتون العظيم فى خلوده ، مـع زوجة الملك العظمى التى يحبها ، سيدة الارضين ، نفـر نفرو أتون ، نفرتيتـى ، الا فلتعش ولتزدهر الى أبد الآبدين»[١٨] •

(٦) مميزات دعوة اخناتون من خلال الاناشيد :

لعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن أناشيد اخناتون انما تتميز بمميزات منها (أولا) الدعوة الى التوحيد ، والذى يبدو واضحا فى تلك الصفات التى يصف بها اخناتون الهه «أتون» ، فهو عنده اله واحد أحد ، وذلك حين يقول «أنت الاله الواحد الاحد الذى ليس معه سواه ، وليس له من نظير» ، ومن ثم فاننا نرى بوضوح أن اله اخناتون هذا ،

---

(١٨) أنظر عن النشيد الكبير وترجماته الى اللغات المختلفة (محمد بيومى مهران اخناتون ص ٣٦١ ـ ٣٦٦) •

انما هو الاله الواحد ، يعمل وحده دون آلهة وسطـــاء معه ، ليس له عائلة أو حاشية ، وأن دور اخناتون فى الدعوة ربما لا يعدو دور النبى الذى يتلقى الوحى دون وسيط «انت فى قلبى ، ليس هناك من يعرفك سوى ابنك ، قد جعلته عليما بمقاصدك وقوتك ، انك أنت الذى وهبته الحكمه» ، وحتى هذه «البنوة» ليست من نوع بنوة أسلافه الجسدية لربهم امون ، عن طـريق الزواج الالهى ، كما كـــان البعض منهم يزعمون ، وانما هى فى غالب الظن بنوة رمزية ، وهكذا كان اتون ، فى نظر اخناتون ، الخالق الاوحد الذى يوزع القوى الحيوية اليومية على كل الموجودات التى تتجدد ولادتها ، بفضل ذلك ، مع كل فجر ، وفى الواقع فان الاتونية ، كما يقول سير ألن جاردنر ، لم تكن مجرد نظرية طبيعيه ، ولكنها كانت توحيدا أصيــلا ، وأن العظمة الحقيقية لهــذا الداعية تكمن فى الشجاعة الخلقية ، وفى جهاده حتى آخــر لحظة من حياته ، ليزيح عن كاهل المجتمع المصرى تجمعات النفايات الاسطورية الموروثة من الماضى ، والتى تراكمت على عقله ووجدانه ، حتى أوشكت أن تطمس معالم تفكيره الصحيح[١٩] .

ومنها (ثانيا) الدعوة الى دين عالمى ، ذلك أن اخناتون انما حاول أن يقدم للبشرية دينا يعتنقه كل الناس فى كل البلاد ، باذلا الجهد فى أن يحل هذا الدين محل القومية المصرية التى التزمها القوم منذ أقدم العصور ،فعاشوا عليها قبل أيام اخناتون بحوالى عشرين قرنا مضت،ومن ثم فلا غرابة اذا نظر الباحثون الى اخناتون على أنه قد سبق العصر الملائم لظهوره بعدة قرون،ولا غرابة أيضا اذا كان المصرى فى ذلك العصر لم يفهم مغزى ديانة اخناتون ، ولم يستطع التعــرف على كهنها ، وهكذا يمكن القول أن اخناتون انما يمثل عبقرية تم نضجها فى وقت سابق لاوانها ، وان ظهورها فى القرن الرابع عشر قبل الميـــلاد ، انما كان ميلادا مبكرا جدا ، هذا ويؤكد العلامة «برستد» أن الاجل لو امتد باخناتون لاقام عقيدة دينية عالمية مركزها مصر ، ثم تنتشر فى جميع

19) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 227-228.

أنحاء العالم ، معتمدا فى ذلك على اقامة اخناتون معابد لعقيدته الدينية فى جميع أنحاء الامبراطورية المصرية[٢٠] ، ومنها (ثالثا) القضاء على التفرقة العنصرية ، وتظهر هذه الفكرة فى قول اخنــاتون «خلقت بلاد خارو وكوش وأرض مصر» ، ذلك أن الداعية العظيم لم يجد حرجا فى أن يذكر اسم مصر العظيمة بعد ذكره الشام والسودان ، وهمــا من موالى مصر ، ما دام الخــالق الرازق واحدا ، رحيما هنا ، ورحيما هناك ، جوادا هنا ، منعما هناك ، خلق الجميع على اختلاف السنتهم وألوانهم ومواطنهم ، وتكفل برزقهم ، وكان معجزا حين وهب مصر فيضيانا من جوف السماء ، ومن ثم فقد تخلى الفرعون عن الكبرياء التى كان المصريون ينظرون بها الى تلك الشعوب ، فقد كانوا يعتقدون انهم وحدهم الناس (أو الرجال) أما الاجانب فلا ، ومن ثم فقد كانــوا ينظــرون اليهم بازدراء ويطلقون على رؤســائهم لقب «وغد»[٢١] ، ذلك لان اخناتون انما كان يرى أن ربه أتون انما خلق الناس جميعا ، وان ظلته الالسنة بينهم فى النطق متباينة ، والهيئات والالوان متمايزة ، ومن ثم فهم يتساوون فى الحقوق والواجبات .

ومنها (رابعا) التركيز على قدرة الخالق ، الذى يهب قدرة النسل للنساء ويخلق من النطفة بشرا ، ويهب الحياة للجنين وهو فى بطن أمه ، واذا ولد أنطقه ودبر أمره ، ثم هو يعنى بفراخ الطــير ، كما يعنى بأجنحة البشر ، فالفرخ يكون على أهبة «الصوصوة» وهى فى البيضة المحكمة ، يقدر الاله أنفاسه وهو فيها ، ويهبه القدرة على نقرها وهو فيها ، وكاد منطق هذا الوصف أن يقول فهل هناك اله يعبد غير هذا الاله القادر ؟ ، ومنها (خامسا) اظهار الرحمة فى صفات الاله الخالق ، فلقد جهد داعية التوحيد على أن يقــدم الاله الخالق فى صورة الاله الرحيم بمخلوقاته جميعا ، ومن ثم فقد تخيرت الدعوة الجديدة روابط العطف والمحبة ، دون الجبروت والبطش ، واعلنت أن ربها عظيم المحبة

20) J. H. Breasted, Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, 1959, P. 332.

21) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 37.

تفيض الآؤه على العالم بأسره ، ويضفى على الدنيا كلها بهاء وجمالا ، وليس من شك فى أن هذا التفكير الجديد فى الآتونية انمـا يرفع من شأنها الى حد كبير فوق كل ما وصلت اليه ديانة المصريين القدامى أو ديانات الشرق بأجمعه حتى ذلك الوقت ففى الانشودة الصغرى يوصف أتون بأنه أب وأم لكل من خلق ، بعد أن كان الملوك السابقون يعتقدون أن الاله الاعظم هو الذى يهب النصر ويسحق الاهالى ويسوقهم حاملين الجزية أمام عجلة فرعون ، اما اخناتون فقد رأى فى الاله رأفة ورحمة لخلقه جميعا على السواء ، ويعتبر هذا المذهب أقدم ما عرف من علم التوحيد (من غير الانبياء) ، ولاشك أن القارىء لتعاليم هذه العقيدة يتضح له أنها اعتراف صحيح بوحدانية الله وبرحمته ورأفته ، ووجود سره المكنون فى كل مخلوقاته[٢٢] ، وفى الواقع أننا لو تتبعنا تطـور الانسان وتقدمه خلال الاف السنين ، فاننا لن نرى (من غير الانبياء الكرام) أحدا قبل اخناتون عرف الصورة الصحيحة للاله الواحد الرحيم بكل الكائنات ، وهذا لاله الخالق المعين الرحيم قد اعطى نعمه للبشر أجمعين ، فضلا عن جميع المخلوقات الحية فى كل مكان ، ولم يقتصر ذلك على المصريين وحـدهم ، ومن أجل هـذه النعم كان العابدون يرفعون شكرهم وخضوعهم للاله أتون[٢٣] .

ومنها (سادسا) التفسير العلمى لفيضان النيل ، اذ نادى اخناتون بأن الفيضان انما يرجع لاسباب طبيعية يسيطر عليها الاله أتون ، وهو الذى خلق كذلك نيلا آخر فى السماء (أى المطر) لغير مصر من الاوطان، ومنها (سابعا) الدعوة الى الصدق ، فقد كان الداعية العظيم شغوفا بالصدق ، قولا وفعلا ، يبدو هذا واضحا فى فنون ذلك العصر ، وفى أقواله هو نفسه والتى منها «أننى أعيش على الصدق ، وأتزود من عدالة قلبى» ، بل انه انما ذهب فى هـذا الى أن يسمى عاصمته الجـديدة «أخيتاتون» بمعنى مكان أو مقر الصدق ، ومنها (ثامنا) أخراج الدين

---

22) J.H. Breasted, A History of Egypt, P. 377, The Dawn of Conscience, P. 291-292.

23) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 229.

الى العلانية ، ومحاولة القضاء على ما كان فى الديانات القديمة للالهة الاقوياء الاثرياء من ابتعاد عن الناس ، وما أحاطوها به من أسرار ومن ثم فقد كانت المراسم الدينية تقام فى المعبد ، وكان هيكله مفتوحا فى الهواء الطلق ، لا يحوى أية تماثيل للاله آتون ، وهو أمـــر كان يعد غريبا عن التقاليد المتوارثة بالنسبة للطقوس التى لم تعد تتبع كما كانت من قبل ، لانه لم يعد هناك تمثال للمعبود ، لكى يخرج فى موكب ،كما كان يحدث من قبل ، ومنها (تاسعا) تقدير اخناتون لتجلى قدرة الله ، سبحانه وتعالى ، فى العالم الحسى ويبدو هذا واضحا فى أنه من أعمق المصادر لدعوة اخناتون اعتمادها على التأمل فى عالم الطبيعة ، ولان اخناتون كان رجلا مأخوذا بالاله ، فقد انقاد عقله بحساسية وادراك مدهشين الى ما حوله من المظاهر المرئية الدالة على وجود الاله ، فقد كان الرجل مأخوذا بجمال النور الابدى العالى ، ومن ثم فاننا نرى أشعته فى كل أثر صور عليه من آثار بقيت لنـــا[٢٤] .

(٧) اخناتون والتوحيد :

لا ريب فى أن ما سبق انما كان سببا فى أن يبلغ الاعجاب ببعض الباحثين فى هذا العصر الى تمجيد اخناتون تمجيدا يكـــاد يرفعه الى مرتبة الانبياء ، ذلك لان الرجل انما قد نجح فى ذلك الوقت من تاريخ الانسانية فى ان يدعو الى عبادة اله واحد ، ونبذ ما عـــداه من آلهة أخرى ، وبهذا كانت دعوته أول صيحة عالمية عرفتها الانسانية للدعوة الى التوحيد ، أو على الاقل دعوة بلغت بالتوحيد مرتقاة فى تلك الفترة من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وبلغت بتنزيه الاله غاية لم تدركها حتى اليوم بعض الامم فى الشرق أو الغرب اذ كان اخناتون أول من بشر الناس (من غير الانبياء) باله واحد ، لا شريك له ، وقال عنه فى أناشيده «اللهم انك أنت الاله الواحد الاحد ، الذى ليس معه سواء ، وليس له من نظير ، برأت الدنيا وكنت فردا ، خلقت البشر والانعام ،

---

(٢٤) محمد بيومي مهران : اخناتون ص ٣٦٦ ــ ٣٨٢
F. Daumas, Op. Cit., P. 321-322, 326, J. H. Breasted, Op. Cit., P. 292-299.

وكل ما يسعى على الارض بقدم ، ويخلق فى الفضـــاء بجناح» ، هذا فضلا عن أن أناشيده وآراءه انما قد تركت اثرا على من جاء بعده من مفكرى الشعوب ، حتى أن كثيرا من العلماء انما يذهبون الى أن نشيده الكبير انما كان أصل المزمور ١٠٤[٢٥]، ومن ثم فقد ذهب بعض الباحثين الى أن اخناتون انما كان أول صاحب نظرية فى التاريخ ، وأن دعوته انما كانت دعوة توحيد بأجلى معانى التوحيد ، وأنه ازاح بدعوته هذه ، تلك الكومة من الخرافات غير الرشيدة ، والتى تكون جزءا من المعتقدات فى مصر القديمة ، وأنه لم يكن يعبد قرص الشمس ، وانما كان يعبد تلك القوة التى وراء هذا القرص ، ومن ثم فان دعـــوة اخناتون انما تمثل قمة التطور فى الافكار الدينية قبل عصر أنبياء اليهود فهى تدعو الى عبادة اله واحد للعالم كله ، خلق الحياة وحافظ عليها ، وأن اخناتون انما قد أدرك من وجود الله ، سبحانه وتعالى ، قدر ما نستطيع نحن أن ندرك من وجوده[٢٦] .

والرأى عندى أن اخناتون العظيم كان أول داعية للتوحيد من غير الانبياء أو على الاقل أول من سلك الطريق المستقيم الى دعوة التوحيد ، وذلك حين نادى بآله واحد لا شريك له ، ولعل من أهم الادلة على ذلك (أولا) أن اخناتون انما قد نزه الهة آتــون عن أن يكون له شبيه أو نظير ، ومن ثم فلم نعثر حتى الان على أى صنم يصور فيه اخناتون ربه أتون ، سواء أكان هذا الصنم فى صورة انسان ورأس حيوان ، أو غير ذلك من الصور ، بعكس الالهة المصرية الاخرى ، التى كانت تصور قبل عصر اخناتون أو بعده فى صورة حيوانية أو انسانية ، كما رأينا من قبل ، ثم جاء اخناتون ورفض تماما أن يكونَ لالهه أتون صورة أو تمثال ، ولعل فى هذا ما فيه من دلالة على ان اخناتون لم يكن يقدس الشمس أو قرصها ، على انها شىء مادى ، وانما كرمز لكائن مقدس ،

---

(٢٥) أنظر عن نشيد اخناتون والمزمور ١٠٤ (محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٤٥٣ ــ ٤٦٢)

26) H. R. Hall, Op. Cit., P. 298-300. A. J. Wilson, Op. Cit., P. 266; A. Weigall, Op. Cit., P. 2.

تتم هذه الاشعة التى يرمز بها الداعية لربه عن قدرته ، وليس كصورة لـــه •

ومنها (ثانيا) أن ديانة اخناتون لم تعرف «التثليث» الذى اعتدناه فى الديانة المصرية القديمة ، فليس فيها كديانة أمون مثلا أسرة الهية تتكون من أمون الزوج ، وموت الزوجة ، وخونســـو الابن (أو الاله الاب والالهة الام والاله الابن) أو عقيدة بتاح (بتاح وسخمت ونفرتم) أو اوزير (أوزير وايزه وحور) ، وانما كان آتون عند اخناتون ، وأتون وحده ، هو الاله الواحد الاحـــد ، ليس له زوجـــة ، وليس له ابن ومنها (ثالثا) أن اخناتون نزه الهه أتون عن أن يكون الها خاصا ببلد دون آخر ، وانما جعله الها للعالمين ، خلق البشر والانعـــام ، وكل ما يسعى على الارض بقدم ، ويحلق فى الفضاء بجناح ، كما خلق سورية والسودان وأرض مصر ، ومن ثم فلم تكن ديانة اخناتون مقصورة على المصريين وانما شملت كل البلاد ، وكل المخلوقات ، ومنها (رابعا) أن دعوة اخناتون قد محت دون تردد تلك الاساطير والتقاليد التى كانت تعطى «أوزير» مكانة غير عادية فى الديانة المصرية ، ومن ثم لم يرد له ذكر فى وثائق دعوة اخناتون أو فى قبور العمارنة ، وذلك حـــين نبذ الاسطورة التى تقول أن النيل هو أوزير ، ثم نسب الفيضان الى قوى طبيعية يسيطر عليها ربه أتون •

ومنها (خامسا) أن اخناتون قد بلغ فى تنزيه الهة غاية لم تدركها حتى الان بعض الامم فى الشرق والغرب ، وذلك عندما أمر بفحص الاثار المصرية جميعا ، ومحو كلمة «الالهة» حيثما وجدت منقوشة عليها فى صيغة الجمع ، لان الاله فى عقيدة أتون واحـــد لا يجمع ،ومنهـــا (سادسا) ان اخناتون قد قضى على جميع أنـــواع الشعوذة والدجل اللذين كان يمارسهما الكهان فى الديانة المصرية ، فالحملة التى قام بها الكهان على عالم الاخلاق بالعوامل السحرية الالية لضمان براءة الميت فيما بعد الموت ، قد أقصاها اخناتون بداهة عـــن تعاليمه ، فصارت الجعل (الجعارين) التى كانت مألوفة من قبل ، لا تنقش فوقها التعاويذ

السحرية لاخماد وحى الضمير عند الميت المتهم ، بل صارت وقت ذلك تنقش فوقها أدعية بسيطة موجهة الى أتون طلبا لحياة طويلة وعطف وطعام ، والامر كذلك بالنسبة الى الدمى (الاوشبتى) وهى تماثيل صغيرة كان الغرض منها القيام بالاعمال بدلا من الميت اذا طلب منه ذلك فى الحياة الاخرى[٢٧] •

(٨) النكسة :

مات اخناتون حوالى عام ١٣٥٠ ق•م ، ولم يكن قد تهيأ للدعوة من كثرة الاتباع ، ما كان يؤمل لمثلها ، ومن ثم فلم يكد الاجـل ينته بصاحبها حتى رأينا عوامل التحلل والفشل تدب فيها من حيث ظـن الخير ، ومن حيث لم يحتسب ، وهكـذا فما أن يمضى حين من الدهر حتى تعود الامور الى ما كانت عليه قبل اعتلاء اخناتون العرش حوالى عـام ١٣٦٧ ق•م ، فينبذ القوم تعاليم الداعية العظيم ، ويعيـدوا العبادات القديمة الى ما كانت عليه من قبل ، فضلا عن فتح معابدها التى كانت قد أغلقت ، ويقدم لنا المؤرخون أسبابا للنكسة تختلط فيها الاسباب السياسية بالدينية ، وهذه الاخيرة بالاقتصادية ، حتى بات من الصعب علينا أن نفضل بين هذا السبب أو ذاك •

ولعل من أهم أسباب النكسة[٢٨] (أولا) انتقال الملك من طيبة الى العمارنة ، ورغم أهمية هذا الاجراء لتأمين الدعوة ، فقد أتاح فرصة نادرة لكهان أمون لتدبير المؤامرت واشعال نيران الثورة ضد اخناتون البعيد عنهم فى عاصمته الجديدية اخيتاتون ا ومنها (ثانيـا) انحراف حاشية الفرعون بعد مماته ، عندما أطلت الاضطرابات بوجهها القبيح على أرض الكنانة وأصبح المستقبل غير مأمون ، ومن ثم فقد شرعوا فى الخيانة ، وهكذا ربما أمكن القول أن اخناتون لم يترك بعد مماته أتباعا

---

(٢٧) عن اخناتون والوحدانية أنظر (محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٤٦٣ ـ ٤٨٤) •

(٢٨) عن أسباب النكسة أنظر (محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٣٨٣ ـ ٤٠٣) •

ومريدين ، يناضلون من أجل الحفاظ على الدعوة ، ويستشهدون دفاعا عنها ، ولو جدت دعوة التوحيد هؤلاء لاستمال استشهادهم فى سبيل دعوتهم كثيرا من الناس الى هذه الدعوة ، ولتغير تاريخها ، بل وربما تاريخ الديانة المصرية القديمة كلها .

ومنها (ثالثا) انهيار النفوذ المصرى فى غربى آسيا واستبداله الى حد كبير بالنفوذ الحيثى ، ورغم أن اخناتون قد بذل جهده لايقاف الكارثة عسكريا ، فضلا عن روح المساواة والتى دعا اليها ، ورجا منها أن تحقق العالمية لدعوته ، وتجتذب شعوب الشرق الى طاعته ، الا أن جهوده لم تأت بالثمرة المرجوة منها ، مما كان سببا فى بعد رجال الجيش عن الدعوة وكرههم لها ، ذلك لان انصراف الفرعون الى دعوته انما كان — بجانب تضليل المخادعين له عن حقيقة سير الامور فى الامبراطورية — سببا فى ضياع معظم هذه الامبراطورية فى غربى آسيا ، واستغل الحاقدون من الكهان ومرتزقة المعابد ، ذلك كله ، فأوقدوا نار الحقد فى نفوس رجال الجيش ، الذين خسروا بدورهم تلك الهبات الضخمة من الاسرى والسبايا ، فضلا عن الاراضى الزراعية التى كانت تمنح للشجعان من القادة والجنود[٢٩] .

ومنها (رابعا) أن اخناتون حين ظهر بدعوة التوحيد والمساواة بين عباد الله ، انما ظهرت هذه الدعوة من قصر الحكم فى الدولة ، كأنها مراسيم الملك وقوانين الحكومة ، ولم تلبث أن بطلت من قصر الدولة نفسه بمراسيم من قبيل تلك المراسيم ، وكذا قوانين يطيعها الناس أشد من طاعتهم لتلك القوانين ، لانها تستعين بدهاء الكهان وسلطان العرف والعادة .

---

(٢٩) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٠ — ٢١ ، وكذا
W. C. Hayes, Op. Cit., P. 326.
وكذا C. Aldred, Op. Cit., P. 64.
وكذا H. R. Hall, Op. Cit., P. 301-302.

ومنها (خامسا) أن العبادات القديمة كانت أشــد رسوخا من أن تعصف بها دعوة جديدة لم تتأصل جذورها،تقوم بها أقلية من المفكرين، وان تزعمها الملك ، وكان رجال الدين ، وخاصة كهان آمون ، قوة تعتمد على مشاعر العامة وتمسكهم بتقاليدهم ، ومن ثم فلم يكن من السهل التغلب عليها ، هذا فى الوقت الذى اطمأن فيه اخنــاتون كثيرا الى منطقية دعوته •

ومنها (سادسا) ان اخناتون لم يجر على سنة الموحدين فى هذه الدنيا ، وانما أراد الطفرة الى حد ما ، وبخاصة على أيام العمارنة ، ونسى أن طبيعة الاشياء ، فى معالجة أمور الدين بخاصة ، تآبى الطفرة وترفضها ، ولعل السبب فى ذلك ان اخناتون انما كان يرى أن عبادة أتون لا تخرج عن كونها التفسير الصحيح للعقائد الدينية المتوارثة ، وأ دعوته لن تجد كثيرا من المعارضة ، ومنها (سابعا) الأزمة الاقتصادية التى نشأت بسبب تكاليف بناء العاصمة الجديدة للاله أتون ، مما أدى فى النهاية الى انفاق أموال طائلة على تلك المبانى الضخمة . فضلا عن حرمان الزراعة من الايدى العاملة التى استغلت فى المبانى ، الى جانب التسيب فى الادارة والفوضى التى انتشرت فى جنوب الصعيد •

ومنها (ثامنا) أن موضــوع الوحدانية الاتونية ينبغى أن يكون متكامل الجوانب الدينية الاخرى،حتى تقدم لنا عقيدة توحيدية متكاملة، وعلى سبيل المثال فان دعــوة اخناتون لم تتعرض بصــورة واضحة لموضوع الخلود ، واستمرار الحياة فى العالم الاخر ، الامر الذى كان ذا أهمية خاصة فى الديانة المصرية ، ومنها (تاسعا) أن المعتقد الاتونى لم تكن له شعبية كبيرة فى المجتمع المصرى . ذلك لان المعتقدات المحلية فى الاقاليم كانت لها فاعليتها الشعبية . وكــان من الضرورى توفير الوقت اللازم لاحداث التغيير فى الفكر الدينى عند العامة من القوم ، الامر الذى لم يتوفــر للاتونية . سواء على أيــام الداعية أو بعد

ممـاته[٣٠] .

ومنها (عاشرا) أن دعوة اخناتون كانت سابقة لعصرها ، ومن ثم فلا غرابة اذا اعتبر صاحب الدعوة كان يعيش متقدما عن عصره ، وذلك بسبب عبقريته الفذة ، وبالتالى فلا غرابة أيضا ان كان المصرى المعاصر لها لم يفهم مغزاها ، ولم يستطع تعرف كنهها ، فاخناتون دون شك انما كان يمثل عبقرية تم نضجها فى وقت سابق لاوانها ، وأن ظهورها فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد انما كان ميلادا مبكرا جدا لها[٣١] .

وأيا كان الامر ، وأيا كانت الأسباب التى ادت الى نكسـة دعوة التوحيد التى نادى بها الداعية العظيم ، فان التاريخ لن ينسى أبدا ، أن اخناتون انما كان أول داعية الى التوحيد (من غـير الانبياء) عرفته البشرية ، وذلك حين دعا الى عبادة اله واحد فرد صمد ، ونبذ ما عداه من آلهة أخرى ، وبهذا كانت عقيـدة أتون أول صيحة عالمية عرفتهـا البشرية جمعاء للدعوة الى التوحيد ، أو على الاقل الى ما يقرب من التوحيد ، اذ كان أول مـن بشر الناس ، كل الناس ، باله واحـد ، لا شريك لـه .

(٩) العودة الى الوثنيـة

مات اخناتون بعد ان ادى واجبه وأعلن دعوة التوحيد عالية مدوية فى كل أرجاء العالم القديم ثم جاء على أيامه ، وربما بقى بعده حينا من الدهر ، أخوه «سمنخ كارع» ، الذى خلفه أخ آخر له ، هو «توت عنخ آمون» ، الذى نصبه كهان أمون على عرش الفراعين ، وهو بعد صبى لم ييفع ، فمكن لهم وأطلق أيديهم فى شـئون الدنيا والدين ،

---

(٣٠) عباس العقاد : المرجع السابق ص ٨ ، ١٤٢ ، أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٦٠٩ ، عبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق ص ١١٥ — ١١٦ وكذا

C Aldred, Op. Cit., P. 156-157, 177.

W. Edgerton, Op. Cit., P. 162-160.

(٣١) الكسندر شارف : المرجع السابق ص ١٤٠ .

وبدهى أن كهان أمون ما كانوا على استعداد لاضــاعة فرصته تتويج الملك الطفل ، دون الافادة منها فى اعادة سيادة أمون وتوطيد نفوذه بصفة رسمية ، ومن ثم فقد أقيمت احتفالات تتويجه فى معبد أمون فى الكـــرنك •

وهكذا سرعان ما أعلن الملك الصبى العفو الشامل وأخذت المنازعات الدينية الى المهادنة ، بل سرعان ما أعلن توت عنخ أمون ولاءه لامون وكهانته الجبارة ، فغير اسمه واسم زوجته ، بأن حـــذف منها اسم أتون ، مستدلا أياه باسم أمون ، ثم قام بترميم معابد أمون التى هدمها أو خربها اخناتون ، وأرجع الى الاله أمون ما كان له من ضياع وثراء ، بل ضاعفها له ، ثم أضاف الى لقبه كنية «حاكم أون الجنوبية» (طيبة) وهذا يعنى أن طيبة ، وليس العمارنة ، انما اصبحت عاصمة البلاد[٣٢] •

هذا وقد بدأ توت عنخ أمون يقدم القرابين الى ثنائى الهة الكرنك ، أمـــون وموت ، ولكنـــه ، كملك لمصر جميعـــا ، انما قـــد زعم أنه « المحبوب من أتوم حـــر أختى فى هليـــوبوليس ، ومن بتـــاح فى منف » فضلا عن الالهة الاخرى ، وهكذا فان القوم بعد اخناتون ، وعلى أيام توت عنخ أمـــون ، قد نبذوا العقيدة الاتونية التى ألغـــت العبادات القديمة ، ومن ثم فقد تركوا التوحيد ، وعادوا الى التعدد مرة ثانية ، حيث الافكـــار القديمة التى يجمع فيها «الاله الخـــالق» مجموعة الالهة الاخرى ، لتعبر عن صفات وخاصيات الاله الواحد ، مع الاعتراف ، فى نفس الوقت ، بهذه الالهة الاخرى •

وهكذا عادت الامور سيرتها الاولى ، غير أن الخطوة الحاسمة انما تمت على يد «حور محب» الذى قاد حملة رهيبة ضد الاتونية ، ومن ثم فقد أرسل فرقا من العمال الى العمارنة محوا معظم المبانى ونهبوها وحطموا كل شىء تحطيما منظما ، ثم صبوا الملاط فى كل مكـــان ، ثم

---

(٣٢) انظر : محمد بيومى مهران : مصر ـ الجـزء الثالث ـ ص ١١٩ ـ ١٢١ ، ثم أنظر عن الاتونية ص ١٥٥ ـ ١٩٣ .

حلوا كثيرا من أحجار اخيتاتون لاستعمالها فى أماكن أخرى ، وخربت المقبرة الملكية ونهب أثاثها الجنزى ، حتى الاوانى الصلبة فيها كالتوابيت والصناديق الحجرية للاوانى الكانوبية ، كما حطمت النقوش التى على الجدران ، ولم يكن حظ المقابر الخاصة بافضل من حظ المقابر الملكية فقد نالها من التدمير ما نال مقبرة اخناتون ، ونال معبد العمارنة الكبير ما نال المدينة نفسها ، فقد اجتث من فـوق الارض وتحطمت تماثيله ورسومه الى قطع صغيرة كومت فوق بعضها خارج الجدار الجنوبى للمعبـد (٣٣) •

وجرت الامور فى الاقاليم على هذا النحـو ، من الدلتـا الى السودان ، فقد انزل حور محب نقمته وصب جام غضبه فى كل مكان ، ولم ينس بصفة خاصة اخميم ، موطن بعض أفراد أسرة العمارنه ، وأرسل الى كل مكان فرقا من العمال تكتب من جديد أسماء اله طيبة ، وترمم أشكاله التى كان اخناتون قد أزالها ، وفى المواقع فلقد أدى حور محب دوره ، الذى رسمه له كهان آمون ، أو رسمه هو لنفسه ، كاملا، وبكل قسوة وضراوة فى ازالة كل مايذكر الناس بأيام العمارنة ودعوتها كما كان حريصا فى كل مناسبه على أن يذكر الدور المشئوم الذى آداه اخناتون ، ومن ثم فما كان يشير الى الداعية العظيم الا باسم «المجرم» أو «ذلك العدو من اخيتاتون» ، ثم هجرت العمارنة بعـد ذلك ، ولم تشغل مرة ثانية كعاصمة ، ومن هنا كانت خرائبها التى تكشف لنا عن صورة العاصمة المصرية القديمة فى لحظة ثابتة معينة •

وهكذا جعل «حور محب» من نفسه البطل الذى رد الى معـابد أمون وكهانتها مكانتها واعتبارها بل ان حور محب وخلفاءه من فراعين الاسرة التاسعة عشرة ، حاولوا أن يعوضوا امون بطريقة مبالغ فيها ، عن الخسائر التى لحقت بأمون ومدينته أبان عهد العمارنة ، فهم الذين

33) C. D. Noblecourt, Tutankhamen, 1963, P. 182-185; C. Aldred, Op. Cit., P. 65-66; F. Giles, Op. Cit., P. 138-139; W. C. Hayes, Op. Cit., P. 284-85.

أقاموا اله تلك المبانى الضخمة التى لم يستطع أى بلد أو أى عصر آخر أن يشيد ما يماثلها ، وهكذا أدت الاحداث الآنفة الذكـــر الى عودة آمون وكهانته الى سابقة عهدهم قبل عصر اخناتون ، بل لقد اصبحوا أقوى مما كانوا فى أى وقت مضى ، ونقرأ عن روح الشماتة فى نص من عصر الرعامسة على لخاف بالمتحف البريطانى يهاجم اخنـــاتون فى فقرة منه تقول «أنت تصل الى من ينبغى عليك ، مدينتك تبقى ، ولكن من يهاجمك يهوى ، ان شمس من لا يعرفك (أى اخناتون) قد غربت يا أمون ، وأما من يعرفك فانه يضىء ، ان بلاط من هاجمك فى ظلام، بينما الارض كلها فى نور»(٣٤) .

على ان السيادة المطلقة لم تصبح لامون وحده ، وانما شاركه فيها رع وبتاح ، ومن ثم فقد أصبح الثلاثة (أمون ورع وبتاح) هم الالهة التى كانت تعبد بعد عصر اخناتون ، وان كانت طيبة ، مدينة أمون ، انما هى صاحبة المكان الاكثر قداسة ، وان لم تعد مقر الملك ، الذى نقل الى «بر ـــ رعمسيس» (تنتير) ، وان كان هـــذا لا يعنى ضياع مكانة الالهة الاخرى مثل حتحور وتحوت وأوزير وغيرهم ، وانما يعنى ان مكانة هذه الالهة قد تضاءلت كثيرا أمام أمـــون ورع وبتاح ، كما كان لآمون مكان الصداره .

وما ان يمضى حين من الدهر حتى يظهر الاله ست ، كصاحب مكانة ممتازة فى الاسرة التاسعة عشر ، بصفته الاله المحلى لهذه الاسرة ومن ثم نرى الفراعين يقدرون ســـت كثيرا ، حتى أن جيـــوش رعمسيس الثانى لم تطلق عليها أسماء امون ورع وبتاح ، وانما ســـت كذلك ، ومع ذلك ، فرغم أن كهانة أمون كان لها مكان الصدارة بين الكهانات الاخرى ، فلقد عمل الملوك على اضعافها ، ومن ثم فقد وزعوا مظاهر

34) A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 235, JEA, XL 11, 1957, P. 23, C. D. Noblecourt, Op. Cit., 185. J. H. Breasted, Ou. Cit., P. 307; A. Erman, LAE, P. 370; Daumas, Op. Cit., P. 327.

عقيدتهم بين أرباب البلاد الكبرى ، ولعل هذا هو السبب الذى جعل الملك سيتى الاول يقيم أجمل مبانيه على الاطلاق فى أبيدوس ، قلعة أوزير ، وليس فى طيبة ، قلعة أمون هذا فضلا عن أن المعبد انما بمثابة مصلى وطنى فقد أقيمت الى جانب مصلى أوزير ، محاريب منفصله لزوجته ايزه وولدهما حور ، فضلا عن محاريب أخرى من نفس الحجم وبنفس الاهمية ، كرست للالهة الثلاثة الهامة فى المدن الرئيسية ، لامون اله طيبة ، ولبتاح اله منف ، ثم لرع حر أختى معبود هليوبوليس •

ولعل هذا كله انما يشير بوضوح الى عودة الوثنية وتعدد الآلهة ، من ناحية ، كما يشير كذلك الى أن سيتى الاول ، انما يحاول من ناحية أخرى ، أن يباعد بين كهان أمون وبين اعتقادهم أن الههم أمون ، هو الاله الاوحد والاكبر وانما جعله فقط واحدا بين الالهة الكبار ، وفى أحسن احوال كان أمون الاول بين أقرانه ، وما يهمنا هنا كثيرا انما هو عودة الوثنية ، وضياع عقيدة التوحيد شيئا فشيئا الى أن اختفت ، وعاد القوم مرة أخرى الى التعدد يطيلون فيه ويعيدون[٣٥] •

---

(٣٥) محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٤١ ـ ٤١٨ ، أدولف ارمان : المرجع السابق ص ١٥٣ ـ ١٥٦ •
A. Gardiner, Op. Cit., P. 250.

الفصل الخامس

عقائد البعث والخلود

(١) فكرة البعث عند المصرى القديم ومقوماتها :

كان المصريون القدامى من أوائل الامم ، ان لم يكونوا أول أمه آمنت بالبعث والخلود بعد الموت فى حياة قد لا تختلف فى جوهرها عن حياتهم فى العالم الدنيوى ، وقد كان بناء الاهرامات وغيرها من العمائر الدينية الضخمة نتيجة سيطرة الدين على المصريين وأثـره فى حياتهم وتفكيرهم ، فالدين — كان ولا يزال وسيظل — أكبر قوة تؤثر فى حياة الانسان ، كما انه كان منفذا للخيالات ومحاولة لتفسير الظواهر المحيطة به ، ذلك التفسير الذى أوحى اليه بفكرة الخلود ، أو الحياة بعد الموت ، هذه الفكرة كان قد اعتنقها القوم وكان لها أكبر الاثر فى نفوسهم ، بل انه ، فيما يرى برستد ، لا يوجد شعب قديم أو حديث بين شعوب العالم احتلت فى نفسه فكرة الحياة بعد الموت المكانة العظيمة التى احتلتها فى نفس الشعب المصرى القديم[1] .

وكان من نتائج ذلك أن تترك لنا القوم عددا هائلا من المقابر والاهرامات والمعابد التى لا يمكن حصرها ، بينما لا نجد الا قليلا من المنازل التى كان يعيش فيها القوم ، بل ان العواصم الكبرى ، كمنف وطيبة ، قد اختفت ولم تكد تترك من بعدها أثرا ، ولعل السبب فى ذلك أن الاولى أبدية ، وأن الثانية وقتية .

وهناك ما يشير الى أن فكـرة البعث والخلود انما قد بدأت قبل

1) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y. 1939,P. 45.

التاريخ بالاف السنين ، ومن هنا رأينا أصحاب حضارات العصر الحجرى الحديث يضعون شيئا من القرابين لموتاهم ، ففى مرمدة بنى سلامة لا يضع القوم شيئا من القرابين لموتاهم سوى حفنه من الحبوب ، توضع أحيانا على مقربة من أفواه الموتى ، أعتقادا منهم بان دفنهم بين المساكن يغنيهم عن القربان ، ويهيء لأرواحهم أن تشارك أهلها فيما يطعمونه ويشربونه فى دنياهم ، ولا تشارك مرمدة فى ذلك غير حلوان العمرى ، وأما بقية القرى المعاصرة فقد اعتاد أهلها دفن موتاهم خارج المساكن ، ومن تم فقد اهتموا بتقديم القرابين ، ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وان كانت اكتشافات «ايفا نجر» فى مرمدة عام ١٩٧٨ م تشير الى أن وجهة النظر هذه انما تحتاج الى اعادة نظر ، بخاصة وأن احدى المقابر قد قدمت لنا ثلاثة أوان فخارية سليمة مع بعض الشقف ، وأياما كان الامر ، فقد كان أهل مرمدة يدفنون موتاهم بين أكواخ الأحياء أو فى داخلها ، وكان الموتى يرقدون على الجانب الايمن ، بحيث يتوجهون بوجوههم ناحية بيوتهم ، وان حدثت حالات كان المتوفى يرقد فيها على جانبه الايسر ، وبشكل نادر جدا على الظهر[٢] •

وكانت مقابر حلوان العمرى فى القرية نفسها ، أو على مقربة منها ، وربما بعيدا عنها بعض الشيء ، وكان الموتى يوسدون فى وضع الجنين ، والى جانب الواحد منهم قرابين لا تعدو اناء من الفخار ، وان وجدت عند البعض الاخر باقة من الزهور عند صدر الميت ، على أن هناك حالات معدودة ، منها ان واحدا من الموتى وجد خلف رأسه صندوق من الصلصال ، وآخر بجانب يده صولجان ولعل الحالة الاخيرة ، ربما تشير الى وجود رئيس ، وبالتالى حاكم ومحكومين ، هذا فضلا عن الاشارة الى الاعتقاد بتجهيز المنزل الابدى بالادوات التى كان يستخدمها الميت فى حياته الاولى •

---

2) H. Junker, Merimade Benisalame, I, P. 194-195, II, P. 51, III, P. 72-74, IV, P. 77; J. Eiwanger, Sonderuck aus den Mitteilungen des Deutschen Anchaologischen Instituts Abteilung Kairo, 35, 1979, P. 26-28.

هذا الى أن جثث الموتى انما قــد وضعت على جنبهــا الايسر ، واتجهت الرأس الى الغرب حيث تغرب الشمس ، وتبـــدأ دورتها فى العالم السفلى ، ومن ثم فربما أراد القوم بذلك التقليد الدينى ربط أنفسهم بما يحيط بهم من ظواهر كونية معينة[٣] ، وان ذهب «تشرنى» الى أن اتجـــاه وجوه الموتى الى الغرب انما يرجـــع الى أن الصحراء الشرقية كانت مطروقة لدى القوم ، وتنتهى عند البحـــر الاحمـــر ، بعكس الصحراء الغربية التى تغرب الشمس فى اتجاهها والتى لم يعرف القوم لها حدودا كالابدية التى لا حدود لهــا[٤] .

ومع ذلك فقد كان المتــوفى فى جبانة نقــادة ، وهى أكبر جبانات ماقبل التاريخ ، توضع رأسه جهة الشمال ، ووجهه نحو الشرق ، وعلى أى حال ، فان القوم ظلوا دائما يتخيلون الغرب علما على مملكة الموتى ، وحتى اذا تطلب موقع مكان ما أن تقام جبانته على الشاطىء الشرقى من النيل ، فان كتابات المقابر تتحدث رغم ذلك عن «الغرب الجميل»[٥] الذى يبلغه المتوفى ، وهكذا أقيمت خلال الاف السنين مقابر لا حصر لها على حافة الصحراء الغربية .

وكان أصحاب الحضارة التاسية يدفنون موتاهم ملفوفين فى حصير أو فى جلود الحيوانات ، ثم يضعونهم على الجانب الايسر ، على هيئة الانثناء ، بحيث تتجه الرأس نحو الجنوب ، والوجه نحو الغرب ، طبقا للعادة المصرية القديمة ، وكانت جبانتهم بعيدة عن مساكن الاحياء[٦] . هذا وقد استمر القوم على أيام حضارة البدارى (من العصر الحجرى النحاسى) فى العناية بالادوات التى توضع مع الميت ، ثم بدأوا عادتين جديدتين ، الواحدة وضع الميت على لوحة بسيطة ، والاخـــرى تبطين

---

3) F. De Bone, El-Omari, ASAE, 48, 1948, P. 567-568.
4) J. Cerny, Ancient Egyptian Religion, London, 1952, P. 16.
5) N. de G. Davies, The Rock Tombs of Shekh-Said, London, 1951, P. 25.
6) G. Brunton, Mostagadda and the Tasian Culture, London, 1937, P. 5-7.

جوانب القبر بالحصير ، هذا فضلا عن أن القـــوم انما كانوا يضعون رؤوس موتاهم فوق وســـائد ، ويحرصون على ان تكون وجوههم نحو الغرب ، وان وجدت حالات استثنائية قليلة اتجهت وجوه الموتى فيها نحو الشرق[٧] .

وقد حاولت «مرجريت مرى» ان تستنتج من ذلك نتيجتين تنطبق كل منهما على الوضعين السابقين ، استنتجت ان اتجاه الموتى نحو الغرب انما قصد به ان يستقبل روحه عندما تعود اليه من عالم الغرب ، وهو عالم الموتى فى العقائد المصرية القديمة ، واستنتجت مـن الاتجاهات الاستثنائية المتجهة نحو الشرق أن أصحابها كانوا من غير البداريين ، من جماعات عبدت الشمس ، وحرصت على أن تتجه بوجـــوه موتاها نحو شروقها[٨] ، الامر الذى تكرر فى حضارة جـــرزة ، ممـــا يوحى بامكانية وجود عقيدة شمسية ، الامر الذى تؤكده حضارة ايونو (عين شمس) منذ وقت مبكر ، وهناك ما يؤكد تطور فى عقائد البداريين ، وايمانهم باستمرار الحياة فى العالم الاخر ، فلقد وجد فى احدى المقابر بقايا خشبية ربما كانت تتصل بتخزين ما يحتاج اليه الميت ، الامـــر الذى رأى فيه «برنتون» و «كاتون طمسون» دليلا على رغبة القوم فى دفع أذى اشباح موتاهم عن طريق ارضائها بهذه القرابين ، بينما ذهب «يونكر» الى أن تزويد الاحياء للموتى انما كان عمـــلا أساسه الحنان والتعاطف ، وأما «فانديبه» فالرأى عنده أن تقديم القرابين انما يعنى رغبة الاهل فى استمرار الصلة بين الاحياء والموتى[٩] .

هذا وقد عثر على بعض لفائف من الجلد أو القماش حول جسم المتوفى ، فضلا عن بعض تماثيل لبعض الحيوانات ، وخاصة فرس

---

7) G. Brunton and Caton Thompson, The Badarian Civilisation London, 1928, P. 18-20.
8) M. A. Mury, JEA, 42, 1956, P. 89.
9) G. Brunton and Caton-Thompson, Op. Cit., P. 42; H. Junket, Op. P. 107.

النهر ، فى قبورهم الى جانب تماثيل أخرى للنساء والطيور ، هذا فضلا عن دفن البداريين لبعض الحيوانات ، الامر الذى يتصل اتصالا وثيقا بربط تفكير الانسان بالبيئة الحيوانية والنباتية والكونية واعتقاده بأن ظواهرها المختلفة انما تمر بنفس دورة الحياة والموت والخلود التى يمر بها الانسان[10] .

وهناك من حضارة العمرة (عصر ما قبل الاسرات) تماثيل من الفخار والعاج تمثل رجالا مغمدة قضبانهم ، ونساء يسترن أعضاءهن كذلك ، وان كانت أغلب التماثيل للنساء ، ربما لان صناعها من الرجال كانوا يؤثرون تمثيل الجنس الاخر ، شأنهم فى ذلك شأن كل فنان مبتدىء ، وربما لان عقائد ما بعد الموت قد تطلبتها ، كما تطلبتها منذ عصر حضارة البدارى ، كى ترمز الى الزوجات والجوارى اللاتى يتمنى المتوفى أن يكفلن له الذرارى فى حياته الاخرى ، وربما يرمزن الى الراقصات اللاتى يتمناهن لمتعته فى الاخرة ، ومن ثم فقد أظهر الفنان غلظ أفخاذهن وأسدائهن لتبدو مثيرة أو لترمز الى الربات اللاتى يتمنى أن يسبغن عليه الحماية حين يبعث مرة ثانية[11] .

هذا وكان لمجتمع المعادى حياته الروحية التى ظهرت بعض شعائرها على أوانيهم ، فصورة التمساح فى احداها تشير الى أن عبادة التمساح التى عرفت فى مصر الفرعونية انما ترجع الى هذه الفترة ، كما أن دفن الاجنة فى أوان فخارية لكل منها ثقبان لكى تعود منها الروح الى الجسد ، انما تشير الى عقيدة البعث بعد الممات ، تلك العقيدة التى كانت محور الحياة الروحية فى مصر القديمة ، وان كان هناك من يذهب الى أن تلك الفتحتين انما كانتا فى مقابل العينين ، فاذا افترضنا أن هذا

---

10) G. Brunton and Caton-Thompson, Op. Cit., P. 25-27.

11) E. J. Baumgartel, The Culture of Prehistoric Egypt, II, Oxford, 1960, P. 70.

وانظر : عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٣٨ ، ادولف ارمان : ديانة مصر القديمة ص ٢٧٥ ــ ٢٧٦ .

انما قد حدث عمدا ، فانه يشير الى بداية تصـور عينين على جانب التابوت ليطل المتوفى بهما على العالم الخارجى وعلى مقدمى القرابين ، الامر الذى حدث منذ اخريات الدولة القديمة ، وأياما كان الامر ، فلقد عثر فى جنابة وادى دجلـه ، المجاورة للمعادى ، على مقابـر زودت بمستلزمات المتوفى واحتياجاته فى العالم الاخر ، وخاصـة الاوانى الفخارية والادوات الحجرية[١٢] •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن ذلك الاعتقاد الملح فى الحياة بعد الموت ، والذى نشـأ منذ تلك العصور المبكـرة من تاريخ مصر الفرعونية ، انما كان يعضده كثيرا ويغذيه تلك الحقيقة المعروفة عن تربة مصر ومناخها ، وهى أنها تحفظ الجسم الانسانى بعد الموت من البلى الى درجة لا تتوافر فى أية بقعة أخرى من العالم ، فلقد أعتادت أغلب أجيال القوم منذ فجر تاريخهم على أن يدفنوا موتاهم فى الحواف الصحراوية ، والغربية منها بخاصة لينأوا بمقابرهم عن رطوبة الارض الطينية ، ويتركوا أرض الزراعة للزراعة ويوفروا أرض القرى لاحيائها ، وشيئا فشيئا تبينوا أن مقابرهم الصحراوية تحفظ جثث موتاهم بحالة لا بأس بها لفترات غير قصيرة •

وعندما اختلطت هذه الظاهرة بأحاسيسهم الدينية لم يردوها الى جفاف الصحراء وحده ، ولا الى دور الرمال فى امتصاص رطوبة الجسد وحده ، وانما ردوها أساسا الى قدرة ربانية حانية ، وقدروا أنهم اذا استرضوا صاحب هذه القدرة وقدسوه ، زاد من رعايته لجثثهم وحفظها سليمة لأطول مدة ممكنة ، وقد حدث بالفعل أن المعبود الذى تخيلوه ربا للحواف الصحراوية وسـموه «انبو» أو «أنوبيس» كما دعـاه الاغارقة ، كان هو نفسه المعبود الذى تخيلوه راعيـا لجثث موتاهم وقادرا على حفظها وحاميا للجبانات ، وقد انتشر الايمان به من طائفة

---

12) M. Amer and Rizkana, Excavations in Wadi Digla, Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University, Vol. XV, Part, II, P.201-205.

الى أخرى حتى أصبح الجميـــع يتوجهون بدعواتهم الاخروية اليه ، وقد اعتبروه ربا للتحنيط بارعا ورمزوا له بهيئة ابن آوى •

وكان النيل هو العنصر الثانى الذى كان سببا فى ايمان القوم بالبعث والخلود فقد كان فيض النيل يأتى دائمـــا فى موعده ، فمـــا أن تقبل شهور الصيف حتى ترتفع مياهه وتفيض وتمد الحقول بالمياه والطمى الجديد ، وكان النيل دائما يبر بوعده ولم يقصر فى مد تلك الحقول بما يبعث فيها الحياة ، فكان انتظامه سببا فى غرس شعور الثقة فى نفوس القوم ، وبث مولده المتكرر فى نفس المصرى عقيدة راسخـــة ، انه فى استطاعته هو الاخر أن ينتصر على الموت ويحيا حياة أبدية ، ولا يمكننا أن ننكر أن كثيرا ما حدث أن النيل قد قصر فى مجيئه وهبط عن معدله الطبيعى ، وحينئذ تكون الشدة التى قد تصل الى المجاعة ، ولكنه لم يقصر أبدا الا لفترة محدودة ، كان يعود بعدها وقد حمـــل فى وطابه الخير العميم ، وهكذا كان القوم يرون فيضان النيل كل عام فى موسم لا يخلفه ، فيخصب التربة وينبت البذرة ، ويدفع دورة الحياة الزراعية دفعة جديدة ، وسرعان ما تتابع الدورات الى ما لا نهاية ، وقد وجد القوم أن ذلك انما قد ينطبق كذلك على بعض الجزر التى تغطيها المياه ثم سرعان ما تنحسر عنها فتحيا وتزدهـــر ، ثم تعود فتغرقهـــا (أى تميتها) من جديد ، ثم سرعان ما يتكرر الامر كله مرة ثانية •

ولم يتوهم القوم أن ذلك كله قد يحدث تلقائيا من غير علـــة أو غاية ، وانما آمنوا معها برب كريم يدفع الفيضان من باطن الارض ، ويدفع النبات من الحب المدفون فى التربة ويحيى الحقول الجافة بعد الموت كلما مسها بفيضه ورحمته ، ومع طول التدبر ونمو التدين قدروا أن من يتعهد طبيعتهم بالحياة المتجددة ويدفع عنها موتها ، قادر من غير شك أن يتعهد أهلها بالحياة بعد وفاتهم ، طالمـــا أحبهم ، وطالما تقربوا اليه وقدسوه ، وقد حدث بالفعل أن المعبود الذى تخيله نفر منهم ربا للفيضان والخصب والزرع وقد سموه باسم «أوزير» ، كان هو نفس المعبود الذى نسبوا اليه ربوبية البعث والآخـــرة ، وجعلوا

مملكته تحت الارض ، وامتد تقديسهم له فى طــول البلاد وعرضها ، وأحاطوه بأساطير وتخيلات ، وهو غير حعبى[١٣] .

وكانت الشمس هى العنصر الثالث الذى ألهم المصرى القديم عقيدة البعث والخلود ، فلقد رأى القوم ، كما رأت شعوب أخــرى ، ذلك الكوكب العظيم الذى يغرب يوميا فى الغرب ، ويعود الى الشروق من الشرق ، ولكنهم رأوا كذلك ما لشمسهم من تأثير خــاص فى حياتهم بسبب وضوحها فى سماء مصر الصحو ، وبسبب الوفاق والانسجام بين مواسم حرارتها وبين مظاهر الطبيعة الاخرى ، وعلى رأسها النيل ، وأثــر ذلك كله فى بذر المحاصيل وجنيها ، فضــلا عن ارتباط شروقها بيقظة الكائنات بعد النوم ، وبالحركة بعد الخمول ، والرؤية بعد قلة الرؤية ، فلم يردوا ذلك الى عملية آلية لا روح فيها ولا هــدف لها ، وانما ردوه الى رب قادر (هو رع) اتخذ الشمس آيته الكبرى لنفع الاحياء فى الدنيا ، ثم رأوا أن هذا الرب الذى يسير الشمس لمنفعتهم فى الدنيا ، قادر على ان يوجهها لنفعهم فى الاخرة ، بعد ان تتجه الى الافق الغربى حيث توجد أغلب مدافنهم ، فينزل فيه الى مــا تحت الارض ، وتضىء ظلمة القبور ، وتنير مسالك العالم السفلى ، وتخيلوا للرب من أجل هاتين الغايتين مركبا يعبر بها سماء الاحياء فى النهار ، دعوها «منعجت» (منعجة) ، ومركبا يعبر بها سماء الموتى فى الليل ، دعوها «مسكتت» (مسكتة) ، وله فى هذه الاخيرة مسار معلوم تحدثت عنه كتب الموتى فى كل ساعة من ساعات الليل الاثنى عشر[١٤] .

(٢) مقومات الانسان عند المصرى القديم

كان المصريون القدامى يعتقدون أن الانسان انما يتكون من جسد

---

(١٣) عبد العزيز صالح ـ الشرق الادنى القديم ـ الجزء الاول ـ مصر والعراق ص ٣١٥ .
(١٤) نفس المرجع السابق ص ٣١٦ .

وروح[15] ، وأن الجسد مصيره الى القبر بعد الموت ، وأما الروح فمصيرها الى السماء ، وكما جاء فى نصوص الاهرام «ان الروح انما تذهب الى السماء ، بينما يتبقى الجسد فى الارض» ، ومن ثم فقد اعتقدوا أن هناك — بجانب الجسد المادى (خت) — روحا نورانية شفافة هى «الاخ» تذهب الى السماء وتبقى فيها الى الابد مع الاله أوزير ، وأن هناك روحا اخرى هى «الكا» أى القرين تبقى بجوار الجسد فى مقبرته ، وفيما حوله على الارض ، وأن القرابين انما تقدم اليها ، وهى فى نظر القوم ، الملاك الحارس للانسان أو التى كان المرء يستقبلها عند مولده بأمر من الاله رع ، وكانوا يعتقدون أنه ما دامت هذه «الكا» معه،وما دام هو رب الكا ، وأنه يغذو منها ، فهى حى يرزق ، ولئن كان أحد لا يستطيع رؤية هذه الكا ، فالمعتقد انها تشبه صاحبها تماما .

وهناك روح ثالثة هى «البـاء» ، والتى يمكن تسميتها بالروح الابدية ، وهى اذ كانت تترك الجسد وتنفلت منه عند الموت ، فقد تخيلوها فى أشكال مختلفة ، فهى أحيانا كطير ، ومن ثم فمن المحتمل ،

---

(١٥) افترض المصريون للانسان مقومات عدة طبيعية ومكتسبة ، اهمها سبعة وهى : جسم مادى (خت) ، وقلب مدرك (آب) ، وطاقة أو فاعلية أو نفس فاعلة (كا) ، واسم معنوى (رن) ، وظل ملازم (شرت) ، وروح خالده تسرى فى الظاهر والباطن (با) ونورانية شفافة (آخ) وتشتد صلته بالاثنين الاخيرين منها بعد وفاته ، اذا كان صالحا ، واعتقدوا انه لابقاء للمرء فى أخراه الا باجتماع كل هذه المقومات ، وانه لا سعادة لها فى جملتها دون مساعدة خارجية ، ولهذا تلمسوا سبل الاهتمام بكل واحدة منها على حدة الى جانب الاهتمام بها جميعا كوحدة واحدة ، فالجسد ينبغى ان يصان ويحنط ، والقلب يحفظ ويرتجى ، والكا تتلى التراتيل باسمها وتقدم القرابين لصاحبها ، والروح تنتقل فى عوالم الارض والسماء ، ما دامت مؤمنة ، ونورانية تكتسب بصالح الاعمال ، والاسم يخلد عن طريق ترديده فى الدعوات ، وتكراراة فى نقوش المقبرة ، ويقرنه بالسمعة الطيبة عن طريق جهود الابن الاكبر (عبد العزيز صالح : مداخل الروح وتطوراتها حتى أواخر الدولة القديمة ص ٩٥ ـ ١٣٦) (مجلة كلية الاداب ـ جماعة القاهرة ـ ١٩٦٤) ، (الشرق الادنى القديم ـ الجزء الاول ص ٣١٤ .

فيما يرى القوم ، أن تكون روح الميت طائرا بين طيور الاشجار التى فى أشكال مختلفة ، فهى أحيانا كطير بين طيور الاشجار التى غرسهـا بنفسه ، وقد تكون فى هيئة زهرة اللوتس أو فى هيئة ثعبان يندفع من حجره أو فى هيئة تمساح يزحف من الماء الى الارض ، هذا وكان القوم يعتقدون أن الباء تلحق بموكب الشمس فى رحلتى الليل والنهار ، وأنها تزور الجسد فى رحلة النهار ، وأن كلا من الباء والكاء مرتبط بقاؤهما وخلودهما ببقاء الجسد وخلوده ، كما أنهما تفنيان بفناء الجسد وفساده ، ولعل هذا السبب فى اهتمام القوم بتحنيط أجساء موتاهم حتى تحتفظ بملامحها الى كانت لها فى الحياة الدنيا — الامر الذى ناقشناه بالتفصيل فى الجزء الرابع من هذه السلسلة (الحضارة المصرية القديمة — الاداب والعلوم — الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٤٤١ — ٤٥٥) •

(٣) عالم الموتى :

تجددت آراء المتفقهين من القوم فى تحديدهم لعالم الموتى ، فتخيله بعضهم فى جوف الارض ، حيث كان يدفن الموتى ، وحيث يحكم من يحيى التربة والبذرة وينبت الزرع ويدفع الفيضان ويرعى المكدودين وهو «أوزير» ، وتوهمه بعض آخر فى الغرب على الاطلاق ، حيث توجد أغلب مقابر القوم ، وحيث تغرب الشمس ، وحيث يمتد البصر الى ما لا نهاية فى الصحراء الغربية غير ذات الحدود المرئية ، بالنسبة لمعارف عصرهم ، ومن هنا كان اتجاه أغلب الموتى المصريين الى الغرب ، ذلك لان الصحراء انما كانت مطروقة ، وتنتهى عند البحر الاحمر ، بعكس الصحراء الغربية التى تغرب الشمس فى اتجاهها ، والتى لم يعـرف القوم لها حدودا كالابدية التى لا حدود لها[١٦] ، ومن ثم فقد أطلق القوم على عالم الموتى اسم «عالم الغرب» ، كما كان الموتى يسمون «أهل الغرب» •

على أن هناك فريقا ثالثا ذهب الى أن عالم الموتى انمـا كان فى

---

16) J. Cerny, Op. Cit., P. 16.

السماء ، حيث الرفيق الاعلى ، وحيث مسيرة الشمس فى النهـار ، وحيث النجوم التى تتلألأ بغير حصر فى الليـل ولا تريم ولا تفنى ، وقصروا هـذا الامل فى السمو الروحى والمكـان فى بدايه امرهم على الحكام الذين كبر عليهم أن تؤول ابدانهم وتتولى أرواحهم الى عالم التراب ، كما تؤول بقيه الأبدان والأرواح ، متوشموا موتهم صعودا الى السماء ، وحياة بين النجوم ، ومصاحبه لكوكب الشمس حيثما دار : ومن ثم فقد رأينا النصوص انما تصف موت «أمنمحات الأول» وكأنه قد صعد الى السماء ، واتحد مع الأله ، حيث تقول : «صعد الاله الى السماء وأصبح متحدا مع قرص الشمس ، واندمجت أعضاء الاله (أى الملك) بمن خلقه» ، كما جاء فى نصوص الأهرام أن الملك قد يتمثل فى شكل «ذلك النجم الوحيد الذى يشرق فى الجانب الشرقى من السماء ، والذى يجوب السماء فى صحبة نجمـة الصباح والجبـار والشعرى اليمانية»(١٧) .

هذا وقد تصور القوم أنه مما يتفق ومماثلة ملك مصر للشمس أو بنوته لها ، أن يتخذ بعد موته شخصية اله الشمس نفسه ، فيجلس على عرشه ويرأس الآلهة ، أو يتلقاه اله الشمس لقاء حسنـا ، ويهىء له مكانا فى سفينته أو يتخذه كاتبـا له يجلس أمامه أو الى جانبه ، ومن ثم يجوب واياه السماء فى النهار ، كما يجوبها فى الليل مع اله القمـر تحوت ، وقد جاء فى متون الاهرام أن الملك المتوفى ليس انسانا ، وأن «آباءه ليس من البشر ، وامهاته لسن من الناس وانما هو تحوت أقوى الالهة ، أو هو شو بن رع ، الذى يحمل السماء ويتزعم الارض ويقضى بين الالهة ، طوبى للذين يرونه وهو متوج بحلية رع ، وعليه نقبتـه كماتحور ، انه يغدو الى السماء فيجد رع واقفا فيجلس الى جانبه ، ولا يسمح له رع بأن يرتمى على الارض ، لانه يعلم حقـا أنه أعظم منه» ، كما يعلم أن هذا المجد لا يفنى ، انه ومن ثم يبعث الرسل من

---

17) A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1964, P. 217.
A. M. Blaskman, BA, II, 1932, P. 1-41.
G. Foucart, BIFAO, 14, P. 131.

الملائكة ليعلنوا الى سكان السماء ، انه قد ظهر لهم ملك جديد ، انه ممجد لا يفنى ، اذا شاء لكم المـوت فانكم تموتون ، واذا شـاء لكم الحياة فانكم تعيشون» •

هذا وقد تصور القوم أن الملك يدخل السماء «حقل الآسل» (يارو) أو «مقر المجدين» ، حيث يزدهر الزرع وينمو القمح والشعير الى تارتفاع سبعة أذرع ، فيجلس على عرش كبير ، تكرمه رعيته، ويقضى بينها على نحو ما كان يفعل فى الارض ، ومن ثم فلم يكن دخول جنة الآسل مقصورا لى الملك وحده ، وانما كان يدخلها كذلك أتباعه وحاشيته والابرار من شعبه •

هذا ولم يقدر لاحد هذه الاراء أن يسود على غيره ويحل مكانه ، وانما تقاربت من بعضها البعض ، وربما حدث تنافر قصير فيمـا بين أنصار عالم السماء وربه رع ، وبين أنصار عالم ماتحت الارض وربه أوزير ، ولكنه سرعان ما لبث أن زال ، وأدت ايحاءات السياسة ومرونة الدين الى التوفيق بين المذهبين عن طريق موازنة امتداد نفوذ رع رب الشمس الى أسفل الارض حيث يهبط كوكبه فيه ليستضىء الموتـى بنوره ، مع افتراض نفوذ مماثل لرب العالم السفلى أوزير فى السماء ليرعى الابرار الذين ترفعهم أعمالهم اليها ، والذى اتسع مدلوله (أى مدلول الابرار أهل السماء) فشمل الصالحين جميعا ، ولم يعد مقصورا على الفراعين والحكام وحدهم[١٨] •

(٤) الحج الى أبيدوس :

اكتسبت أبيدوس (ابجو) نصيبا من القداسة لوجود معبد «خنتى

---

(١٨) أدولف ارمان : ديانة مصر القديمـة ص ٢٣٧ ـ ٢٤٢ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣١٦ ، محمد انور شكرى وآخـرون : حضارة مصر والشرق القديم ص ٩٦ ،
Urk., IV, P. 34 A. H. Gardiner, Op. Cit., P. 217; A. M. Blackman, BA, II, 1932, P. 1-14.

امنتى» أمام الغربيين أو الغــرب (عالم الموتى) على حافة الاراضى الزراعية المؤدية اليها ، وعلى حافة الطرق المؤدية الى مقابــر الملوك فيها ، وزادت قداستها بعد بدية عصر الاسرات ، منذ أن اعتبرها أهل الدين مقرا لضريح معبودهم أوزيــر ، ذلك أن القوم قد ظنــوا منذ الاسرة الثانية عشرة أن مقبرة الملك «جر» من الأسرة الاولى هى مقبرة أوزير ، وذلك عندما قرأوا اسم «جر» على أنه «خنت» ثم خلطوا بين هذا الأسم واسم المعبود «خنتى امنتى» . ولما شبهوا أوزير بالمعبود خنتى امنتى ، اعتبروه قبرا له ، وأضــافت نصوصهم أن روح أوزير تعيش فى جميلة غناء بأرض بكر على شاطىء النيل قرب أبيدوس ، ثم سرعان ما تضخمت قداسة أبيدوس بمرور الاجيال ، حتى اعتبرت دارا للحج والزيارة ، ربما منذ أيام الدولة القديمة .

هذا وقد أصبحت منذ الاسرة الحــادية عشرة ، وربما منذ نهاية الدولة القديمة ، أعز أمنية لكل مصرى تقى أن يدفن فى أبيدوس ، ومن ثم فقد دفنت هناك منذ الاسرة السادسة طوائف من الناس لا حصر لها من جميع أنحاء البلاد بغية أن يكونوا أكثر قربا من الاله «حتى يتقبلوا هدايا البخور والقرابين الالهية على مائدة سيد الالهة ، وحتى يقــول لهم عظماء أبيدوس «مرحبا» ، وحتى ينالوا مكانا فى قرب «نشمت» فى «الاعياد الجنازية»فاذا كان الدفن فى أبيدوس من الصعوبة بمكان ، فقد كان الواحد منهم يتمنى ، على الاقــل ، أن يزور الاله أوزير فى أبيدوس ، وأن يقيم فيها حجرا «عند درج الاله العظيم» وأن «ينقش اسمه فى مقر اقامة الاله» حتى يضمن لنفسه مكانا بين الممتازين من الموتى ، وحتى تستطيع روحه أن تشارك فى أعياد أوزير ، ويستقبل معه السفينة الالهية التى ينتقل فيها ، وحتى اذا ما وصل فى ســلام الى أبيدوس لخدمة «أوزير ونفرى» حيا الاله قائلا «الســلام عليك أيها الاله العظيم ، يا سيد تاور ، العظيم فى أبيدوس ، لقــد أتيت اليك ياسيدى فى سلام ، فكن بى عطوفــا ، فأنت صاحب العطف ، واستمع لندائى ولب ما أقوله ، فانى واحد من عابديك» .

وربما أصابت الجثة من قرابين أوزير فأخذت منها كفايتها ، ذلك لان المتوفى ((عندما يقفل راجعا من أبيدوس بسلام)) فانما يفخر بأنه أصاب هناك قربانا من الخبز ((واستنشق عبير المر والبخور)) ، وأما من كان لا يريد أن يدفن فى أبيدوس لسبب من الاسباب ، فانه كان يقيم هناك فى المدينة المقدسة لوحا تذكاريا على الاقل ، وهناك ما يشير الى أن كثيرا من أبناء الطبقة الوسطى من الموظفين ، فضلا عن الصناع وصغار ملاك الاراضى الزراعية على أيام سنوسرت الثالث قد استغلوا ثرواتهم فى أقامة لوحات بأسمائهم ، وكذا تماثيل صغيرة أقاموها لانفسهم بمعبد أوزير فى أبيدوس(١٩) .

هذا وتدل مجموعة الاثار المنتشرة فى أنحاء العالم الى انتشار هذه العادة ذلك لان أغلب الشواهد والنصب التذكارية الصغرى من أيام الدولة الوسطى انما قد وجدت فى ابيدوس ، ويروى الكثيرون من زوار المدينة المقدسة أن أعمالهم قد أفضت بهم اليها ، على أن آخرين انما زاروها حجاجا ، ولكن غيرهم لم يكتب لهم ذلك الا بعد موتهم ،وهناك فى مقبرة ((خنوم حتب)) فى بنى حسن ما يشير الى أن الرجل قد صعد فى النيل ((ليتعرف شئون أبيدوس)) ، ثم نرى بعد ذلك جثته تحت مظلة على السفينة والى جانبها الكاهن ((سم)) وال ((خرجت)) لا يغادرانها طوال الرحلة ، وهناك فى أبيدوس يقدم ((خنوم حتب)) الى اله الموتى وكأنه فرد جديد فى رعيته ، ثم يشترك فى حفلات أعياده، فيرى ((ذلك الذى يخطر فى جماله مثل وب واوات)) ثم ((كيف يبرر أوزير أمام الالهة التسعة))، ثم يعود الى موطنه تصحبه نساؤه وأبناؤه ، حيث يدفن فى مقبرته فى صخور بنى حسن .

هذا وقد ظل الاعتقاد فى الدولة الحديثة فى أن الميت انما يحظى

---

(١٩) أدولف ارمان وهرمان رانكه : المرجع السابق ص ٣٤١ ــ ٣٤٢
L. Klebs, Die Reliefs des alten Reiches, 1915, II, P. 5. F; J.J. Taylor and F. L. Griffith, Tomb of Paheri, London, 1895, Pl. 5; J. Vercoutter and others, the Near East, the Early Civilizations, 1967, P. 374.

ببركة خاصة اذا ما انضم الى أوزير فى أبيدوس ، وان كان القوم كانوا يودون دائما أن يدفن الواحد منوم فى موطنه الاصلى ، ومن ثم كان يرجو أن تكون له مقبرة ثانية ، أو حتى مقبرة تذكارية ، فى أبيدوس ، ومن ثم فقد بنى أحمس لجدته «تتى شيرى» التى دفنت فىطيبة مثل هذه المقبرة الرمزية فى أبيدوس هذا وقد عثر «بترى» على لوحـــه فى أبيدوس يوصف فيها أحمس وكأنه يجلس الى زوجه «أحمس نفرتارى» يفكران فيما يستطيعان عمله من أجل أسلافهما ، فقد قالت له أختى (بمعنى زوجته) لم تتذكر هذه الامور ، ماذا فى قلبك ؟ وأجابها الملك نفسه قائلا : لقد تذكرت أم أمى وأم أبى، زوجة الملك العظمى ،وأم الملك تتى شيرى المتوفاة ، أن لها اليوم غرفة دفن وضريحا فوق أرض المقاطعة الطيبية ومقاطعة ابيدوس ، ولكنى أقول لك ذلك لان جلالتى انتوى أن يصنع لها هرما ومحرابا فى الاراضى المقدسة ، على مقربة من أثر جلالتى ، هكذا قال جلالته ، ووضعت هذه الامـــور موضـــع التنفيذ[٢٠] •

(٥) القرابين :

كان المصريون القدامى يعتقدون أن «كا» المتوفى لا تضم الى قبره الا اذا أمده الاحياء بالقرابين المختلفة كالخبز والفطائـــر والحلوى واللحوم والفاكهة والجعه والملابس والزيوت العطرية وغير ذلك مما كان يستمتع به الاحياء فى تلك العصور الخالية ، وكان من الطبيعى أن يقوم بهذا العبء ولد المتوفى الاكبر ، الامر الذى يرجعه البعض الى أسطورة أوزير التى تمثل بر الابن (حور) بأبيه أوزير ، ثم سرعان ما أصبح هذا البر بالوالدين مثلا يحتذى فى كل الامور التى تدل على انسانية رفيعة ، ومن هنا فاننا نقرأ كثيرا فى النصوص المصرية «كما أن حور قد قرب عينه لوالده أوزير ، فكذلك يقرب الابن لابيه قربانا ، موحدا بعين حور» •

20) J. H. Breasted, ARE, I, 1906, P. 14-16, A. H. Gradiner, Egypt of the Pharaohs, 1964, P. 172.

وهكذا كان قيام الابن الاكبر بتقديم القرابين لابيه المتوفى انما كان يعد المثل الاعلى فى البر والاحسان بالوالد ، ومن ناحية أخرى فان الابن الاكبر ان أهمل فى أداء هذا الواجب ، فان أوخم العواقب تصيب أباه فى آخرته ، ومن ثم فقد كان من الواجب عندئذ أن يقوم بهذا الواجب قوم يتخذون من هذه الصناعة حرفة يرتزقون منها ، وهكذا نشأت طبقة الكهنة الجنازيين ، وأدى ذلك الى أن توقف عليها الاوقاف للصرف منها على مستلزماتها وعلى الكهنة الذين يقومون بخدمتها ويؤدون لها الشعائر الدينية •

هذا وتشير شواهد الاحوال على أن الملك انما قد اشترك اشتراكا فعليا فى تقديم القربان للمتوفى منذ عهد جدا قديم ، وليس هناك أدل على ذلك من صيغة القربان المشهورة والتى تبدأ دائما بكلمات «قربان يقدمه الفرعون لفلاح» مما يشير الى أن الفرعون انما كان هو المتصرف الاعظم فى أمور القربان ، بوصفه المالك لكل شىء فى مصر ، وان كان ذلك لا يخلى سبيل ابن المتوفى من القيام بواجباته نحو أبيه ، ومن ثم فهو الوسيط بين الملك والمتوفى •

هذا وقد كان الملوك يوقفون ضياعا كبيرة على ما أقاموا من أهرمات ومعابد حتى يتمكن الكهنة من تقديم القرابين الى الابد ، ومن هنا استمرت عبادة بعض الملوك الى الاف السنين ، حتى استمرت عبادة ملوك من أمثال سنفرو وخوفو وخفرع حتى العهد البطلمى ، وكانت تلك الاوقاف تبلغ أحيانا قدرا كبيرا من المال ، ففى القرن التاسع والعشرين ق•م أوقف على قبر الامير «نكاورع» بن «خفرع» ما لا يقل عن اثنى عشرة بلدة من ممتلكاته الخاصة ، وقد أوقف كل دخلها على صيانة قبره[٢٢] ، وفى الاسرة السادسة أصدر «ببى الاول» أمرا ملكيا

(٢١) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ٦٥ وكذا
J. H. Breasted, A, History of Egypt, 1946, P. 60.

نيابه عن سلفه «سنفرو» لصالح مدينتى هرمه ، جاء فيه «أمر جلالتى بأن تعفى هاتان المدينتان الى الابد من أداء أى عمل للقصر الملكى ، ومن أى عمل بالقوة لاجل المقر الملكى الى الابد ، ومن أية سخرة يأمر بها أى انسان»[٢٢] .

هذا فضلا عن أن أمراء الاقاليم انما قد نحتوا قبورهم فى صخور أقاليمهم ، وخاصة فى مصر العليا والوسطى ، وقد كلف ذلك خزانة الدولة الكثير من المال ، ذلك لان الملك انما كان منذ بداية العصور التاريخية قطب الحياة المصرية وعمادها ، ومن ثم فقد كان يغدق على عظماء رجاله جزءا كبيرا مما يحتاجون اليه فى تجهيز قبورهم والانفاق عليها بعد ذلك ، وهكذا رأينا مدير قصر الملك «وسر كاف» يعين ثمانية من الكهنة الجنازيين لخدمة قبره ، ويكافىء الملك «ساحورع» أحد رجاله المقربين ويدعى «برسن» بأن يحول اليه دخلا من الخبز والزيوت كان يصرف من قبل على قبر الملكة «نفرحتب» ، ولعل الذى دفعه الى ذلك انما هو الرغبة فى التخلص من تلك الالتزامات الثقيلة التى نشأت من تضاعف عدد المقررات الموقوفة على القبور ، وذلك بتحويل القرابين التى كانت مخصصة من قبل لقبور قديمة الى أخرى حديثة العهد[٢٣] .

وفى عهد الاسرة الثانية عشر أعد «حعبى زفاى» حاكم كرمه بالسودان من قبل الملك «سنوسرت الاول» مقبرة فخمة فى موطنه الاصلى بأسيوط ، وتتكون من سبع حجرات ، ويبلغ عمقها ٤٥ قدما ، وتشتهر بنقوشها التى توضح تفاصيل الاعمال والطقوس الكهنونية التى كان يريد «حعبى زفاى» أن يقوم الكهنة بها بعد موته ،وقد أوقف عليها الكثير من الاراضى والعبيد والماشية ، ولكن الاقدار لم تكتب له أن يدفن فيها ، وانما دفن فى كرما ، تحت ركمة من التراب ، يحيط بها حوش دائرى ضخم مبنى من الطوب ، قطره ٢٧٥ قدما ، وعلى

22) J. A. Wilson, Op. Cit., P. 99.
23) J. H. Breasted, Op. Cit., P. 61-62.

طريقة النوبيين ، هذا وقد امتازت مقبرة أسيوط بتلك العقود الجنازية التى كانت أشبه باتفاق تجارى بين «حعبى زفاى» وبين الكهنة ، وهى عبارة عن عشرة شروط خاصة بوقفه على مقبرته ، وتهدف الى أقامـــة الاحتفالات الدينية فى المعبد على مر الايام(٢٤) .

وقد استخلص الباحثون منها معلومات هامة عن الاعياد المصرية التى كانت تقام فى أسيوط فى الاسرة الثانية عشرة ، فضلا عن الاحتفالات الجنازية التى كانت تقام للافراد ، والمرتبطة بالاعياد العامة ، وقـــد أتضح منها أنه ما كان يمر يوم دون أن يقدم الطعام والشراب لقرين حعبى زفاى ، كما أنها تقدم لنا صورة واضحة عن أهمية تمثال المتوفى فى الشعائر الجنازية ، وذلك بسبب عـلاقة التمثال المباشرة بالقرين (كا) فهو يمثل المتوفى ، واليه تقدم القرابين ، كما أن المتوفى ليس فى استطاعته أن يشترك فى هذه القرابين الا فيما بعد ، أى عند خروجه من القبر نهارا ، ومن ثم نرى بعد ذلك أن صيغة القربان ، كما نفهمها فى عهد الدولة الوسطى تجعل حعبى زفاى يأكل من الطعام الذى كان يقدم كل يوم للاله المحلى «وب واوات» ، ومن ثم فقد كان على كاهن محراب هذا الاله أن يحمـــل وجبه يومية الى قبر حعبى زفاى أمـــام التمثال ، كان يزداد مقدارها فى أيام الاعياد بنسبة زيـــادة القرابين الالهية نفسها .

هذا وكان تمثال المتوفى يحمـــل فى موكب الى معبد الاله المحلى الرئيسى ، حيث يقدم له الكاهن نصيبه من القرابين ، ذلك لان اشتراك المتوفى فى أخذ نصيب من القرابين الالهية انما كان فى نظـــر العنصر الرئيسى فى الشعائر الجنازية ، كما كان وضع تمثال الواحد منهم فى معبد الاله المحلى أو وضع تذكار له فى محاريب الدولة الكبرى ميـــزة يحسد عليها ، وليس هناك من ريب فى أن كل مـــا كان يخص الشعائر الجنازية انما كان من الامور الحيوية ، ومن هنا وضع حعبى زفاى

---

(٢٤) انظر : محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثانى ص ٤٠١ .

شروطه العشرة ، والتى كان منها مثلا «انارة الضوء» الذى كان يحدث فى بعض الاحتفـــالات ، فأوجب على الكهنة الذين كانوا يلاحظــون المصابيح فى المعابد أن يقدموا الذبالات لهذه الانارة بانتظام •

وبدهى أن الكهنة الذين عقد معهم حعبى زفاى عقوده لم يكونوا يعملون بدون أجر ، ومن ثم فقد كافأهم على ما كانوا يقدمونه له من قرابين ، وذلك بالتنازل لهم عن أجزاء من أراضيه أو بالتخلى لهم عن أمور أخرى ، ذلك ن الرجل انما كان بحكم مولده ينتمـــى الى هيئة كهنوت الاله «وب واوات» ، وبالتالى فقد كان له نصيب من مقررات معبد هذا الاله ، وربما قد تنازل لهم عن جزء من نصيبه ونصيب ورثته من هذه المقررات ، هذا فضلا عن أنه قد ترك وقفا من الاراضى والخدم والماشية والحدائق وغيرها للقيام بالطقوس الجنازية الخاصة به ، ولعل هذا هو السبب فى أنه قد نقش عقودة العشرة على جدران مقبرته فى ستين سطرا ، ربما بوحى من الكاهن الذى نقشت من أجله أكثر تلك العقـــود •

ولعل من الاهمية الاشارة الى أنه كان هناك فى هـــذا العصر ثمة قواعد ثابتة وراقية لتحرير العقود ، منها أن سلطان أمير الاقليم فى الوصية والهبة مقيدة محصورة ، فهـــو يؤكد المرة تلو الاخرى أنه لا يستطيع أن يتصرف الا فى هذا الجزء من أملاكه وموارده التى تعد حقا وراثيا فى عائلته ، فبوصفه كبير كهنة فى معبده كان من حقه قطعة شواء من لحم العجول المضحاه فى المعبد ، كان يريد أن يقدم قربانا لتمثاله فى أيام الاحتفالات الكبرى ، ومع ذلك لم يستطع أن يقرر ذلك بنفسه ، ومن ثم فان عليه بوصفه فردا عاديا أن يبرم عقـــدا مع نفسه ككاهن أعظم ، وأن تقر هيئة الكهانة هذا العقد الذى يشترى بمقتضاه قطعة شواء اللحم الآنفة الذكر ، هذا فضلا عن أن حعبى زفاى عندما أراد أن يضمن عدم تقسيم قرابينه التى أوقفها على مقبرته بين أبناء كاهنه الجنازى بعد وفاة هذا الكاهن طبقا لنظام الوراثة المعمول به فى هذه الوظيفة ، فقد اشترط على الكاهن الجنازى أن تكون هبـــة الاراضى

والخدم والقطعان والحدائق وغيرها لأحب أبنائه اليه ، والذى سوف يكون كاهنا جنازيا لحعبى زفاى بعد وفاة أبيه ، ولا يسمح لهذا الابن بدوره أن يقسمها بين أبنائـــه[٢٥] .

ومن أسف أن تلك الشروط وغيرها مما وضع للحفاظ لعى قرابين الموتى لم تراع بدقة ، ومن ثم فان كثـــيرا ما تخاطب كتابات المقابـــر زوارها فى مستقبل الايام ، بعد أن شاع نكران الانسان للجميل حتى مع أقرب الناس اليه ، وهكذا رأينا أحد أصحاب المقابر يؤكد لنا أن له كل الحق فى احترام الخلف له ، لانه كان رجلا طيبا «لم يأت سوء ضد أى انسان» ، وأنه «ابتنى مقبرته هذه من مواد جديدة ، ولم يأخـــذ لها شيئا من ممتلكات انسان آخر» ، ويقول لنا آخر «ان ما يقدم له انما هو ملكه الخاص» و «أن ماشيته الخاصة تذبح له فى قبره الذى بناه بيده» ، ويقول ثالث «أن كل من يدخلون هذه المقبرة ، ويرون ما فيها ويصونون كتابتها ... سيصبحون فى مدنهم ، رجالا محترمين فى أقاليمهم ، ولكن الويل لمن يتلف المقبرة ، ان المتوفى سوف يدعوه أمام المحكمة ، وهو وان لم يستطع ذلك على أية محكمة فى الارض ، فهو يستطيع أن يحاكمه أمام الاله العظيم الذى يقيم عنده» .

وهكذا كان الناس يستعينون بالسماء وقت ذاك حين كانت العدالة فى الارض لا تحقق على الوجه الاكمل ، ومن البدهى أن ما فعله الملك «ساحورع» ، كما رأينـــا من قبل ، عندمـــا أراد أن يسر قلب موظف القصر العجوز «برسن» بهبة خـــالدة ، وذلك بالاستيـــلاء على وقف قديم ، والانتفاع به فى المطالـــب الجنازية الجديدة ، لدليـــل على أن اللعنات والاوقاف الثابتة لم تق المقابر المصرية من المصير المحتوم ، ذلك

---

(٢٥) ادولف وهرمان رانكة : المرجع السابق ص ١٤٩ ــ ١٥٢ .
A. Weigall, Op. Cit., P. 73; G. A. Reisner, JEA, 5, 1918, P. 79-98; J. H. Breasted, The Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, P. 259; ARE, I, P. 258-260; P. Montet, Kemi, I, P. 53; F. Griffth, the Inscripton of Siut and Der Refeh, I, Pl. J. A. Wilson Op. Cit., P. 130-140.

لانه ما كان فى مقدرة الشعوب ، حتى أغناها ، من أن تتحمل دائما وأبدا ماتقتضيه الرعاية المتصلة لموتاهم من تكاليف باهظة، ومن ثم فلعل الذى دفع ساحورع الى أن يخصص لمقبرة «برسن» دخلا من الخبز والزيوت كان يصرف من قبل من معبد بتاح الى مقبرة الملكية «نفرحتب» ، انما هو الرغبة فى التخلص من الالتزامات الثقيلة التى نشأت من تضاعف عدد المقررات الموقوفة على القبور ، مما أدى فى نهاية الامر الى أن تغلق كثير من المقابر القديمة وتترك لشأنها[٢٦] .

وتمضى القرون ويزداد اهمال شأن المقابر حتى ينتهى أمر الكثير منها الى الخراب ، ويمحى اسم صاحب المقبرة من بعضهـا ، ويثبت مكانة اسم مالك جديد ، وهكذا رأينا الكثير مـن التوابيت والتماثيل وغيرها من الاثاث الجنازى انما يحمل آثار هذا الاستخدام المزدوج ، وربما كان الاسوأ من ذلك هدم بعض المقابر واستخدام أحجارها مادة سهلة للبناء ، وبمرور الزمن تضيع معالمها ، وتحمل اليها الرياح رمال الصحراء التى سرعان ما تتجمع وتعلو شيئا فشيئا حتى تكون آخر الامر مستوى جديدا ، يقيم عليه جيل متأخر مقابر جديدة ، وهكذا توجد فى سقارة فوق المقابر المخربة من عهد الملك تتى ، من الاسرة السادسة . وغير بعيد من هرمه ، مقابر أخرى من الدولة الحديثة ، تعلوها مقابر أخرى أقيمت فى العصر اليونانى ، وقد خربت هذه المقابر جميعا ونهبت ، وقد أثارت هذه المناظر حكماء عصر الثورة الاجتماعية الاولى ، حتى رأينا فى ذلك الحوار الفلسفى بين «انسو وروحه»[٢٧] شـكا فى فكرة الخلود نفسها ، فهؤلاء الذين بنوا لانفسهم مقابر فخمه انما هم الذين

---

(٢٦) ادولف ارمان : المرجع السابق ص ٢٨٨ ــ ٢٨٩ .
F. L. Griffith, Op. Cit., P. 225 J. H. Breasted, A History of Egypt, P. 61-62.

(٢٧) انظر : محمد بيومى مهران : الاداب والعلوم ص ٢١٩ ــ ٢٣٠ ،
R. O. Faulkner, JEA, 42, P. 21-40.
وكذا A. Erman, LAE, P. 86-92.
وكذا R. Weill, BIFAO, 45, P. 89-154.

لم يبنونها سواء ، فالكل تحت حـرارة الشمس ، والكل تعقـد معه الاسماك الاحاديث ، يقول نسـو «ان من شادوا مقاصـير القرابين بالجرانيت ، وخصصـوا لانفسهم قـاعات فى الهرم ما غدوا أربابا فى السماء حتى أصبحت موائد قرابينهم خاوية ، وأصبح شأنهم شأن المكدودين الذى قضوا على ضفاف القنوات ، وقد أعوزهم الوريث ، نال الفيض مقصده منهم ، وقيظ الشمس نصيبا ، وجلست الاسمال اليهم تعقد معهم الاحاديث على الضفتين» ، على أن هذا الشك لم يستمر طويلا ، ومن ثم فقد رأينا كثيرا ما يشعر أحد الاحفاد الاتقيـاء بأن واجبه انما يقضى اقامة هذه المقابر المهدمة ، وهكذا رأينا «أنتف» أمير أرمنت من عهد الدولة الوسطى يفاخر بقوله «لقد وجدت غرفة قربان الامير «نختى ــ اقر» مهدمة وتماثيلها مهشمة ، ولم يكن هناك من يهتم بها ، فشيدتها من جديد ، وزدت فى رقعتها ، وصنعت تماثيلها من جديد ، وأقمت أبوابها من الحجر وذلك لكى يسمو مقره بين الامـراء العظام الآخـرين» .

وفى الواقع أن ما فعله انتف انمـا يعد واجبا دينيا ، فلقـد كان القوم يسمون مقابرهم «مساكن أبدية» ، ويحبون أن يقولوا عن موتاهم انهم ذهبوا الى مكانهم الابدى أى الى جبانتهم ، ويبدو أنهم فهموا أن هذه الابدية لن تمنح لهم الا باقامة مبان حجرية أو نحت أضرحة فى الصخر يدفنون فيهـا[٢٨] .

(٦) الاثاث الجنازى :

عنى المصريون منذ أقدم العصور ، كما رأينا من قبل بتزويد الميت بما يلزمه من أثاث ، على أن ذلك ربما كان مقصورا فى بادىء الامر على أسلحته وحليه ومواد زينته وبعض أوان فيها طعامه وشرابه ، غير أن هذا سرعان ما يتغير بازدياد الرخاء وتقدم الحضـارة المادية ، فكان

---

(٢٨) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ١٦٣ ــ ١٦٥ أدولف ارمان : المرجع السابق ص ٢٩١ .

J. A. Wilson, ANET, P. 405.

يودع مع الميت كذلك الارائك والصناديق المقاعد وتماثيل النساء والخدم وربما القوارب وأوان من الحجر والنحاس ، ولعل أهم ما كشف عنه من أثاث جنازى يرجع الى عهد الدولة القديمة انما كان بقايا أثاث الملكة «حتب حرس» ففى عام ١٩٢٥ م عثر «جورج رايزنر»[٢٩] على حجرة دفن ، شرقى الهرم الاكبر ، لم يعرف اللصوص طريقهم اليها ، ومن ثم فقد عثر فى داخل هذه الحجرة على التابوت المرمرى الجميل ، والاثاث الجنازى للملكة «حتب حرس» أم الملك خوفو ، وزوج سنفرو ، ومع أن التابوت وجد خاليا الا أنه قد عثر على الاحشاء التى استخرجت من الجسد فى صندوق من المرمر ، عرف باسم «الصندوق الكانوبى» •

ويذهب «جورج رايزنر» الى أن الملكة ربما دفنت فى مقبرة بدهشور ، على مقربة من هرم زوجها الملك سنفرو ، وأن اللصوص قد اقتحموا قبرها وأخذوا الجسد بما عليه من جواهر وحلى ذهبية ، ولكنهم قبل أن يتمكنوا من سرقة بقية أثاثها أكتشف الحراس الامر ، فنقلوا البقية الباقية منه الى الجيزة ، وهناك قطعوا الى جانب طريق المعبد الجنازى للهرم الاكبر ، بئرا عميقا كدسوا فيه ما بقى من محتويات المقبرة ، دون أن يحيطو الملك خوفو علما بذلك •

وهناك فى احدى قاعات المتحف المصرى بالقاهرة ، صفت محتويات الملكة حتب حرس ، ومنها أوان من المرمر ، وابريق من النحاس ، وثلاث أوان ذهبية ، وأمواس وسكاكين من الذهب ، وأدوات من النحاس ، وآلة ذهبية لتقليم الاظافر ، مبرية من أحد طرفيها لتنظيف الاظافر ، ومقوسة من الطرف الاخر لضغط أطراف اللحم عند الظفر الى اسفل ، هذا وقد احتوى صندوق الزينة على ثمان أوان صغيرة من المرمر ، ملأى بالعطور والكحل ، فضلا عن عشرين خلخالا من الفضة ، رصع كل منها

---

29) G. A. Reisner and W.S. Smith, A History of the Giza Nicropolis II, The Tomb of Hetep-Heres, Cambridge, 1955.

وانظر : محمد بيومى مهران : مصر ـ الجزء الثانى ص ١٤٠ ـ ١٤٢

بفراشات من الدهنج واللازورد والعقق الاحمر ، وهناك كذلك سرير الملكة المصفح بالذهب ، فضلا عن محفة مصنوعة من الخشــب ، وقد كسى جــزء منها بصفائح من الذهب ، محـلاة بكتابة هيروغليفية من الذهب ، مثبتة فى لوح من الابنوس ، ومكرره أربـــع مرات ، ويمكن ترجمتها كالتالى «أم ملك مصر العليا والسفلى ، تابعة الاله حور ، رائدة الحاكم ، العزيزة التى نفــذ كل أوامرها ابنة الاله المولودة من صلبه ، حتبحرس»[٣٠] •

وبدهى أن أهم أثاث جنازى عثر عليه انما كان من مقبرة «توت عنخ أمون» والتى كشف عنها فى وادى الملوك بطيبة الغربية[٣١] ؛ ذلك أنه فى صباح يوم ٤ نوفمبر ١٩٢٢ عثر «هوارد كارتر» على باب مختوم فى مكان عميق تخفيه بقايا تكونت فوق مقبرة رعمسيس السادس ، وكان الباب يؤدى الى أربع غرف منها ثنتان داخليتان سالمتان تماما ، وأما الغرفة الخارجية عند المدخــل فكنت تحوى أثاثا أعيد وضعه بسرعة وبغير ترتيب بعد أن حاول اللصوص نهبه وفشلوا ، أما الغرفة الرابعة فتقع وراء ذلك ، وكانت تستخدم للباقيــا والمخلفات الى لم يكن من اليسير اصلاحها •

وفى ٢٩ نوفمبر ١٩٢٢م أجرى رسميا افتتاح الغرفة الخارجية أو الجنوبية التى فاقت محتوياتها كل ما شهده أو حلم برؤيته أى واحد ممن قاموا بعمليات الكشف عن الاثار فى مصر ، فقــد عثر فى هذه الغرفة على ١٧١ قطعة من التحف ومختلف الاثار ، فهناك على الجدار الغربى لهذه الحجرة تركت على عجل صناديق صغيرة ومقاعد وكرسى ذو ثقوب ومزين بروح الخلود ، وعرش يتلألأ بالذهب والفضة وعجائن الزجاج ،

---

30) I.E.S. Edwards, The Pyramids o Egypt, 1965, P. 132-136.

(٣١) أنظر :

H. Carter, The Tomb of Tut-Ankh-Amen, 3 Vols, London, 1923-1933.

وكذا·

C. D. Noblecourt, Tutankhamen, London, 1963, P. 173, 183-184.

وصناديق متنوعة تحوى حليا وملابس لم تكد تمسها يد ، وكذا عناصر أربع مركبات مفككة ، ثم تمثال خشبى مرتفع أمامه صندوق كبير مطعم بالعاج والابنوس ، وقد صورت على ضلعه مناظر للصيد والحرب ، كما عثر كذلك على مذبات مزدانة بريش النعام وحلى شتى ملقاة على الارض أو فى داخل صناديق ، وأوان من الكلسيت وحوامل مشاعل من خشب وبرونز وصولجانات وعصى وأبواق وصناديق صغيرة تحوى حلى وملابس أخرى للملك ، منها تلك القفازات التى كانت تتيح لفرعون مزيدا من راحة امساك أعنة جواده ، كما وجد بوق من البرونز عليه صورة الاله بتاح وأمون وحار أختى ، ثم ثلاث عصى مزخرفة بخرزات ، وأخرى ذات أطراف مقوسة ومزدانة بجسم رجل أسيوى أو زنجى أو هما معا ، وفى موضع آخر وجدت صلاصل من خشب مذهب ، وصندوق صغير ممتلىء بالاثواب والمناديل ومساند الرأس ، وكـــذا تماثيل الاوشبتى الخشبية البديعة ، فضلا عن ناؤوس من الخشب المذهب •

وفى ١٧ فبراير ١٩٢٣ كسر الحائط الذى يفصل الغرفة الخارجية عن الغرفة الغـــربية التى يحرسها تمثـــالان حارسان على الجانبين بالحجم الطبيعى للملك (ما بين ١٦٧ سم ، ١٧٠ سم) ، وان كان أهم ما فيها هيكل كبير مذهب ومحلى بالقاشانى وجدت بداخله ثلاثة هياكل أخرى مذهبة الواحد فى داخل الاخر ، وبداخل أصغرها تابـــوت ضخم من الكوارتز الاصغر يضم فى داخله ثلاثة توابيت فخمة ، وكان التابوت الاخير من الداخل من الذهب الخالص وبداخله موميـــاء الملك بقناعها الذهبى الرائع ، وكذا ثروة ضخمة من الحلى بين اللفائف تبلـــغ ١٤٣ حلية ذهبية ، وكان هناك سرير من خشب مذهب ، منخفض جدا ، على شكل أسد ، يحمل وحده التوابيت الثلاثة والمومياء ، ويبلغ وزنها كلها ١٣٧٥ كيلو جراما ويبلغ وزن التابوت الذهبى وحـــده ١١١٠ر٤ كيلو جراما من الذهب الخالص ، وقد عثر خارج الهيكل الاول على عصا فاخرة مزينة بأزهار اللوتس المصفحة بالذهب والفضة وعجينة الزجاج ، وكان

أمام الهيكل الثانى عصى أخرى ، أجملها اثنتان ، الواحدة من الذهب ، والاخرى من الفضة ، وكل منهما مزدانة بمقبض فى صورة الملك •

وأما الغرفة الشمالية (الخزانة) أو غرفة الكنز ، فتضم صندوقا كبيرا يشبه مقصورة مقدسة تضم تحت أغلفة عديدة أحشاء الملك المودعة فى أوعية كانوبية ، وعلى عتبة الباب حامل لصندوق كبير من الخشب المذهب على شكل صرح المعبد فوقه تمثال فخم مدهون بطلاء أسود للاله أنوبيس ، ملفوف بقماش من كتان ، فلا يظهر منه الا رأسه وفمه المدبب وعيناه المرصعتان بالذهب وأذناه الموشتان بمعدن نفيس ، والى الخلف برز رأس بقرة من الذهب ، لها قرنان من النحاس على شكل قيثارة تمثل الالهة حتحور ، والى الوراء ثلاثة كئوس من الالبستر تحتوى على أشياء مختلفة من الطقوس الجنازية ، ثم هناك مجموعة الاوعية الكانوبية موضوعة على زحافة ، وتحمل العمد الجانبية الاربعة افريزا تزينه ثعابين على رأس كل منها قرص الشمس ، وثمة مظلة تحمى الصندوق الاوسط ، وفى خارج المقصورة تقف الالهات الاربع الحارسات ، ايزة ونفتيس ونيت وسرقت ، وفى داخل هذا الاثاث المذهب استقر صندوق من الالبستر على زحافة ، وعلى زواياه برزت الالهات الاربع باسطة اذرعها الملاصقة بجوانب الصندوق فى هيئة مماثلة ، وحفر فى كتلة الصندوق فراغ يسمح بوضع الجزء العلوى من أربعة أوعية من الالبستر استقرت فى أربعة أقسام ، ويعلو كل منها غطاء فى صورة رأس توت عنخ أمون مزين بالنمس مع العقاب والكوبرا المقدسين على الجبهة •

وعندما رفعت الاغطية ذات الرؤوس الادمية ، ظهر فى كل قسم تابوت مصغر من الذهب وضعت فى داخله أحشاء الملك فى شكل مومياء ، وخضع كل وعاء كانوبى لاله من الذكور ، وجعل بطن كل وعاء فى حمى الهة أنثى ، وهناك على طول الحائط الجنوبى صناديق على شكل الناوؤس من خشب مسود ، مغلقة ، ما خلا واحدا ، أبوابه مفتوحة ، تتلألأ خلالها دمية غريبة بديعة من الخشب المذهب وموضوعة على فهد

أسود لامع فى وضع المشى ، وأما بقية النواويس السود الصغيرة فهى تحتوى على تماثيل صغيرة للملك أو الالهة من خشب مذهب أو مسود بالراتنج ، منها سبعة تماثيل فى صورة الملك ، وتسعة وعشرون تمثالا تمثل الالهة ، وعيونها مرصعة بالالبسر وحجر زجاجى أسود والبرنز ، وكذا بعجينة الزجـاج ، وفوق هذه الصناديق تكدسـت مجموعة من زوارق يتجه مقدمتها صوب الغرب ، وتتجلى فيها جميـع الاشكال ، من الزورق المصنوع من البردى المستخدم فى مطاردة فرس النهر ، الى السفين المخصص لرحلـة الميت الجنازية أو المركب الذى يتيـح له الاشتراك فى رحلة اله الشمس فى عالم الموتى ، وكل هذه السفين مزودة بمكان أو قمرة أو هيكل •

وأمام الصناديق التى تحتـوى على التماثيل الصغيرة المذهبـة والسوداء التى صور الملك والارواح ، والموضوعة على طول الحائط الجنوبى ، ظهر ستة صناديق صغيرة وعلب ذات اشكال مختلفة ، واحد منها مكفت بالعاج والابنوس بصورة فريدة ، وقد أحصى «كارتر» فيه ٤٥ ألف قطعة مرصعة ، كما عثر فيه على حلة للصدر فاخـرة ومزينة بقارب فى وسطه جعل (جعران) يدفع قرص الشمس ، حيث شريط عريض من معدن ثمين معلق به حلية للصدر ، وسلة بدلا من القارب وتشكل المجموعة المكونة من الجعل والسلة والشمس اسم الملك توت عنخ آمون «نب خبرو رع» ، وهو الاسم الذى أخذه عند التتويج ، وكل ذلك من ذهب وأحجار كريمة •

وأما الصندوق الثانى فكان على شكل الخرطوش الملكى ، وقد برزت على الغطاء المصفح بالذهب ، والمحفوف بالابنوس ، بعض النقـوش الهيروغليفية المرصعة بالعاج والابنوس ، والتى استخدمت فى كتابة «توت عنخ أمون» وهو اسم الملك الذى حمله قبل تتويجه ، وكان هذا الصندوق مليئا بالمجوهرات المكدسة فى غير نظام ، وهى عبـارة عن أقراط وأسـاور من اللازورد وعجائن الزجاج والفـيروز والعقيق

والجمشت واليصب الاحمر ، هذا فضلا عن عدة صناديق أخرى تحوى أشياء كثيرة أو قليلة من أثاث الفرعون الجنازى •

وفى آخريات نوفمبر عام ١٩٢٧م بدأ «كارتر» العمل فى الحجرة الرابعة أو الملحق ، حيث كشف عن تكدس لا يتصوره العقل لأشياء منوعة قلبها اللصوص ، وتركها مفتشو الجبانة كما هى ، وعلى أى حال، فقد كشف فى الملحق عن أربعة أسرة من نمط واحد ، منها سريران من الابنوس ، أحدهما مكسو بصفيحة سميكة من الذهب ، والثانى مذهب. ثم سرير ثالث قابل للطى ، ثم هناك عرش فخم من خشب الابنـوس المطعم بالعاج ، وبعض أجـزائه مصفحة بالذهب والاخـرى مطعمة بالخزف والاحجار الرقيقة ، والى جـانبه كرسى من القش ، اعتبره المنقبون من مقاعد الحديقة ، وبجواره كرسى آخر مدهون بطلاء ابيض، ثم كرسى ثالث بدون ظهـر ومطلى بلـون أبيض ، ثم مقعـد نصف دائرى ووسادة مستديرة ، ثم هناك خزانتان نفيستان مزودتان بأربع أرجل طويلة من خشب الارز الاحمر القاتم والابنوس ، وبهما افريز من التمائم من دعائم أوزير ، وعقدة على الخـزانة الاولى ، وعلامة «عنخ» (الحياة) متبادلة مع صولجانات «واس» (القوة الالهية) •

ثم هناك علبة خشبية مربعة فى داخلها ما يشبه المشجب لابد أنها كانت عليها قلنسوة الملك ، لم يبق منها الا آثار من قماش كتانى وبضع خرزات رقيقة من ذهب ولازورد وعقيق وفلسبار ، ثم علب من الابنوس لملابس الملك ، الى جانب صندوق كبير على شكل القوس به قسى وسهام وعصى وسيوف وتروس ، الى جانب مجموعة من العصى والهراوات مزخرفة بالذهب أو الفضة أو مطعمة بالخشب أو العاج ، ثم مراوح صغيرة وكبيرة ، ثم مجموعة من تلك اللعبة ذات الثلاثين قسما ، ماتزال بها أحجار اللعب باحجار مختلفة ، ويدخل فى صناعتها الابنوس والعاج والذهب ، ثم مجموعة الاوانى التى حوت الازهار والمؤن من يابس وسائل ، بقى منها ٨٤ آنية من الالبستر ، وجدت فارغة ، ثم ١١٦ سلة موضوعة فوق الاوانى تحتوى على فواكه جافة وبذور كالعنب والدوم

والماندراجور (تفاح الجن) وبذور الشمام وغيرها ، ثم ٣٦ جرة من النبيذ ، على بعض سداداتها آخر سنة من حكم توت عنخ آمون ، وهى السنة التاسعة[٣٩] .

٧ ـ الطقوس الجنازية :

لم تكن رعاية المتوفى مقصورة على تحنيط جثته ودفنها مع مايلزمها من ضرورات الحياة المادية ، وانما يجب أن يتلى عليها ما يجب تلاوته من تراتيل السحر والدين ، عند الوفاة ، وعند الغسل والتطهير ، وعند الدفن ، وعند تقديم القرابين وعند اجراء الصلوات فى مقاصير المقابر وهياكل المعابد ، وأوسع المصادر الدينية حظا فيما تضمنته من هـذه التراتيل ، وأوسعها تعبيراً عن عقائد ما بعد الموت وتطـورها من عصر الى عصر انما هى : متون الاهرام ومتون التوابيت ، وكتب الموتى .

فأما متون الاهرام التى كشف عنها «جاستون ماسبرو» فى عـام ١٨٨٠م فى داخله هرم وناس ، ثم عثر بعد ذلك منها فى أهرام ملوك الاسرة السادسة ، بل وفى أهرام بعض ملكاتها ، فهى التعاويذ السحرية والطقوس الجنازية ، وأجزاء من بعض الاساطـير المصرية القديمة ، يرجع تاريخ بعضها الى ما قبل الاسرة الاولى ، بل فيها أشارت الى الحرب التى قامت فى مصر فى أوائل أيامها ، على أنها حروب بين الالهة التى عبدت فى تلك الايام .

وعلى أى حال ، فهى تختلف من هرم الى آخر ، بل ان الكهنة الذين أشرفوا على اختيارها لكل ملك ، انما كانوا يختارون البعض ويتركون البعض الاخر ، وقد قسمها «كورت زيته» الى ٧١٤ فقرة ، وأما الهدف منها فكان ضمان سعادة الملك فى العالم الاخر ، حيث تفتح له أبواب السماء التى حرمت على غيره من الناس ، فضلا عن تحوله الى نجم من

---

39) C. D. Noblecourt, Tutankhamen, London, P. 59-102.
وأنظر : الترجمة العربية ص ٥٧ ـ ١٠٥ .

النجوم التى لا تفنى ، والى اله للشمس ، أو على الاقل يكون فى ركاب اله الشمس •

ولعل من أمتع ما جاء فيها عن مصائر القوم بعد الموت «أن الجسد للارض ، والروح للسماء» ، وقولهم فى مخاطبة فرعون فى حديث رمزى «قد يتحلل جسدك طولا وعرضا ، ولكن روحك سوف تبقى ، وسوف تشهد رع فى غلالاته الحمراء» مما يدل على أن القوم رغم ايمانهم بمقابرهم على أنها بيت الخلود ، الا أن أرواحهم لن تظل حبيسة فيها، وانما سوف تكون ، وبخاصة أرواح الملوك والاخيار ، طليقة فى عالمها غير المنظور ، تستمتع بصحبة موكب الشمس حيث شاءت ، وتستروح نعيم الجنــة فى العالم الاخر حيث شاءت ، وتؤوب الى قبرها لتنعم بمرآى القرابين متى شاءت،وتحط على جسدها حيث شاءت،هذا فضلا عن أن القوم لم يتخيلوا أن روح فرعون سوف ترتقى الى السماء دون اذن من ربها ، ودون شرط ضرورى لنعيم صاحبها فى أخراه ، ومن ثم فهم يخاطبون كائنا فى السماء قائلين «انظر : ان الفرعون آت مقبــل منطلق ، ولكنه لم يأت من تلقاء نفسه ، وانما استدعى بناء على رسالة أتت اليه ، وأن الرسل قد أحضرته ، وكلمة مقدسة رفعته» كما أشارت متون الاهرام الى أن وصول الملك الى نعيم الاخرة عند رب السماء، انما يتطلب أن يعبر بحيرة مقدسة ، وأن يعلن لربان هذه البحيرة «أنه ملك صادق فى السماء ، عادل فى الارض» ، مما يشير الى أن عــدل فرعون فى الارض انما هو سبيل القربى من رب السماء •

ومع ذلك فان هذه المتون نفسها هى التى جعلت الملك يدخل أبواب السماء التى حرمت على غيره من رعــاياه ، وأن مأواه السماء ، وأما الآلاف فمأواهم الارض ، وربما كان المراد أن جنة الملك فى السماء ، وأن جنة العامة من الناس على الارض ، ذلك لان القوم انما كانوا يظنون حتى نهاية الاسرة الخامسة أن مركز الجنة الارضية انما كان فى حقل القربان عند هليوبوليس ، المركز الرئيسى لعبادة الاله رع ، الذى زعموا أنه أول من حكم الدنيا ونشر العدل والمساواة فيها ، بقانون

ماعت الذى سنه ، ثم تخلى عن حكم العالم الدنيوى لابنه ، ورفع نفسه الى السموات العلى ، كما رفع كذلك حقل قربانه الى العالم العلوى ، وأصبح مأواه الابدى فى السماء ، وهناك كان ينعم ابن رع (أى الملك) بعيشة راضية فى حقول والده ، وترك حقول القربان التى على الارض فى هليوبوليس للعامة من الناس[٣٣] •

وأما متون التوابيت فقد ظهرت منذ أخريات الدولة القديمة،وكانت مقصورة على الفرعون وحده ، غير أن الثورة الاجتماعية الاولى انما أدت الى أن تصبح هذه التوابيت أمرا مشاعا بين أفراد الشعب ، كما أصبحت تكتب على جدران التوابيت ، بدلا من داخل الاهرامات ، هذا وقد تنوعت مذاهبها فى عصر الثورة الاجتماعية والدولة الوسطى ، واقتبس الكهان بعض أورادها من متون الاهرام ، ثم ألقوا بقيتها بما يتناسب مع عهودهم المتتالية وآمالهم فيها ، وكان من أهم ظواهرها تلقب كل متوف بلقب «أوزير» أملا فى أن ينعم فى الاخرة بما نعم به ويخلد فيها مثل خلوده •

وكان هذا اللقب فى بدايته مقصورا على الفرعون باعتباره وريث أوزير فى الدنيا والاخرة ، فلما اهتزت الملكية فى أخريات أيام الدولة القديمة حصل النبلاء على حق استخدام نصوص الاهرام وبدأوا يكتبونها على توابيتهم ، ومن هنا فقد أصبح أى شخص له من الاهمية والثروة ما يمكنه من أن يشترى تابوتا مكتوبا ويحصل على الخدمة الكهنوتية عند موته ، ويستطيع أن يسخر الدين ليصبح الها عند الموت، انه يصير الاله أوزير عند وصوله الى عالم الاخرة ويصبح واحدا من أعداد الالهة ، وفى العالم الثانى لن يكون بينه ، وبين فرعون فارق جوهرى •

---

(٣٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣١٩ – ٣٢٠ ، سليم حسن : المرجع السابق ص ٢١٨ ،
S.A.B. Mercer, The Pyramid Texts in Translation and Commentary, 4 Vols, N. Y. 1952.

ولم يقتصر الامر على النبــلاء ، فان الهزة العنيفة التى أصابت الملكية فى قدسيتها ، جعل العامة من القوم لا يكترثون كثيرا بالعقيدة القائلة : ان الملك وحده هو الوسيط بين الناس والالهة ، ومن هنا أصبح كل فرد فى استطاعته الحصول على تلك القرابين التى كان الملوك يهبونها للناس عن طريق الطقوس الجنازية ، ترى ذلك بوضوح فيما عرف فى هذا العصر بنصوص التوابيت ، وهكذا استعمل عــامة القوم نفس النصوص السحرية والشعائر الدينية التى كان يستعملها الملك ، والتى تبشر كل منهم بحسن المآب •

هذا وقد تنوع مضمون متون التوابيت ، كما تنوع مضمون متون الاهرام ، بين أناشيد ودعوات وأساطير وفلسفات وتخيلات وأوهام ، وكان من نصوصها ذلك النص الذى يعبر فيه الاله الخالق عن أغراض الخليقة ، وفيه ترد عبارة ربما كانت سببا فى أن يوضع هذا العصر فى مرتبة أرفع من روح العصر السابق أو اللاحق ، حيث نرى الاله يذكر فى هذه العبارة أنه خلق جميع الناس متساويين ، وأنه اذا اعتدى أحد على هذه المساواة ، فليس ذلك من عمل الاله الخالق ، وانما هو من عمل بنى الانسان ، والطريف أن الرواية قد بدأت بتصوير الرب يحادث حاشيته فيما فعل ، وقالت : «قال رب الكل لمن ارتاحوا من النصب وساروا فى معيته ، اطمئنوا فى سلام ، ولسوف أعيد عليكم أربع منن أوحى الى قلبى بآدائها ، لقـــد صنعت الرياح الاربعة ليتنفس منها كل انسان مثل أخيه ابان حياته . وذلك أول الافعـــال (المنن) . لقد صنعت مياه الفيضان العظيمة ، وجعلت للفقير فيها ما للعظيم من حق، وذلك ثانى الافعال ، لقد خلقت كل انسان مثل أخيه ، ولم آمرهم بفعل الشر ، الا أن قلوبهم قد انتهكت حرمة ما فعلت ، وذلك ثالث الافعال، لقد صنعت قلوبهم بحيث تفكر فى الغرب لكى تقدم القرابين المقدسة لآلهة الاقاليم ، وذلك رابع الافعال»[٣٤] •

---

(٣٤) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ١٦٧ ـ ١٦٨ ،ص ١٧٤ ـ ١٧٥ ، وكــذا

وأما كتاب الموتى أو كتب الموتى ، فكانت تحوى نصوصا جنازية تحفظ مع الميت فى تابوته أو توضع بين أكفانه وتكتب على أدراج متفاوتة الاطوال من البردى والرق بالخط الهيروغليفى والهيراطيقى أو الدموطيقى وقد أطلق القوم عليها اسم «تعريفات للخروج نهارا» ، مما يشير الى أن الهدف منها انما هو تمكين المتوفى من الخروج من ظلمة القبر الى ضوء الشمس ، وتمكينه من الحركة بعد الموت ، فضلا عن توفير السعادة له فى العالم الاخر ، ومن المعروف أن هذه النصوص التى ترجع الى عصر الدولة الحديثة وحتى العصر البطلمى لم تكن متكاملة فى عدد موضوعاتها ، وانما كان كل نص منها يتضمن بعض الموضوعات ويخلو من البعض الاخر ، الا أن جميع الموضوعات ، كما وردت فى أكثر من كتاب انما تتكون من ١٤٠ فصلا ، ورد الكثير منها مكتوبا فى متون الاهرام وفى متون الوابيت .

وكتاب الموتى ليس من الكتب الدينية المقدسة بل انه لم يحو نصائح معينة للميت ، كما لا تنطبق عليه صفات الكتاب المتكامل الموضوع المحدد الهدف ، وفصوله متتالية لا يجمع بينها وحدة فكرية ، ولعل أهمها الفصل ١٢٥ والذى يؤكد فيه الميت عدم اقترافه لأية معصية ، ثم هناك الفصل السادس الذى يكتب على أجسام التماثيل المجاوبة (الاوشبتى) ويطلب من كل تمثال أن يهب فى اليوم المحدد له ، لكى ينوب عن صاحبه فى أعمال الزراعة فى عالم الموتى ، اما الفصل الثلاثون فيختص بالقلب وما يجب أن يشهد به أمام محكمة الموتى ، هذا ويمتاز كتاب الموتى بالصور التوضيحية التى كانت تتخلل النصوص ، وقد اعتنى الفنانون برسمها وتلوينها بألوان زاهية ، فمثلا كانت فكرة الحساب والمسئولية أمام الارباب قد ترددت من قبل فى متون الاهرام ومتون التوابيت ، ولكنها أصبحت أوضح فى كتاب الموتى ، حيث عبر عنها المصرى القديم

=
J. A. Wilson, The Burden of Egypt, 1954, P. 116; ANET, 1966, P. 7-8.
وكذا J. H. Breasted, The Dawn of Concience, P. 221 F.
وكذا A. de Buck, OIP, LXXXVII, 1961, P. 461-465.

باللفظ والصورة ، وبالصورة المعنوية والمادية[٣٥] •

(٨) العمل الصالح سبيل السعادة فى الآخرة :

كانت عصور ما قبل الثورة الاجماعيه الاولى تهتم ببناء وصيانة ضريح رائع يبقى خالدا على مر السنين ، اذ آن ذلك ، فى نظر القوم ، ضمان للخلود فى العالم الاخر ، بل ان فقدان القبر انما كان فى عقيدة القوم ، أكبر كارثة يمكن أن تحل بمصرى ، ومن ثم فقد اتخذها الملوك كأقسى عقاب لمن يمكن أن يشك فى ولائه لفرعون،حتى أن أحد الحكماء قد حذر أولاده من هذا العقاب الاليم ، اذ يقول «لا قبر لانسان خارج على الملك ، وانما سيلقى بجثته فى الماء» ، وتقوم الثورة الاجتماعية وتبقى على هذا النصب ، ومن ثم فاننا نرى الملك الاهناسى ينصح ولده باقامتها «زين مثواك الذى فى الغرب ، وجمل مقعدك فى الجبانة»[٣٦]، غير أن عصر الثورة لم يقتصر على الوسائل المادية كسبيل للسعادة فى الحياة الثانية ، وانما أصبح للاخلاق فى هـذا العصر شأن عظيم فى تقرير مصير الانسان بعد وفاته •

وهكذا أصبحت الاهمية الـكبرى للوصول الى الخلد هـو العمل الصالح ، بعد أن كان ذلك من قبل للثروة والقربى من الملك الاله،وتقدم لنا الملك الاهناسى أمثلة كثيرة على ذلك ، ففى تعاليمه التى وجهها لولده «مرى كارع» حثه فيها على نبذ المادية فى ثلاث فقرات «لاتكن شريرا، فالصبر خير ، اجعل بيت ذكراك خالدا بحب الناس لك» ، وعندما أراد أن يقارن ذلك العمل الاخلاقى ببناء بيت الذكرى ، قال له «اجعل الناس يحبونك فى الدنيا ، فالخلق الطيب ذكرى للانسان» ، أما الفقرة الثالثة فتعلن صراحة أن الخلق الطيب أفضل من قرابين الاشرار ، «ان فضيلة

---

(٣٥) عبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق ص ٣٤٤ ، وكذا
T. G. Allen, JNES, 11, 1952, P. 177-186.
A. de Buck, JEA, 35, 1949, P. 87-97.
T. G. Allen, The Book of The Deadfi Chicago, 1974.
36) A. Erman, The Literature of The Ancient Egyptians, 1927, P. 86.

الرجل المستقيم أحب الى الاله من ثور الرجل الشرير» (أى الثور الذى يقدمه كقربان)[٣٧] ، ويقدم صاحب قصة القروى الفصيح مثلا آخر، حين يحذر كبير حجاب القصر الملكى فى جملة مقتضبة تحمل كل معانى التحذير من يوم الحساب «احذر فان الابدية تقترب»[٣٨] .

هذا ويرى امراء عصر الثورة الاجتماعية يفخرون بمراعاة العدالة وحب الفقراء والعناية بهم ، فيذكر الواحد منهم بفخر أنه أنقذ الارملة وواسى المتألم وأطعم الجائع ، ولم يفرق بين رجل فقير ، وآخر عظيم فى شىء ، وها هو «امينى» أمير بنى حسن يقول فى نقش كتبه على مزار قبره «اننى لم استعمل القوة مع أية واحدة من بنات الاهالى ، ولم أظلم أية أرملة ، ولم أقبض على أى عامل ، ولم أطرد راعيا ، ولم يكن هناك رئيس أخذت منه عماله أثناء العمل ، وليس هناك فقير ولا جائع فى عصرى»[٣٩] ، ويذكر «حقا ايب» حاكم أسوان «لقد أعطيت الخبز للجائع ، والكساء للعريان ، وأنعمت على البسطاء سرا ، وأعطيت سلف القمح لمصر العليا ، كما أعطيت الأقاليم الشمالية من شعير مصر العليا، وقدمت الزيت لاقليم نخن ، بعد أن أخذت منه مدينتى حاجتها ، وصنعت سفينة طولها أربعون ذراعا ، وكذا قاربا ، لنقل الماشية ، وتعدية من لا قارب له فى فصل الفيضان»[٤٠] .

ويفخر «خيتى» أمير أسيوط على عهد الاهناسيين بادارته الحكيمة وما قدمه من خير لمحكوميه ، فيقول «لقد قدمت هدية لمدينتى ، عندما حفرت فى الارض الصالحة للزراعة ، قناة عرضها عشرة أذرع ، وقدمت أجورا من الحبوب للساقين ليتولوا توزيع المياه وقت الظهيرة ، وأمددت المناطق المرتفعة بالمياه ، وحفرت نبعا فى الجبل الذى عــز فيه الماء ،

---

37) J. Wilson, ANET, P. 417.
38) A. Erman, Op. Cit., P. 123.
39) P. E. Newberry, Beni Hasan, I, 1893, P. 27.
40) H. J. Polotskq, JEA, 16, 1930, P. 194.
وانظر : محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ١٨٦ — ١٨٨ .

وضمنت الحدود الزراعية ، ورفعت علامات الحدود القديمة حتى أخذ كل مزارع حاجته من الماء ، ونال كل مواطن نصيبه من ماء النيل ، وكما أرضيت الجار سقيت جاره»[41] .

وهكذا اعتقد القوم أن على المرء أن يوجه عنايته لاقامة الشعائر الدينية لينال عطف الاله ، غير أن ذلك لن يغنى عنه من الله شيئا ، مالم تسنده أعمال طيبة ، وفى جملة الملك الاهناسى التى تنص على أن الاله يسر للخلق الفاضل أكثر من سروره بالقرابين الكثيرة ، والتى تعد أجمل ما جاء فى التفكير الخلقى فى مصر الفرعونية فى ذلك العصر المبكر ، وفى هذه الجملة دلالة على أن للفقير ما للغنى من حق فى رعاية الله ، ذلك لان أكرمهم عند الله أتقاهم ، وليس أكثرهم قربانا ، وهكذا فان السعادة فى الاخرة لم تعد تتوقف على قبر يبنى ، أو قرابين تقدم ، ولكنها أصبحت فى العمل الصالح ، والعدل بين النـــاس ، والعطف عليهم والعناية بهم ، وفى هذا يقول الملك الاهناسى «أقم العـدل لتوطد به مكانتك فوق الارض ، وواسى الحزين ، ولا تسيئن الى الارملة ، ولا تحرمن رجلا من ميراث أبيه ، ولا تضرن الاشراف فى مراكزهم»[42].

وهكذا ظل المصريون ، كما كانوا قبل الثورة الاجتماعية ، يؤمنون بأهمية اوسائل المادية كطريق للسعادة فى الحياة الاخرة ، فالقبر الفخم والهبات الجنازية السخية من الامور الهامة فى ذلك ، ولـكن الثورة أضافت الى ذلك ، أن السعادة فى الاخرة ، لن تكون فقط بقبر يبنى أو قرابين تقدم بانتظام ، أو بعطف من الملك ورضاه ، وانما السعادة فى العالم الاخر بشىء أفضل من ذلك وأهم ، بالعمل الصالح ، فهو طريق النجاة من أخطار العالم الثانى ، وهكذا تأتى لنا الثورة بما يعـد من أنبل ما جاء به التفكير الخلقى أو الدينى فى مصر القديمة حين تؤكـد

---

41) J. H. Breasted, ARE, I, 1906, P. 188.

(٤٢) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٨٧ ــ ١٨٨ ، وكذا .
A. H. Gardiner, JEA, I, 1914, P. 28.

مبادؤها بأن الاخرة انما هى نتاج عمل الدنيا ، وأن الذين اعتادوا عمل الخير فى الدنيا ، سوف يسلكون نفس الطريق ، وسوف يجنون ثمرة عملهم هذا ، لان «الروح تذهب الى المكان الذى تعرفه ، ولا تحيد فى سيرها عن طريق أمسها» •

وهكذا تكشف الثورة للمصريين ، منذ ذلك المعهد البعيد ، أن القيم الخلقية يجب أن تحل محل القيم المادية ، وأن الانسان ان أراد خلودا فى آخرته ، وسعادة فى حياته الثانية ، فليسلك الى ذلك سبيل الخير ، ومن ثم فان مصر تكون أول أمة عرفت القيم التى فى الانسان العادى، ولم يقف الامر فى مصر عند هذا الحد ، بل أن هذه المعرفة انما كانت تهدف فى محاولاتها الى أن يتمتع عدد كبير من الناس بحياة أفضل(٤٣)•

(٩) محكمة الموتى :

كان المصرى القديم يعتقد أن الميت سوف يحاكم أمام اله الشمس ، وذلك استجابة لطلب أى انسان كان الميت قد أخطأ فى حقه وليس حسابا على شىء آخر ، فاذا لم يطلب المتوفى المحاكمة بهذه الصفة فمن المحتمل الا يتعرض فى الحياة الثانية لمحاكمة أخرى ، ثم ما لبث أن ولدت فكرة محكمة أوزير التى تنتظر كل انسان لتحاكمه على ما قدمت يداه من تصرفات وفقا لقواعد الاخلاق ، وهكذا فاننا نقرأ — ولاول مرة فى التاريخ المصرى — عن وجود محكمة بعد الموت يقف الناس أمامها جميعا يؤدون امتحانا عسيرا عما قدموه فى دنياهم ، خيرا كان أم شرا ، ولن ينجح فى هذا الامتحان الالهى أصحاب الثروة والجاه والاهرامات الشاهقة والقبور الفخمة وما يقدم لاصحابها من قرابين وأدعيات ، وما أقام فيها من طقوس وصلوات ، وانما سيكون النجاح فيها من نصيب أصحاب العمل الصالح وذوى النفوس الطيبة ، ذلك لان أعمال كل انسان — أيا كان هذا الانسان — ستوضع مكدسة

---

(٤٣) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٢١٤ — ٢١٥ •
J. Wilson, The Burden of Egypt, P. 114; ANET, P. 415.

بجواره ، وستقرر المحكمة مصير الموتى أجمعين ، وهكـــذا أصبح من مستلزمات ذلك العهد أن المرء لابد وأن يجتاز امتحانا عسيرا أمام هذه المحكمة لينال السعادة المنشودة فى العالم الآخر •

وفى تعاليم الملك الاهناسى اشارة الى ذلك ، حيث يقـــول لولده : «انك تعلم ان القضاة الذين يحاسبون المذنب لا يرحمون الشقى يوم المحاكمة ، وتسوء العاقبة ان كانت التهمة من الواحـــد العاقل (ربما تحوت الذى يدير المحاكمة يوم القيامة) ، لا تضع ثقتك فى طول السنين ، فهم ينظرون الى فترة المحاكمة ، وكأنها ساعة ، ثم يبعث المرء ثانية بعد الموت ، وتوضع أعماله بجانبه كأكوام ، لان الخلود مثـــواه هناك فى العالم الاخرة ، الغبى من لا يهتم بذلك ، أما من يأتى يؤمئذ دون أن يرتكب اثما ، فانه سوف يعيش هناك كما يعيش الابـــرار المتوفين ، سادة الابدية» ، وهكذا يحذر فرعون اهناسية ولده ، من يوم الحساب ، من يوم لا ينفع فيه مال ولا بنـــون ، ولا جاه ولا سلطـــان ، لان من سيحاسب الناس انما هو الواحد العاقل ، كما يحذره من أن يغتر بطول السنين ، لانها فى نظر قضاة الابدية وكأنها ساعة مما يعد القوم ، وأنه سوف يجد هناك أعماله كلها مكدسة بجواره «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» ، وهكذا تكون نتيجة المحاكمة ، فمن يصل الى الاخرة وقد عمل الخير فى دنياه ، فانه سيثوى هناك مرحا مع الابرار المتوفين ، ومن لا يكترث بنتائج هذا اليوم فهو غبى أحمق ، وسيكتب عليه سوء المصير[٤٤] •

هذا وقد تصور القوم أن «أوزير» انما سيكون سيد مملكة الموتى ، والمشرف على حساب الميت ، هذا وقد صور كتاب الموتى ، من عهد الدولة الحديثة ، المحاكمة أوضح تصوير ، وعبر عنها باللفظ والصورة ، فهناك

---

(٤٤) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٨٨ ــ ١٨٩ ، ٤١٤ ــ ٢١٦ •

A. Erman, Op. Cit., P. 77; J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, P. 250.

ما يمثل أوزير جالسا على عرشه فى أحد جانبى بهـو العدالة ، وأمامه أبناء حور الاربعة (ايمسى وحابى ودواموتف وقبح سنواف) ، فضـلا عن ملتهم الموتى ، وهو حيوان هجين له رأس تمساح وصدر أسد وعجز فرس النهر ، وفى الجانب الاخر يتقدم الميت تتلقاه الهة الحق والعدالة ، وفى الوسط ميزان ينصب ويوضع فى احدى كفتيه قلب المتوفى ، باعتباره مصدر النية والمشاعر والضمير ، بينما تصور فى الكفة الاخرى «ريشة»، ترمز من حيث اللفظ الى كلمة «ماعت» بمعنى العدالة ، وترمز من حيث الصورة الى دقة الوزن وحساسيته ، ويجرى الحساب ، كما قلنا آنفا ، فى حضرة أوزير ، رب الآخرة ، وبحضور اثنين وأربعين قاضيا يمثلون أرباب عواصم الاقاليم ، ويتحقق حور وأنوبيس من صحـة الوزن ، بينما يقوم على تسجيل الحسنـات والسيئات تحـوت ، رب الحكمة والكتابة ، فيسطر على لوحة ينتجه الوزن ونتيجة دفـاع المتوفى عن نفسه أمام أربابه والهه الاكبر ، وحينئذ يتحدد مصيره ، فاما الى جنات ذات بحيرات وغدران وزروع ترتفع سنابلها الى سبعة اذرع ، واما الى جحيم تتنوع فيه صور الحرمان والفـزع وأذى الوحوش والحيـات والثيران •

ولعل من الاهمية بمكان الاشـارة الى ان على المتوفى أن يتقدم بدفاعين ، الواحد عن نفسه ، وهو دفـاع عام ، والآخـر الى كل من القضاة باسمه وصفاته وأن يبرىء نفسـه أمامهم من اثنين وأربعين خطيئة ، ومما يقوله فى دفاعه الاول : «انني لم اقترف اثما ضد البشر ، ولم أفعل شيئا تمقته الالهة ، ولم أسع بأحد عند رئيسه ، ولم أجوع أحدا ، ولم أدع أحدا يبكى ، ولم أقتل ، ولم أحرض على القتل ،ولم أسبب لاحد ألما ، ولم أتحيف من خبـز الالهة ، ولم استلب طعـام الابرار ، ولم أفسق فى المكان الطاهر لاله مدينتى ، ولم استعمل مكيالا منقوصا ولا ذراعا ناقص الطول ، ولم أزيف فى أبعاد الحقل ، ولم أزد مثاقيل الميزان ، ولم أزحزح لسان الميزان ، ولم أسلب اللبن من فـم الطفل ، ولم أسرق الماشيـة من مرعاها ، ولم أصد طيـور الالهة ولا

الاسماك من بحيراتهم ، ولم أمنع ماء الفيضان فى وقته ، ولم أسد على الماء الجارى ، ولم أؤذ قطعان المعابد ، ولم أعترض ارادة الاله» •

وأما الذنوب التى ينكرها الميت فى دفاعه الثانى ، فمنها أنه لم يسرق طعاما ، ولم يذبح الثيران المقدسة ، ولم يسترق السمع ، ولم يصم أذنيه عن كلمات الحق ، ولم يقترف ما يندم عليه ، ولم يتكلم كثيرا بلغو ، ولم يجهر بصوته ، ولم يسىء الى الملك ولا الى الاله» •

وهكذا استطاع المصريون القدامى أن يقتربوا الى حد ما من المبدأ الذى قررته كتب لسماء ، وهو أن الآخرة نتيجة عمل الدنيا ، فمن عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، ولكن هناك امورا هدمت ذلك المبدأ النبيل ، أو على الاقل أوجدت ثغرة فيه ، ولعل أهم تلك الامور أنهم استمروا على اعتقادهم القديم فى أن العوامل المادية كاقامة القبور الفخمة والانفاق عليها بسخاء ، انما يضمن سعادة المتوفى فى العالم الآخر ، ومن هنا نرى الملك الاهناسى ينصح ولده بأن يزين مثواه الذى هو فى الغرب ، فهى الشىء الذى تركن اليه قلوب أهل الاستقامة ، ومنها كذلك أنتشار السحر وزيادة الاعتماد عليه فى عالم الآخرة ، ومن ثم فقد لجأوا الى التعاويز التى رأوا فيها حماية للمتوفى من الاخطار التى تحف به فى الآخرة ، أو على الاقل تزوده فى آخرته بما هو فى حاجة اليه من نعيم ، فانتهز الكهنة تلك الفرصة لابتزاز أموال الناس حبا فى الكسب الذى كان يأتى اليهم بهذه الطريقة السهلة ، وضاعفوا أخطار الآخرة بدرجة كبيرة ، وادعو أنهم يستطيعون انقاذ الموتى فى كل موقف حرج بتعويذة خاصة تنجيه من ذلك الخطر حتما ، وبذا يضمن المتوفى قبوله خلقيا عند المحاكمة فى عالم الآخرة •

ومنها امتزاج أفراد الشعب بعد موتهم بربهم «أوزير» وكان ذلك من شأنه القضاء على الهدف من المحاكمة ، ذلك أن الديمقراطية ، التى نادى بها عصر الثورة الاجتماعية لم تكن وقفا على الحياة الدنيا ، وانما تعدتها الى الحياة الثانية ، ومن ثم فقد شارك العامة الفرعون فى

مصيرة الاخروى ، فكما أن الفرعون سيصير «أوزيرا» فى الآخرة ، فقد اعتقد كل فرد أنه سيكون كذلك «أوزير» ، فما كـاد الحى ينتهى الى الآخرة حتى يحمل أوزيـر وصفاته ، فيرعى جسده حـارس الموتى «أنوبيس» ، وتحنو عليه ربة السماء «نـوت» ، وتبكيه أختاه ايـزة ونفتيس ، ويقـوم الى جواره ولده ليدفع عنـه شر المعتدين وأذى الكائدين ، ثم يقوده فى موكب النصر والرحمة الى مكانه من السماء ، وما يكاد ركب التاريخ يصل بأيامه الى مطلع الحياة من أيـام الدولة الوسطى حتى تصبح هذه العقيدة واضحة بينة فيما انتشر على توابيت الموتى من تعاويـذ ورقى مخلفة تشير كلها الى أن الناس قد تسـاوت مقاديرهم فى هذه الدنيا ، فأصبحوا فى عالم القبور سواء،ذلك لان مجرد الامتزاج بأوزير أصبح كفيلا بأن يحقق براءة الميت ، وأصبح كل ميت يلقب «بالمبرأ» ، ولم يكن هناك مجـال للاعتراف بأى ذنب أقترفه فى حياته ، اذ كان عليه ، كما رأينـا آنفا ، أن يعلن براءته مـن كل ذنب وخطيئة ، وأن يدعى لنفسـه سلسلة طويلة من الفضائل والاعمـال الحسنة ، وهكذا أدت مساواة كل ميت بالاله أوزير ، وامتزاجه به الى براءة صورية ضيعت الغرض من المحاكمة ، وأصبح الاهتمام بالسحر والشلكيات شائعـا .

وهكذا أدت كل هذه العوامل دورا هاما فى القضاء على الهدف من المحاكمة ، وجعلت منها شيئـا يمكن التخلص منه بوسيلة أو بأخرى ، ومع ذلك فلا نستطيع أن ننسى أن المصريين فى تلك الفترة المبكرة من تاريخهم نسبيا ، استطاعوا أن يصلوا الى هـذا المستوى من التفكير الدينى والخلقى ، فقد أصبح للاخلاق فى نظرهم شأن عظيم فى تقرير مصير الانسان بعد الموت ، بعد أن كان ذلك وقفا على الوسائل المادية ، وعلى مقدار صلة المتوفى بالملك الاله ورضاه عنـه[٤٥] .

---

(٤٥) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٨٩ ـ ١٩٠ ، ٢١٦ ـ ٢١٧ ، أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٧٠ ـ ٧١ ، محمد أنور شكرى: المرجع السابق ص ١٧٤ ـ ١٧٦ ، كذا

J. H. Breasted, Op. Cit., P. 268.

وانظر : الترجمة العربية (برستد : فجر الضمير ص ٢٦٦ ـ ٢٩٠)

الفصل السادس

الكهـــــانة

(١) نشأة الكهانة وشروطها :

من المعروف أن العبادات فى مصر كانت تقام فى أى معبد باسم الملك الذى كان مسئولا عن اقامـة العبادات ، فضـلا عن دوره السياسى والادارى والتشريعى ، وهكذا كانت واجبات الملك الدينية كثيرة ، فهو الذى يبنى المعابد ويقدم لها الهدايا وهو الذى يمنح القرابين ، وهو الذى تمثله جميع صور المعبد ، وهو الذى كانت تقام له الصلوات فى المعبد ، فى حين لا يرد شىء عن شعبـه التقى ، وفى الواقع فان علاقـة الملك بالالهة انما تختلف تماما عن علاقة الالهة بأى فـرد من الرعية ، فهو بوصفه ملكا على مصر انما كان ابنا وخليفة للالهة ، يقدم لها القرابين كأسلاف له ، كما كان يقدم أى فرد عادى قرابينه لأرواح أجداده ، ومن ثم فهو الكاهن الاول لكل اله فى البلاد وبالتالى فقد كان عليه أن يقوم بالطقوس الواجبة نحو الالهة .

وبدهى أن هذا انما كان أمرا محالا ، زمانا ومكانا ، ومن ثم فقد كان الملك ينيب عنه أولاده أو كبار موظفيه فى الاقاليم ، على أن يقوم هو بأداء واجبه الدينى نحو اله العاصمة ، وربما الاله المحلى فى المكان الذى يقيم فيه ، وقد جاء فى أحد فصول الشعائر «ان الالهة قد أعدت لى السبيل ، وأن الملك هو الذى يرسلنى لاجتلاء طلعة الاله» ، فالملك اذن هو الذى يعين الكهنة الذين كانوا يختارون عادة من أسمى درجـات المجتمع ، بل من الدم الملكى أحيانا ، وهكذا كانت مكانة الكهنة انما تقوم على أساس أنهم منووبون عن السلطة الملكية المؤلهة ، وكانوا يؤدون الطقوس الدينية اليومية فى كل البلاد باسم الملك الفرعون .

هذا ولم يكـن الكهنة المصريون طائفة منعزلة تعيش على هـامش المجتمع ولا تغشاه الا لاستمالة الجماهير ، ودفعها نحـو حياة خلقية أرفع مستوى وأقوى نشاطا من حياتها العادية ، وانما كانوا يقومون بدور نواب الملك صاحب الحق الوحيد فى القيام بالخدمة الدينية ، وكان قوامها العمل على رعاية الالهة على الارض ممثلا فى صورة متكاملة داخل قدسه فى المعبد حيث طابت له الاقامة ، كما كانوا يشاركون فى البناء الدينى للملك فرعون الذى يقتضى المحافظة على العالم كما خلقته الالهة ، الامر الذى يتطلب النهوض به متخصصون فنيون ، وفيما عدا ذلك ، فهم مواطنون عاديون لا يختلفون عـن غيرهم فى شىء ، ولا يتميزون بأنهم من أصل الهى ، وليس عليهم هدى الجماهير أو اقناعها ، وقـد يكونون هـم أنفسهم مفكرين أحـرارا أو قديسيين ، فذلك نتيجـة استعدادهم الشخصى ، ولا صلة له بنشاطهم المهنى نفسه .

ولئن لم تكن الكهانة تتطلب التزاما خلقيا معينا أو تدريبا فنيـا ، فانه يطلب من الكاهن أن توفر فيه على الاقـل شرائط معينة للطهارة الجسدية ، ولم تكن الدار المقدسة أو المعبد المصرى يشبه ما نعنيه الان بمكان العبادة ، فهو ليس مكانا يذهب اليه المتعبد ليصلى للاله ، ولا هو بالدار التى تحتشد فيها الجماهير لممارسة الطقوس الروحية وتترقب أن يتجلى عليها الاله ابان الاحتفـال ، كما أنه ليس مكانا تقـام فيه الشعائر المقدسة التى يؤم فيها أمام متخصص جمهرة من الناس ، ذلك لان المعبد المصرى لا يستقبـل الجماهير ، فمن الهيكل تقوم أبـواب متعاقبة تحمى المكان المقدس ، وكلما توغلنا الى الداخل زاد الاظلام حتى يصل المرء الى قلب المبنى ، وعندئذ وفى رهبة متزايدة يدخل الزائر مدخل الهيكل المحكم الاغلاق ، حيث يستقـر هناك التمثال المقـدس الذى يتجسده المعبود ، ويبدو أن تمثال الاله صغير الحجم ، ففى «قـدس الاقداس» كانت تقوم مقصورة فيها قارب فخم الزخرف يوضـع فيه تمثال الاله ، الذى لم يكن فى أغلب الظن يزيد ارتفاعه عن نصف متر ، وربما كان شبيها بتماثيل الالهة البرونزية الصغيرة ، التى وصل الينا منها عدد كبـير من مخلفات العصر المتأخـر .

وقد كان القوم يحجبون هذا التمثال الشديد القداسة عن أعين الناس ، حتى أنهم لم يجرؤا ، ولو مرة واحدة ، على تصويره فى رسوم المعابد ، وحتى صور قدس الاقداس لا يظهر فيها الا القارب المقدس ، تزينه من الامام والخلف رأس حيوان الاله المقدس ، أما بحارته فتماثيل الملوك وآلهة ، وتقوم فى وسطه مقصورة صغيرة على شكل المعبد ، تنسدل عليها أستار تغطيها وتحجبها عن الانظار مبالغة فى حمايتها ، وكانت الطقوس تقضى أن الكاهن بمجرد أن يرى مثال الاله عليه «أن يقبل الارض وينطرح على بطنه ، ثم ينطرح مرة أخرى على بطنه ، ويقبل الارض بوجه يتجه الى أسفل ويطلق البخور ثم يحيى الاله بانشودة قصيرة» ، هذا وقد كان على الكاهن أن يقوم بتزويد التمثال المقدس بالطعام والشراب يوميا ، فضلا عن حمايته من الارواح الشريرة التى يحتمل أن تفاجأه بالاذى .

هذا وقد اشترط القوم ان تتوافر فيمن يسمح لهم بدخول المعبد والاقامة فى رحاب الصنم الرهيب شروطا أولية من الطهارة البدنية ، ومن هنا كان الاصطلاح الذى يطلق على أكثر طوائف الكهنة انتشارا «الكهنة المتطهرون» ، وطبقا لرواية هيرودوت المتصلة بالمعابد ، فقد كان الكهنة قبل بدء خدمتهم ينزلون الى الماء فيريقونه على أنفسهم بغزارة ، فاذا لم تكن هناك بركة حل محلها حوض من الحجر ، وهناك ضرب آخر من الطهارة المادية اذ كان على الكاهن أن يغسل فمه بقليل من مذاب النطرون قبل أن يطرق المكان المقدس ، كما كان عليه كذلك أن يزيل الشعر من جسده ، ويذهب هيرودوت الى أن الكهنة كانوا يحلقون أجسامهم بأكملها حتى لا يتوالد بها القمل أو غيره من الحشرات أثناء قيامهم بخدمة الالهة ، كما كانوا يمارسون الختان حبا فى النظافة لانهم كانوا يفضلون النظافة على حسن المنظر[1] .

---

(١) أدولف ارمان وهرمان رانكه : المرجع السابق ص ٢٩٤ ـ ٢٩٦ ، هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٢٤ ـ ١٢٥ ، سيرج سونيرون : كهان مصر القديمة ص ٣٧ ـ ٤٢ ، وكذا

=

(٢) امتيازات الكهنة :

يذهب هيرودوت الى أن الكهان انما كانـوا «يتمتعون بامتيازات ليســت بالقليلة ، فهم لا يستهلكون ولا ينفقون شيئــا من ثرواتهــم الخاصة ، بل يصنع لهم خبز مقدس ، ويصيب كل واحد منهم يوميا كمية كبيرة من لحم البقرة والاوز ، وتقدم لهم خمر مصنوعة من العنب ، وأكل السمك غير مباح لهم ، ولا يبذر المصريون الفول فى بلادهم أبدا ، ولا يذوقون ما قد ينبت منه نيئا أو مطبوخا ، أما الكهنة فلا يطيقون حتى رؤيته ويعتقدون انه بقل نجس» ، غير ان الرحالة الذين أتوا بعده لم يشاركوه هذا الرأى ، فهم يذكرون أن الكهنة كان عليهم أن يحرموا على أنفسهم كل شىء تقريبا ، ومن تلك المحرمات بعض أجــزاء الذبائح ، فضلا عن لحوم البقر والخنزير والماعز والحمام والبجع والاسماك ، وبخاصة البحرية منها ، الى جانب الخضر والفول والثوم ، أما النبيذ فكانوا لا يتناولون منه الا قدرا ضئيلا أو لا ينالون منه شيئا ، كما أن الملح الذى كان من منتجات الاله تيفون لم يكن من المرغوب أن يظهر على موائدهم •

وبدهى أن فى ذلــك مبالغة غير مقبولة ، وربمــا كانت الحيوانات والخضروات التى أشرنا اليها محرمة فى بعض الاقاليم ، ولم تكن كذلك فى أقاليم أخرى ، كما أن تحريم أنواع بعينها من الاطعمة فى اقليم انما كان خاصا بعقيدة الاقليم نفسه ، وأما الفول فأغلب الظن أن يكون فى رواية هيرودوت شىء من المبالغة ، وقد يكون الصواب فيما رواه ديودو الصقلى من أن أكل الفول قد كان محرمــا على بعض المصريين ، وعلى أى حال ، فلقد وجدت حبوب الفول فى قبور بعض المصريين ، مما يشير الى أن زراعته لم تكن محرمة ، كما يزعم هيرودوت ، وربما كان تحريم أكله مقصورا على الكهان ، وأما السمــك فقد اختلفت الاراء حــول

=

وانظر عن الختان :

J. H. Breasted, Op. Cit., P. 303.
A. P. Davies Ten Commandments, N. Y., 1956, P. 59-60.

تقديسه فى مصر الفرعونية ، وان كان مما لا شك فيه أن السمك النيلى كان وما يزال من عناصر الغذاء طريا ومجففا ومملوحا ، وقد أشار الى ذلك هيرودوت نفسه ، وبخاصة فى أقاليم الدلتا والفيوم حيث كان فى الفيوم كذلك مصدرا من مصادر دخل الخزانة الملكية ، هـذا وتشير الوثائق التاريخية الخاصة بأنصبة العمال من الغذاء الى مقدار ما كان يصرف لكل منهم من السمك ، ومع ذلك فقد اعتبر القوم أن صيد السمك من الحرف الوضيعة ، الا أن تكون رياضة يمارسها الهواة من المقتدرين وأهل اليسار ، كما أن القوم قد قدسوا السمك ، وبخاصة على أيـام الرعامسة ، فى كثير من المدن كاسنا وأبيدوس والبهنسا(٢) •

وأيا ما كان الامر ، فان حياة الكهنوت انما كانت تحرم الاتصال الجنسى أيام الاعتكاف فى المعبد ، كما كان عليهم الاكتفاء بزوجة واحدة ، بينما كان لغيرهم أن يتزوج من أكثر من واحـدة ، ومع ذلك فلم يكن هذا القيد عاما ، وكان عليهم جميعـا أن يتطهروا عندما يعبرون السور المقدس ، وطبقا لرواية هيرودوت «فقـد كان المصريون أول من راعى السنة التى تحرم مجامعة النساء فى المعابد ، كما تحـرم دخولها بعد الجماع دون اغتسال ، وسائر الشعوب ، فيما عدا المصريون واليونان ، يجامعون النساء فى المعابد ويدخلونها بعد الجماع دون اغتسال ، اذ يعتقدون أن شأن الانسان فى ذلك شأن سائر الحيوان ، وأضافوا أنهم يرون جميع الحيوانات والطيور على كافة أشكالها تتعاشر فى معـابد الالهة وحرمها ، فاذا كان ذلك العمل لا يرضى الاله فلما ذا اذن تفعله الحيوانات» ، وعلى أى حال ، فالنصوص المصرية لا تحتمل تأويلا فى ذلك ، فالداخل الى المعبد يجب أن يتطهر من كل اتصال جنسى بالمرأة ، بل يجب أن يمتنع عن الاتصال الجنسى قبل دخوله المعبد •

---

(٢) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٢٢ ـ ١٢٧ ص ١٨٣ ـ ١٨٤ ، ٢٨٣ وكذا
Diodorus, I, 99, 4; G. Legrand, Herodot, II, P. 92; BIFAO, 28, P. 4. K. Sethe, Urk., I, P. 173, 202.

هذا ولم يكن الكهنة يرتدون غير ثياب من الكتان ، وكانوا يحرمون على أنفسهم بعض الاقمشة كالصوف الذي كانوا يأخذونه من كائنات حية تصيب لابسها بالقذر ، وتحط من قدسية الاماكن التي كانوا يؤدون فيها واجباتهم المقدسة ، وعلى أى حال ، فلقد كان أجود اللباس عند القوم انما يصنع من الكتان ، فهو لشدة بياضه سريع التأثير ، لا يكاد أثر الوسخ يبدو فيه حتى يبادر حامله الى تنظيفه ، كما كان زى الكهنوت لا يتغير ، ومن ثم كان الكهان على مر العصور بزيهم الثابت هذا ، والذى ارتدوه منذ العصور الاولى للحضارة المصرية .

ولم يكن يميز هذا الزى الا بعض التفاصيل التى تحدد وظيفة كل كاهن ، كالوشاح الذى يتشح به الكاهن المرتل ، فأما الكهنة المتخصصون، وكذا كبار الكهنة ، فقد كان من حقهم أن يخالفوا ذلك ، فالكاهن «سم» كان يرتدى جلد فهد ، على حين كان كهنة عين شمس يحملون رداء من جلد فهد مزخرف بحليات على هيئة النجم ، كما كان كبير كهنة منف يحمل قلادة ذات شكل خاص ، ويزين رأسه بذؤابة مضفورة تنحدر على السالفة ، وعلى أى حال ، فاذا استثنينا كبار الكهنة ، فقد كان بقية الكهان يتميزون عن جماهير الشعب بقدم زيهم ووقاره ، مما كان يضيف الى هيبتهم ومكانتهم شيئا من الشهرة فى مجتمع كل ما فيه جيد وجديد[٣] .

(٣) الانخراط فى سلك الكهنة :

لم يكن الانخراط فى سلك الكهانة يتطلب ثقافة دينية معينة ، وان كان على الكاهن أن يقضى فترة فى التدريب على طقوس العبادة الصارمة ، ومن ثم فقد كانت ممارسة العمل والمران كفيلين بالوصول بالرجل العادى الى المستوى المطلوب ، ومع ذلك فانه ليبدو مستحيلا أن نصل الى قاعدة لكل الكهنوت المصرى فى كل العصور فيما يتصل

---

(٣) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٦٦ ، سيرج سونيرون : المرجع السابق ص ٤٦ .

بالشرائط التى يفترض توفرها للدخول فى نطاق الكهان ، وان كان هناك سبلا ثلاثة أتفق القوم عليها ، وهى حقوق الوراثة والترشيح وشراء الوظـــائف •

فأما حقوق الوراثة فيذهب هيرودوت الى أن الكاهن انما كان يورث وظيفته لولده من بعده وبخاصة فى المعابد الاقليمية الكبرى،ومع ذلك فلم تكن هذه قاعدة عامة ، وان أصبحت تقليدا متبعا ، وقد عثر على وصايا ترجع الى أيام الدولة القديمة ، يطلب فيها الكاهن آن تؤول وظيفته الى وريث يحدده بنفسه ، وفى الدولة الحديثة كان الرجل يزعم أحقية فى وظيفة كهانة معبد بقـــوله انه كان ابنا لكاهن هـــذا المعبود ، وهناك من العصر المتأخر لوحات تعرض لنا سلسلة من انساب أصحابها ، يذكـــر بعضهم أن أسلافه حتى الجيل السابع عشر كانوا من كهنة معبود بعينه ، ومن ثم فقد أصبح من الممكن القول بأنه كانت هناك أسرات كهنوتية ، ومع ذلك كله ، ورغم أن الوظيفة كانت تنتقل بالوراثة مـــن الاب الى الابن ، ومع ثبوت شرعية هذا الارث ، فقد كان فضل الملك فى هذ االامر يجب أن يكون واضحا ، ذلك لانه بهذا الفضل يستطيع الابن أن يحل محل أبيه ، وهكذا عندما أراد الملك بسماتيك الاول أن يكافىء «بتيزيس» بسبب خدماته الجليلة منحه لقب كاهن فى كل اعابد التى كان يشغل فيها أبوه هذه الوظيفة ، مع أن بتيزيس لم يكن حتى ذلك الوقت قد مارس الكهانـــة •

وأما الترشيح فكان يتم حين تتعثر الوراثة أو تنفى ، وحـــين يكون هناك مكان شاغر،وهنا يعقد كهان المعبد اجتماعا يتفقون فيه على اختيار من أسعده الحظ بالانضمام الى طوائفهم المقدسة ، وربمـــا كانت هذه الطريقة أمثل الطرق المتبعة لتزويد الوظائف الشاغرة بمن يشغلها ، ومن المرجح أن كل كاهن جديد ، ولو كان من أسر العـــاملين فى المعبد ، أن يوافق المجلس الكهنوتى على تعيينه ، وفى العصور المتأخرة ما يشير الى شراء الوظائف الدينية ربما بسبب كثرة الموارد التى كانت تفيض على الكهـــان •

وأما عن التعيين ، فمن المعروف أن الملك هو الذى يعين سائر الكهان ، غير أن عمل الملك فى واقع الامر انما كان مقصورا على تعيين كبار رجال الدين وكبار الكهنة فى العبادات الكبرى ، وأما تعيين الكهان من ذوى المناصب الدنيا ، فقد كان يترك للوزير فى غالب الامر ، هذا فضلا عن أن من سلطة الملك ترقية من يعجب بنشاطه وكفاءته من الكهان كما حدث بالنسبة الى الكاهن «نب وى» من أيام تحوتمس الثالث ، الذى رقى الى رتبة رئيس كهنة أوزير ، ثم أصبح بعد بضـــع سنوات ، بسبب حظوته عند فرعون ، المتحدث الشخصى باسم الملك فى معبـــد أحمس الاول فى أبيدوس ، والظاهر أن تدخل الملك هنا انما كان الغرض منه احسان الجزاء لكاهن مسن ، شاب فى خدمة مولاه الفرعون ، هذا فضلا عن أن «توت عنخ أمون» عندما أراد أن يعيد تنظيم الكهانة بعد ثورة اخناتون الدينية ، فقد اختار أعضاءها الجدد من بين طبقة النبلاء التى لم تزل ، فيما يرى ، النخبة الممتازة فى البـــلاد ، وهكذا «جمع كهنة من أبناء أعيان مدينتهم ، وكل منهم ابن رجل مبرز معروف الاسم» •

هذا فضلا أنه كان من حق الملك أن ينقل أى كاهـــن من معبد الى آخر ، ومن ذلك ما حدث على أيام رعمسيس الثانى عندما عين كبير كهنة أمون فى طيبة من بين رجال معبد أبيدوس ، على غـــير رضى من كهان أمون فى الكرنك ،وقد كان هذا التعيين ممـــا رواه بفخر الكاهن المعـــين «نب أو ننف» فى مقبرته بطيبة ، وقد جاء فى قرار التعيين «ها أنت من الآن كبير كهان أمون ، وسائر كنوزه وخزائن غلاله تحت يمينك ، أنت رئيس معبده ، وكل خدمه تحت سلطانك ، فأما معبد حتحور فى دندرة ، فسيئول الى سلطان ابنك ، فضلا عن وظائف آبائك ، والمركز الذى كنت تشغله أنت» ، وأخيرا فان هذا التعيين انما يدل على أن الفرعون هـــو صاحب الكلمة الاخـــيرة فى تعيين الكاهن الاكبر لآمون ، وقد بـــرره الفرعون بمهارة حتى اعتبر اختياره هذا من لدن الالهة ، ومع ذلك فان الملك لم يكن يتدخل فى تعيين كبار الكهنة الا عندما يريد أن يكافىء أحد الكهنة ، وربما أحد موظفيه ، والا عندما يود ، مدفوعا بأغراض سياسية

داخلية ، أن يغير موازين القـوى ، وخاصة بالنسبة الى كهان أمـون الاقوياء ، وفيما عـدا ذلك ، فقد كانت هناك قواعد تلتـزم ولا يمكن تجاوزهـا[٤] •

(٤) طبقات الكهنة :

كان على رأس الكهنوت فى كل معبد مصرى ما يسمى بالكاهن الاول أو الكاهن الاكبر ، وكان له شخصية بارزة فى المجتمع ، وان ارتبطت سلطته الى حد كبير بالاله الذى يقوم على خدمته ، وكان له أحيانا لقب خاص يشير الى وظيفته الفعلية فى خدمة الاله الذى كان ينتمى اليه ، وهو لقب لاشك فى أنه يرجع الى أصل بالغ القدم ، فضلا عن أنه انما يشير الى عبادة الاله نفسه ، ومن هنا فقد كان الكاهن الاكبـر لاله الشمس فى عين شمس يسمى «أعظم الرائين» ، وقد كان من قبل يسمى « من يستطيع رؤية العظيم (الاله) » وهو اللقب الذى حور بعد أن أعادت تفسيره الاجيال التالية الى «أعظم الرائين يستجلون طلعة الاله رع» ، كما كانت تطلق عليه القاب أضافية أخرى ، مثل «الذى يرى سر السماء» و «رئيس أسرار السماء» ، كما لو كان كبيرا للفلكيين •

وكان كبير كهنة بتـاح فى منف يحمل لقب «رئيس الصنـاع» أو «الزعيم الاول للفنانين» ، كما لو كان المعبد مصنعا للاله ، وربمـا لان الاله بتاح انما كان حامى الصناعات جميعها ، وأن الفنون انمـا كانت تحت حماية الاله بتاح وربما كان كبير كهنة بتاح يشغل فى الواقع وظيفة «الرئيس الاعلى للفنانين» فى مدلولهـا المعنوى ، فقد كان فى الدولـة القديمة يعتبر رئيسا فعليا لكل أعمال النحاتين والاعمال الاخرى المماثلة،

---

(٤) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٢٧ ، سيرج سونيرون : المرجع السابق ص ٤٧ ــ ٥٢ ، محمد بيومى مهـران : مصر الجـزء الثالث ص ٣٣٩ ــ ٣٤٠ وكذا

C. D. Noblecount, Op. Cit., P. 182-183.

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, P. 257-258.

W. F. Edgerton, JJNES, 6, P. 156.

ويظهر أنه فى الاصل كانت هنـــاك شخصيتان توزع عليهما أعمال هذه الوظيفة التى كان نصفها دينيا ، ونصفها الاخر دنيويا •

وفى أخريات أيام الدولة القديمة نقل أحد الملوك كل شىء الهى وكل ما كان يقوم به الكاهنان الى رجل يدعى «تيتى ـــ سابو» كانت له فيه ثقة كبيرة ، هذا وقد كـــان الكاهن الاكبر للاله تحوت يسمـــى «عظيم الخمسة لبيت تحـــوت» وكان كاهن أمون الاول يحمل لقـــب «الكاهن الاول للاله» أو بعبارة أصح «الخادم الاول للاله» ، كما كان يحمـــل نفس هذا اللقب أى «الكاهن الاول» لكل من الالهة «مين» و «أنحور» و «حتحـــور»[5] •

وكان من الممكن أن يصل الكاهن الاول الى وظيفته عن طريق الترقى فى مختلف الوظائف الكهنوتية،وان كان من المعتاد فى الكهانات الكبرى أن يتم ذلك وفقا للظروف السياسية أو الرضى الملكى ، كما كان من الممكن أن يختار كبير الكهنة من خدم بيت أمون أو من بين رجال البلاط أو كبار قواد الجيش ، كما كان من حق الملك أن يختار كبير الكهنة من غير هؤلاء وأولئك ، كما فى حالة «نب أو ننف» وفى هذه الحالة كان التعين يؤيد بنبوءة الهية ، ثم يتلقى الكاهن الاكبر الجديد من الملك هدية عبارة عن حلقتين من الذهب ، وعصا رمزية ، وكان رؤساء المعابد الكبرى فى مصر يختارون عادة من أرقى الطبقات ، فقد كانوا فى الدولة القديمة من أبناء الملك عادة ، وأما فى المقاطعات التى كانت تحت نفوذ أمرائها المحليين،فقد كان هؤلاء الامراء فى نفس الوقت هم رؤساء خدم الاله والكهنة الكبار •

وكان الكاهن الاول يمثل الملك فى المعبد الذى كان موكلا به ، وكان هو الذى يقوم فى غياب الملك ـــ الذى كان وحده موكلا باقامة الاحتفالات والشعائر اليومية وأيام الاعياد والمواكب الالهية العظيمة ـــ بالشعائر

---

(٥) محمد ابو المحاسن عصفور : المرجع السابق ص ٦٩ ، محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٤٦٩ ـ ٤٧٠ •

M. A. Murray, Index of Names and Titles of the old Kingdom, London 1908, P. 19.

الدينية ، وكان الكاهن الاكبر له وظائف ادارية ، بجانب رياسته الدينية ، فكان يشرف عى الامور الدنيوية الخاصة بالاله ، وكانت غالبا كثيرة جدا ، مما أدى الى تدخله فى الامور السياسية ، كما يبدو ذلك واضحا فى كبير كهان أمون فى الكرنك ، وعلى أى حال ، فلم تكن هناك مميزات ظاهرة يمتاز بها الكاهن الاكبر عن الكهنة الاخرين ، فقد كان رأسه حليقا ، ويرتدى جلد الفهد عندما كان يقوم بأداء الشعائر الدينية ، وكانت ملابسه كملابس عظام القوم فى عصره ، ففى الدولة الحديثة كان يرتدى أحيانا قميصا فضفاضا يصل الى ما تحت ركبتيه ، وأحيانا كان يلبس قميصا فخم المظهر بسترة مكشكشة وكمين مفتوحين ، وأحيانا كان يحمل شارة خاصة بوظيفته ، وخاصة كبير كهان بتاح فى منف •

وكان هناك فى كهانة أمون الكاهن الثانى ، وكان صاحب مركز مرموق فى الدولة ، ويحل محل الكاهن الاول الذى كانت مهامه الدينية والسياسية تضطره فى أحايين كثيرة الى الغياب عن معبد الكرنك ، ولكنه كان كثيرا ما يختص بشئون عمال الحقول وادارة الشئون الخارجية للاله ، مما استدعى أن يكون تحت امرته ادارة كاملة وأعداد كبيرة من الموظفين والكتاب والخدم لادارة دولة أمون ، التى كانت أشبه بدولة داخل الدولة ، كما كان يعاون هذا الكاهن الثانى كاهن ثالث فى احياء الطقوس وتصريف الامور فى اقطاع الاله الكبير ، فضلا عن كاهن رابع ، كما كان يعاون الكاهنين الثالث والرابع خدم الاله ، والذين كانوا يقسمون الى أربع جماعات تتناوب الخدمة ، وقد سماهم الاغريق فى غير دقة بالنبئين لانهم كانوا يترجمون ما ينطق به وحى الاله •

وفى الواقع لم يكن الاله المصرى قوة معنوية تعبد فى أى مكان ، وانما كان مولى قويا شديد البأس ، يحل جسديا فى قدس الاقداس ، ومن ثم فقد كانت رعايته مادية ، اذ يتطلب الغذاء والكساء والزينة ، ومن هنا كان العاملون فى خدمته من رجال الكهنوت أشبه بمن يحيطون بعظيم فى قصره ، ويتسمون مثلهم خدما ، وفى كثير من الاحايين نجد المعابد المتوسطة فى يد عدد محدود من خدام المعبود ، ولكن حين يكون

المعبود من الاهمية بمكان ، ويتضخم عـدد العاملين فى خدمته ، تتعدد طبقاتهم ، كما فى هيئة كهانة أمون حيث تدرجت طبقات خدم المعبود أكثر من غيرهم فى المعابد الاخـرى ، واحتوت على أربع طبقـات من العاملين ذوى السلطان ، فضـلا عن الخدم الذين لم تنظمهم سـجل الدرجات العليـا •

وهناك الكهنة المرتلون (خريوحب) وهم الذين يفسرون الكتـب المقدسة ويتلون الصيغ الدينية أثناء الحفلات الدينية ، كما كان يسند اليهم منح الاسم للطفل الملكى ، وكان لهم رئيس يسمى «حرى شب» ، ويلى ذلك طبقة أدنى من الكهان يدعون «الكهنة المطهرون» (وعبو) ، وربما كان اسمهم مأخوذا من الكلمة التى تعنى طاهر أو نقى ، وكانوا يتولون أعمـال المساعدة من ذبح العتائر والاعمال اليدوية مثل تنظيف المعبد ، فضلا عن تزيين تمثال الاله ، وقد اعتبروا فيما يعد فى أسفل السلم الكهنوتى ، أو بعبارة أخـرى أصبح اسمهم يعنى «كاهـن» فحسب ، كما كان هناك الى جانب الطبقة الدنيا من رجـال الكهنوت مساعدون تزخر بهم رحبات المعابد المصرية •

وهناك جماعة من الدارسين والمثقفين فى «بيت الحياة»[٦] ، وكانوا يقومون بالعمل فى غرف قرب المعبد ، ويعنون بالكتب الدينية اللازمة للعبادة وغيرها من ألوان المعرفة ، ويذهب بعض الباحثين الى أن هذه المدارس التى سميت «بيت الحياة» أو «بيوت الحيـاة» انما كانت موجودة بصفة مؤكدة فى منف وأبيدوس والعمارنة وأخميم وقفط وطيبة وعين شمس وساو واسنا وادفو وغيرها ، ذلك لانه من المفروض أن يكون لكل معبد ذى مكانة ملحوظة «بيت حياة» خاص به ، ولقد كانت

---

(٦) أنظر عن «بيوت الحيـاة» (محمد بيومى مهـران : الحضارة المصرية ـ الجزء الاول ـ العلوم والاداب ص ٣٤٤ ـ ٣٤٧ ، وكذا

A. H. Gradiner, Onom, I, P. 35, JEA, 24, P. 167-177.

B. Gunn, JEA, 4, P. 252.

J. Pendlbury, JEA, 10, P. 134, P. 160 F.

بيوت الحياة فى الواقع مؤسسات متخصصة تشبه الاكاديميات الحالية، أو «موسيون» الاسكندرية فى عهد البطالمة ، حيث كان يلتقى العلماء والفلاسفة والاطباء وطلبة العلم فى بيوت الحياة هذه ليتبادلوا الاراء فيها ، على أساس أنها معاهد علمية تلحق بالمعابد ، ويشغل المتخرج فيها مركزا مرموقا ، فهو «كاتب دار الحياة ، ما من أمر يسأل عنه الا ويجد له جوابا مناسبا» ، ومن ثم فان المتخرجين فيها لم يكونوا كهنة بالمعنى المعروف ، فهم ألصق بالعلم منهم بالدين ، وألقابهم تشير الى تمسكهم بالالقاب الخاصة بالكتاب أكثر من التصاقهم بألقاب الكهنة .

على أن هناك من يذهب الى أن بيوت الحياة لا تعدو أن تكون بناء مزدوجا من مدرسة ودار للنسخ حيث كانت النصوص القديمة تجمع وتنسخ وتدرس،حيث كانت تعد المؤلفات اللازمة لاداء الطقوس الدينية وتناقش المسائل الفلسفية والدينية،وحيث كان الى جانب الكتبة الفنانون والرسامون الذين ينقشون جدران المعابد والمقابر بالنصوص والمناظر ، وبدهى أن أبرز ألوان النشاط فى بيت الحياة هو اعداد الكتب الدينية اللازمة للعبادة ، وذلك باعادة كتابة المخطوطات القديمة وتصحيح ما فيها من أخطاء ، وسد ما فيها من فراغ بسبب ما لحق القراطيس من تلف ، هذا وقد أطلق اليونان على موظفى بيت الحياة اسم «هيروجراماتس».

وقد كان بعضهم من الكتبة الممتازين ، وكان الباقون من ذوى الثقافة الرفيعة موظفين ممثلين للحكمة فى رحاب المعبد ، وكان فرعون يختار أحيانا من بينهم ممثليه الدينيين حين يتطلب ايفاد بعثات رسمية فى المعابد المصرية ، وقد ذاع صيت هذه المجامع العلمية وانتقلت سمعة أصحابها عبر البحر ، كما تشير الى ذلك كثير من النصوص الاغريقية واللاتينية التى تحدثت عن حكمة هؤلاء الكتاب المقدسين ومعرفتهم الفنية ، فقد كانوا قادرين على اشفاء المرضى ومعرفة النباتات الطبية والجغرافيا والعلامات المميزة للحيوانات المقدسة وتاريخ الملوك والقدماء والتنبؤ بالمستقبل والعمل على نزول المطر ، وأما زملاؤهم الكهنة القراءون من نساخ الكتاب المقدس ، والذين سماهم الاغريق

Peterophores بسبب الريشتين الكبيرتين اللتين كانتا تزدان بهما شعورهم فقد شاركوهم هذه الشهرة العالمية ، فضلا عن الشهرة الشعبية فى مصر .

وهناك كذلك جماعة الكهنة حفظة الوقت ، وجماعة الفلكيين الذين يحددون أيام الاعياد وأيام المآسى ، وما يشير اليه اليوم من نحوس أو سعود،وهناك أيضا جماعة المغنيين والمغنيات والموسيقيين والموسيقيات الذين كان لهم دور هام فى الحياة الدينية فى المعبد ، وكان الاله يصحو فى الصباح على نغماتهم وترتيلهم ، وهناك بعض النصـــوص فى دندرة والمدامود وغيرهما منظومة على وتيرة ايقاعية ، مع بعض المقاطع التى ترددها مجموعة من رجال التخت ، كما كانت تتضمن لازمة متكررة ، هذا وقد أخذ دور هؤلاء المغنيين فى ازدياد بمرور الزمن ، حتى رأينا «كليمان السكندرى» يشـــير الى أهميتهم ويضعهم فى مصاف الكهنة الممتازين ، وان كان ذلك موضـــع شك على الاقـــل بالنسبة لمراكزهم الاقتصادية والاجتماعية فى العصور القديمة .

وهنـــاك الاداريون الذين كانوا يشرفـــون على ممتلكات المعبـــد ومخصصـــاته ، وكان يرأسهم جميعا حاكم الاقـــليم الذى كان يلقب بالمشرف على الكهنة ، وان كان يبـــدو أنه كان اشرافا اسميا ، اذ أن الكثيرين منهم كانوا يشرفون على عدد كبير من معابد الاقليم ، فقد كان لمعبد أمون فى طيبة مثلا ، جهازه الادارى الذى كان يعتبر بمثابة وزارة قائمة بذاتها ، ولم يكن فيها للموظفين الدينيين أى شأن ، فكان هناك من يديرون الاراضى من كتبة الضيعة وكتبة الحسابات ورؤساء الجنود ورؤساء الرديف ، كما كان هناك رئيس الخدم فى بلاط المعبود ، وكبير خدامه والمشرف على موظفيه ورئيس الشرطة ، وكان يوكل بنتاج المعبد وغلاته الى «رئيس قطعان الماشية من ذوات القرون والاظلافوالريش» أما الحقول فكانت تحت اشراف مدير الحقـــول والاراضى الصـــالحة للحرث ، وكانت المحاصيل تحت اشراف «رئيس مخزن الغلال المزدوج»، وأما الخزينة فكانت تحت اشراف «مدير الخزانة ورئس كل شىء يقع تحت يمين الاله آمون» .

وكان تحت كل واحد من كبار الاداريين هؤلاء ، جيش من النواب والمساعدين والكتبة وصغار الموظفين الذين يكونون الجهاز الاداري العام لبلاط الاله آمون ، ومع ذلك فقد كان من الممكن عمليا أن يصبح أعضاء الجهاز الاداري الدنيوي على اختلاف درجاتهم من رجال الدين ، وفي أغلب الاحايين كانت الهيئة الادارية لمعبد معين ، بما فيها مدير المعبد ومدير قطعان الماشية ورئيس خزانة الاله وكاتب داره ومدير خـزائن غلاله ، تحت رئاسة حاكم الاقليم ، كما أشرنا آنفا حيث كان يضطلع بجانب وظائفه الادارية ، ببعض المهام الدينية ، كما كان الامر بالنسبة الى «حمبي زفاي» أمير أسيوط في عهد سنوسرت الاول ، الذي كان يعتبر نفسه يعتبر نفسه عضوا في الجهاز الديني ، وأن عمله في المعبد لم يكن يقل كثيرا عن أولئك الذين يؤدون الطقوس الدينية فيه .

وهناك الى جانب الاعداد الهائلة من المساعدين من غير الكهنة من حراس المباني المقدسة وعمـال الصناعة والقصابين والخبازين وزراع الزهور وغيرهم ، فضلا عن الفنانين والمهندسين والنقاشين والرسامين والنحاتين ، كانت هناك مجموعة من الاشخاص ضخمة وغريبة في آن واحد ، منهم «النساك» (الخلوتية) وهم فريق من المدنيين الراغبين في البعد عن الحياة بصورة ما يمكن أن نسميه بالانعزال أو الاختلاء ، وان كان من حقهـم الخروج من المعبـد متى يشـاءون ، ومنهـم «النذيرون»[٧] الذين نذروا أنفسهم لخدمة الاله والانقطاع للعبادة ، وكانوا يحصلون من رجال الكهنوت على نوع من الحماية لقاء تنازلهم للكهانة عن بعض ممتلكاتهم ، وكان في استطاعتهم أن يمارسوا احـدى الوظائف الملحقة بخدمة الاله ، ومنهم «المستجيرون» والذين يجدون في قربهم من مذبح الاله راحة لانفسهم وملاذا يهرعون اليه هربا من متاعب الحياة التي يجدونها على أيدي الشرطة ومحصلي الضرائب والتجنيد وغير ذلك من مشكلات الحياة ، وهناك الاشرار الذين يكتفون بالامن

---

(٧) قارن : النذيرون عند بني اسرائيل (محمد بيومي مهـران : اسرائيل ـ الحضارة ـ الكتاب الرابع ـ الاسكندرية ١٩٧٩ ص ١٥٠ ـ ١٥١)

المادى الذى يكفله لهم المعبد ، لقاء قيامهم ببعض الاعمال البسيطة من أجل لقمة العيش التى ينالونها ٠

وهناك الذين جاءوا للتنفيس عن آلامهم أو التماس وسيلة لشفائهم عن طريق الاحلال ، وهناك أهل الكشف وهواة العذاب الذين عرفتهم معابد العصور المتأخرة ، وتصورهم نصوص المنجمين بأن « اهمـالهم للعناية بأجسادهم كان رهانا لكمالهم الروحى ، فقد كانوا يلبسون ثيابا رثة ، ويتركون شعورهم بدون تهذيب فيبدو على شكل ذيل الحصن ، وكانوا أحيـانا يكبلون أجسامهم الهـزيلة بالسلاسل اشارة لسجنهم الاختيارى ، ولاشك أنهم كانوا يفرضون على أنفسهم الامتناع التام عن بعض الاشياء ، ويجبرون أنفسهم على النظام ، كما أن زهدهم فى الحياة يجعلهم فى نظر العامة من الناس يستحقون أن يتجـلى عليهم الاله ، وكانوا يقومون أحيانا بشرح الاساطير الالهية للزوار والسائحين والحجاج قائمين بذلك بوظيفة التراجمة ، كما كانوا كثيرا ما يزعمـون التنبؤ بالغيب ، وتنتابهم الرعدة عند التنبؤ فيجنـون بعض المكاسب بسبب الجنون الالهى الذى يعتريهم »[٨] ٠

(٥) المرأة والكهانة :

لم تكن المرأة بعيدة عن الخدمة الدينية ، فقد كانت بعض النسـاء يتفرغن لخدمة المعبد ، كما يفعل الرجال ، ومن ثم فقد رأينا فى الدولة القديمة بعض النسوة اللاتى يتباهين بأنهن كاهنات للالهة نيت وحتحور وربما يقمن بطقوس العبادة كالرجال ، وربما كن من سيدات المجتمع أو

---

(٨) سبج سونيرون : المرجع السابق ص ٦٤ ــ ٨٢ ، ١٤٨ ــ ١٤٩ ، نجيب ميخـائيل : المرجـع السـابق ص ٢٧٩ ــ ٢٨٢ ، ٤٥٠ ــ ٤٥١ ، ياروسلاف تشرنى : الديانة المصرية القديمة ص ١٦٦ ــ ١٦٨ ٠

مجرد بنات كهنة ورثن وظائف ابائهن ، وأما ظهور المرأة كمغنيـة أو موسيقية فأمر أكثر شيوعا ، وتحفل النقوش بمنـاظر للنساء يمسكن بالصلاصل أو يعزفن على الجنك أمام المعبود لارضائه •

هذا وقد ظهر منذ الدولة الحديثة لقب كهنوتى جديد حملته الملكات أو الاميرات اللاتى سيصبحن ملكات ، وهو لقب «زوجة الاله» أى زوجة الاله آمون ، ومن ثم فقد أصبحن ينلن ، بجانب حقوق الوراثة ، مركزا دينيا ممتازا ، يتصل بآمون رع ، وكما أشرنا من قبل ، أن هذه الوظيفة انما نشأت فى السنوات الاولى من عهد الاسرة الثامنة عشرة ، وكانت الملكتان «ايعح حوتب» و «أحمس نفرتارى» أول من شغلتا هذا المنصب الدينى الهام ، وان بدا فى عصور متاخرة أن اللاتى كن يشغلنه أميرات، ولسن ملكات ، كما أصبح له فيما بعد أهمية سياسية كبرى ، ذلك أنه منذ الاسرة الحادية والعشرين أصبح لقب زوجة الاله ، وعابدة الاله ، من نصيب ابنة الملك ، التى أصبحت الزوجة الملكية للاله آمون ، كمـا أصبح محرما عليها أن يتصل بها أى رجل اتصالا جنسيا •

وكانت زوجة الاله هذه تمارس سلطانا ضخمـا ، وتساوى الملك أباها ، فقد كانت تمتلك الضياع الضخمة وتشرف على موظفين يخصونها، وتتخذ مجموعة من الالقاب ، وتحيط اسمها بخـرطوش ، وتخلع على نفسها صفات ملكية ، وتحتفظ بأعيـاد اليوبيل ، وتقيم نصبا وآثارا باسمها ، وتقدم القرابين للالهة ، وكانت هذه الحقوق الضخمة لزوجة الاله سببا فى دفع فراعـين الاسرة الخـامسة والعشرين والسادسة والعشرين الى فكرة تبنى زوجة الاله لابنة الملك حتى تخلفها فى وظيفتها، وقد فعل ذلك «كاشتا» و «بعنخى» و «بسماتيك» الاول والثانى ، وقد

نالت ابنة الاخير لقب «الكاهن الاول لآمون» ، وهى وظيفة لم تحصل عليها أية «زوجة اله» من قبل[٩] .

---

(٩) محمد بيومى مهران : مصر : الجزء الثالث ص ١٣١ ، ٦٠٣ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٤٤ .

وكذا R. A. Camminos, JEA, 50, P. 71-101.

وكذا J. Lechant, JNE, 1954, P. 169.

E. R. Russmann, an Index to Egyptian Sculpture of The Late Period, 1971, P. 5.

T. H. Jarmes, CAH, II, Part, I, 1973, P. 307-308; A. H. Gardiner, Op. Cit., 206, 343, 344-355; ASAE, V. 1905 P. 84, F. M. A. Murray, Op. Cit, P. 28-29; A. Mariette, Les Mastabas de L'ancienne Empire Paris, 1889, P. 90, 162, 183.